المشرق
بيروت
السنة الثالثة والثلاثون
تشرين ١ — كانون ١ ١٩٣٥

في الطقس الماروني

بقلم الخوري ميخائيل الرجّي

تمهيد

قد نقرأ في مؤلّفات البعض من اهل الغرب انّ الموارنة لا طقس لهم خاصّاً بهم . فهم انّما يجرون ، في اقامة فروض العبادة الالهية ، على عوائد الكنيسة الرومانية . وقد بدأوا بتقليدها في زمن الحروب الصليبية ، من عهد البابا زخيا الثالث . ثمّ تأصلت عندهم ، بعد تأسيس المدرسة المارونية في رومية ، في آخر القرن السادس عشر . وها هي كتبهم حافلة بما يدلّ على نسبتها الى الطقس اللاتيني .

ومن المؤلفين ، غربيّين وشرقيين ، من لا يذهبون الى هذا الحدّ الاقصى . فيعترفون بان بعض الرتب اللاتينية قد تسرّبت الى الكنيسة المارونية . غير ان هذه الكنيسة لا تزال ، في مجمل طقوسها ، شرقية سريانيّة . فان هي الا

فرع من فروع الكنيسة الانطاكية السريانية ، يؤلف اتباعها ، مع اليعاقبة والملكيين ، من يسمونهم السريان المغاربة ، بالمقابلة مع السريان المشارقة اي النساطرة ومن اليهم من الملابار . ولهذا ، فان اختلفت في المعتقد مع جيرانها ، فهي تتفق معهم في الطقس . فللموارنة ولليعاقبة ، وكذلك للملكيين الاولين ، طقسٌ واحدٌ في الاصل ، كان ولا يزال في جوهره واحدًا ، وان اختلف فقط في امور عرضية باختلاف هذه الطوائف .

ولم نجد مؤلفاً واحدًا ينسب الى الموارنة طقساً خاصاً بهم يمتازون به عن اليعاقبة وسائر السريان ، فضلاً عن اللاتين . على اننا قد نوفق ، بعون الله تعالى ، في هذا المقال ، الى الدلالة على أن للموارنة طقساً مارونيًا ، لا يعقوبيًا ولا لاتينيًا . وهو يقوم بصلوات مختلفة عن صلوات الطقوس الاخرى . واهمّ من ذلك ان له سياقاً ونظاماً ، في اقامة الصلوات ، يختلف به عن سواه . ومن ثمّ كانت رتبه وخدمه وفروضه ، بمادتها اي بصلواتها ، وبصورتها اي بسياق هذه الصلوات ، قائمة بذاتها ، ذات اسلوب يميّزها عن سواها او كيان خاص بها ، مستقلة عمّا يقابلها في بقية الطقوس المسيحية .

ولا مشاحة في ان اشياء كثيرة وهامة قد تسرّبت الى الطقس الماروني من عوائد الكنيسة الرومانية ، خاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وان اشياء كثيرة وهامّة كذلك كانت قد تسرّبت اليه قبل ذلك من الطقس اليعقوبي . لكن هذه الاشياء لم تفسد جوهر الطقس ، وان تكن قد حجبته ؛ ولم تدخل فيه ، ما عدا القليل منها ، بطريقة شرعية . بل مانع الرؤساء في بعضها ممانعة عنيفة ، وانكروا البعض الآخر . وجرّب البطريرك العظيم والعالم الكبير اسطفان الدويهي ان يعود بالطقس الى سلامته الاصلية . وعقبه المجمع اللبناني المقدس فالحّ آباؤه الى شروط الاصلاح الطقسي ، على قدر ما لاح لهم منها ، وكان بامكانهم تقرير اجرائها .

وسبيلنا في الوصول الى غايتنا ، بعد تبيان ما دخل الطقس من عناصر اجنبية ، شرقية وغربية ، يعقوبية ولاتينية ، ان نبعث المخطوطات القديمة من مدافنها ، وننفخ فيها روحاً جديدة : نسألها فتجيبنا ، نصغي اليها فنسمع صدى

اصوات اجدادنا ومعلّمينا المودعة فيها ، نحدق اليها تارةً ونشخص اخرى فتظهر لنا حقيقة امرها مجرّدة واضحةً .

العهد اليعقوبي

بدون عناء ، يدرك الباحث أنّ من المخطوطات التي سلبت من ايدي الجدثان فصانتها لنا خزائن الكتب الخاصة والعامة ، شرقاً وغرباً ، ما لا ريب في صحة نسبته الى الموارنة . ومخطوطات اخرى ، ان جاز الشك في نسبتها اليهم ، فلا نكير في انها كتبت في بلادهم ووُجدت في اديرتهم ، وقد يكون استخدامها قد جرى في كنائسهم .

على ان ما يجب الالتفات اليه أنّ هذه المخطوطات ، على علّاتها ، قلّما ترجع بعهدها الى ما قبل القرن السادس عشر . وهي تكثر شيئاً فشيئاً ، كلما اقتربت من القرون اللاحقة . والقليل القليل منها يعود الى القرن الخامس عشر . اما ما كان منها من الرابع عشر ، فقد لا يتجاوز اصابع اليدين عدّاً . وهيهات ما هو منها قبل هذا القرن .

وبدون عناء ، يعرف المطّلعون ان القرن الخامس عشر كاد يكون في لبنان ، وعلى الاخص في شماليه ، في جبة بشرّاي ، مطبوعاً بطابع اليعقوبية . فالقليل الذي ذكره مؤرخو الموارنة ، عن امامهم الدويهي ، في هذا الصدد ، يدلّنا على انتشار اليعقوبية انتشاراً واسعاً في هذه الناحية المارونية، وعلى شدّة تأثيرها حتى انخدع بعض الموارنة هناك بها .

كان حكّام الجبة في هذا القرن ، وفي القسم الاول من القرن التالي ، المقدّمون يعقوب بن ايوب وسليله . وبعنايتهم وفضلهم ، « استتبّت الراحة ، وكثر العمران ، وأُنشئت الكنائس والمدارس ... ومَن كانوا من النساخ في ذلك العصر ... ينيفون على مئة وعشرة نساخ »[1] . ولهذه الاسباب امَّ لبنان كثيرون من البلاد البعيدة للسكنى فيه . وكان في جملتهم عدد من اليعاقبة

---

١) عن الدويهي في الدبس : الجامع المفصّل في تاريخ الموارنة المؤصّل ، بيروت ، سنة ١٩٠٥ ، ص ٣٤٧ .

جاؤوا من عين حليا ، ومن صدد الشرق ، ومن نابلس ، ومن القدس ، حتى من الحبشة[١] . وكان منهم بدون شك رهبان علماء ، وتجار اغنياء ، فأخذوا رويدًا رويدًا يسيطرون في محيطهم ، وهو على الارجح دونهم علماً وثروةً ، حتى توصلوا الى اغواء المقدّم عبدالمنعم ، فناصرهم جهراً وتهدّد من يقاومهم[٢] .

وكان بطاركة الموارنة ، حتى اوائل القرن الخامس عشر ، لا يزالون يقيمون في اديرة بلاد جبيل ، في يانوح او في وادي ايليج وما اليها[٣] ، بالرغم من ان بعضهم ، كالبطاركة الحدثيين ، كانوا من جبة بشراي . فاستجذبهم عندئذ ما كان في الجبة من عمران وامن بواسطة المقدمين ، فانتقلوا الى دير قنوبين[٤] . وقد يكون الدافع لهم كذلك ، في رأينا الضعيف ، ان يكونوا على مقربة من اليعاقبة ليكسروا شوكتهم ، ويخلّصوا البلاد والطائفة من شرّهم .

ويحملنا على هذا التقدير مـا نراه من ان البطريرك بطرس الحدثي ، وهو الثالث في قنوبين ، ارسل ينهاهم عن طغيانهم ، فكان لهم من حمـاية مقدّم بشراي ما جرّأهم على عدم الانقياد له . فاتفق البطريرك مع اهل اهـدن ، وسام مطراناً منهم ولّاه على دير الاحباش في اهدن . فعظم الامر على هؤلاء ، فنزحوا الى حدشيت محتمين بمقدم بشراي وبشدياق حدشيت . فاستنجد هذان برجال الضنية على اهل اهدن . وكان ما كان من فتك الاهدنيين بهم فتكاً ذريعاً . فنكب اليعاقبة بذلك ، وهربوا من جبـة بشراي ، وتشتّتوا ايدي سبا . وكانت نكبتهم هذه سنة ١٤٨٨[٥] .

على ان تأثير اليعقوبية كان قد تأصّل عند الموارنة ، فبلغ حدّاً جعل البعض يزعمون ان الموارنة فرقة من اليعاقبة . فقام ابن القلاعي يفند زعمهم في كتابه الموسوم « مارون الطوباوي »[٦] . وما يدهش شديد الدهش ان البطريرك ميخائيل

١) الدبس مْ ، ص ٢٤٧ .
٢) الدبس مْ ، ص ٢٤٨ .
٣) الدبس مْ ، ص ٢٠٠–٢٠٧
٤) الدبس مْ ، ص ٢٥١
٥) الدبس مْ ، ص ٢٤٨–٢٤٩
٦) ذكره الدبس مْ ، ص ٢٤٦ و٢١٠

الرزي (١٥٦٧–١٥٨١)، قد اضطرّه بعض الخصوم الى المدافعة عن نفسه، تجاه الكرسي الرسولي المقدس، أنه ليس يعقوبيًا، ولا من اصل يعقوبي[١]. وكان هذا، كما ترى، بعد نكبة اليعاقبة بما يقرب من قرن كامل.

واذا كان التأثير اليعقوبي قد بلغ هذا المبلغ عند الموارنة مدة قرنين، فلا غرابة ان يكون قد ترك آثارًا جمة في الطقس. فاليعاقبة، وبينهم رهبان علماء، قد غمروا الاديرة والكنائس، بل البلاد كلها، بمخطوطاتهم الطقسية وغيرها؛ ونساخهم اخذوا يخطّون الكتب لحساب الموارنة. وهؤلاء قد خُلب بعضهم بمظاهر العلم والفن والجاه التي كانت لضيوفهم اليعاقبة، فاهملوا كتبهم العتيقة، واخذوا باقتناء هذه الجديدة، وبالنسج على منوالها، وبالنتيجة باستعمالها. نرى ذكرًا لذلك في كتاب رحلة الاب دنديني القاصد الرسولي الى الموارنة، حيث قال في آخر الفصل الثامن عشر: «ان الكتب الفاسدة الرديئة منتشرة جدًا ما بينهم (الموارنة)، لانها ليست محرمة. ومنها مؤلفات للنساطرة واليعاقبة وتباع ديوسقوروس وغيرهم من اصحاب البدع، الذين يقيمون ما بينهم وينشرون كتبهم بذكاء وعناية، فيحرزها هؤلاء بدون الانتباه الى ما تتضمنه من ضلال. وقد اخبرني بعضهم ان اليعاقبة ادخلوا من كتبهم الى بلاد الموارنة، من زمن ليس ببعيد، ما يقارب خمسين حمل بغل.»[٢]

ولما كانت المخطوطات التي ستيناها مارونية، على ما مرّ، اما لاستعمالها في كنائس الموارنة واما لكتابتها في بلادهم وحفظها في خزائنهم، يرجع اغلبها الى هذين القرنين الخامس عشر والسادس عشر، المطبوعين بطابع اليعقوبية، فلا غروَ ان يكون قد اعترتها اشياء واشياء من طقس اليعاقبة ومعتقدهم، بحيث يتحتم على الناقد البصير الّا يركن اليها تمام الركون انها شواهد عدل على

---

١) في الدبس ٦، ص ٢٦٠

٢) دنديني: *Missione Apostolica al Patriarca et Maroniti del Monte Libano*, Casena, 1656. وقد ترجمه ريشار سيمون الى الفرنسية. — *Voyage au mont Liban*, du R. P. Jérôme Dandini. Paris, 1675. وعرّبه الخوري يوسف يزبك المشيقي وطبعه في بيت شباب، لبنان، سنة ١٩٣٣.

معتقد الموارنة وطقوسهم ؛ بل ان يميز غثها من سمينها ، يعقوبيها من مارونيها ؛ ويمحصها حتى تنقى مما قد خالطها ومازجها ، ولا يفتأ يعالجها حتى تنجلي الرغوة عن الصريح .

هذا ما جاهر به الموارنة المجتمعون بحضرة الاب دنديني المشار اليه . فلما كان يعترض على صحة معتقدهم ببعض اغلاط ذكرتها كتبهم ، كانوا يجيبونه منكرين نسبة هذه الكتب اليهم ، ومؤكدين انها لليعاقبة الذين كانوا ينشرونها بدهاء ومكر ما بين ابناء الطائفة ، وهي تختلف اختلافاً بيناً عن كتبهم[1] .

وهذا ما كان قد كتبه قبل ذلك البطريرك ميخائيل الرزي الى الكردينال كرافا سنة ١٥٧٨ : « اذا كان في بعض النسخ شي. يخالف ذلك (معتقد الكنيسة المقدسة) ، فقد ادخله الهراطقة المحدقون بنا على تلك الكتب من زمان طويل . »[2]

وكما انه لا يصح اتخاذ هذه الكتب قاعدة لايمان الموارنة ، كذلك لا يصح اعتبارها جامعة لطقوسهم ورتبهم . فبعض الكتب الطقسية ، المصدرة باسماء ائمة اليعاقبة ، مثل ساويرا وبرصوما وامثالهما ، والحافلة بالرتب المنسوبة اليهم ، ليست مارونية ، بل يعقوبية موسومة بطابع ائمة اليعاقبة ، وهي هي تنادي بيعقوبيتها . فلا يجوز اعتبارها مارونية ، ولو وجدت بين ايدي الموارنة[3] او طبعت لاستعمال الموارنة[4] . فوجودها نتيجة ما سبقنا فقلنا . وطبعها ثمرة

١) دنديني . في محشيتي ، ص ٨٢ .

٢) ذكره الدبس م ٣ ، ص ٢٩٢ .

٣) لا تخلو خزانة الكرسي البطريركي من امثال هذه الكتب ، حتى يومنا هذا . من ذلك المخطوط عدد ٩٧ المحتوي على رتبة عماد يعقوبية منسوبة لساويرا . وقد خطه سنة ١٨٦٢ يونانية (١٥٥١ م .) جرجس شماس من ادنيت للقس نعمه ايطو وقفاً لمار سركيس . وقد شطب فيه اسم ساويرا وصححت بعض عباراته في المتن وعلى الهامش ، ومحجت صورة العماد والتثبيت الخ قصد تقريبها من الرتبة المارونية .

٤) من ذلك كتاب القداس الذي طبع في رومية سنة ١٥٩٢–١٥٩٤ . فان مجموعة النوافير المطبوعة فيه تحتوي على بعض نوافير منسوبة الى ائمة اليعاقبة : كالبطريرك يوحنا بن

التسرّع في العمل ، والجهل باصول الطقس والعلم ، ليس الّا. وما على الموارنة في ذلك من حرج[١].

ولو اهتدى بنور هذه المبادئ من كلفوا بفحص شؤون الموارنة من القديم، وكذلك من عنوا انفسهم بتخطئة الموارنة وتسويد صفحة ايمانهم النقية ، لكانوا كفوا انفسهم والموارنة والتاريخ مؤونة ما ردّدوه واودعوه كتبهم من تهمات باطلة استقوها من هذا الينبوع المسموم او الملوّث ، اعني ينبوع المخطوطات اليعقوبية او المتأثرة باليعقوبية .

وكما يؤاخذ الاجانب عن الطائفة في صدد نسبة معتقد اليعاقبة الينا ، يؤاخذ ابناء الطائفة انفسهم ، وخاصةً العلماء منهم ، في خلطهم بين كتب الطائفتين وطقوسهما ، وفي عدم تمييز الماروني من اليعقوبي ، وفي اعتقادهم ان للطائفتين طقساً واحداً.

وقد قرأنا لبعضهم عبارات مدهشة في هذا الصدد ، لا بأس بايراد ما يتسنى لنا الوصول اليه منها . كتب العلامة جبرايل الصهيوني سنة ١٦٤٤ الى العلامة نيكوسيوس ، في معرض الكلام عن كتاب القداس والنوافير ، ان النوافير مشتركة بين الموارنة واليعاقبة :« لان الكتب الكنسية هي واحدة للموارنة وللياقبة . »[٢] وقد ذهب العلامة اسطفان عواد السمعاني ، في كتابه : « لائحة المخطوطات الشرقية في المكتبة المديشية بفلورنسة » ، الى حدّ انه وضع العنوان التالي لاحد المخطوطات :« كتاب القداس السرياني بحسب طقس الكنيسة الانطاكية للسريان اليعاقبة والموارنة »[٣] . والسمعاني الكبير كتب ، تعليقاً على رتبة سر الزواج المدرجة في المخطوط الفاتيكاني عدد ٢٤٢ ، هذه العبارة: « ان السريان ، الموارنة منهم واليعاقبة ، يستعملون في خدمة الاسرار طقساً

شوشان ومتى الراعي وغيرهما . وفي نافورة مار يعقوب يذكر في تذكار القديسين برصوما (ص ١٩٨) ويعيد ذكره في الختام (ص ٣٤٥)

١) انظر بيان البطريرك سركيس الرزي امام دنديني في الدبس ج٧ ، ص ٢٩٨

٢) ذكره الاب ديب في كتابه *Etudes sur la Liturgie Maronite*. Paris, 1919. ص ٤٠

٣) ذكره ديب م٢ ، ص ٤٠

واحدًا تقريباً .»[١] والى الآن ، اذا تحدثت الى اهل المعرفة والاطلاع في الطائفة بهذا الموضوع ، اجابوك فوراً : اننا الموارنة قد اختلفنا مع السريان الآخرين في المعتقد فانفصلوا عنا ، لكن الطقس ظلّ مشتركاً بيننا.

ولما كان هذا ما يعترف به الموارنة بكل هذه الصراحة ، فاحرِ بسواهم من السريان ان ينادوا به. قال المطران يوسف داود ، السرياني الكاثوليكي، ما نصه :« كانت الكتب الطقسية للطائفتين (اليعاقبة والموارنة) واحدةً ولاسيما كتب توزيع الاسرار ، كما هو معلوم ولا حاجة الى بيانه »[٢]، وكذلك :« من غرائب ما نراه في الشيعة المارونية القديمة انها مع كونها اتخذت في طقسها جميع ما عند اليعاقبة تقريباً ...»[٣] .

قلنا كان الاحرى بعلماء الموارنة ان يأخذوا بقول ابن القلاعي ان الموارنة ليسوا فرقة من اليعقوبية ، وببيان البطريرك سركيس الرزي ان في الطائفة كتباً اخضرها فاطلع عليها القاصد الرسولي ايرونيموس دنديني، وكان قد قدمها قبلًا بيده للقاصد الاخر الذي سبقه اي يوحنا المعمدان اليانو فظهر ان الاغلاط التي اشار اليها يوحنا المعمدان لم تكن في كتب الموارنة بل في كتب اليعاقبة، حتى تعجب الاب دنديني واقرّ انّ ما اتهم به الموارنة القصاد الرسوليون هو تجنٍّ عليهم[٤]. فهم لو فعلوا لكانوا قد اهتدوا الى كتب الموارنة « التي تختلف اختلافاً بيّناً عن كتب اليعاقبة »[٥]، ولكانوا حفظوا لنا هذه الكتب النفيسة . ولا شك في ان منها كتباً طقسية تختلف كذلك عن كتب اليعاقبة في صلواتها ، وفي سياق هذه الصلوات . كالكتب النادرة التي توفقنا الى الاطلاع عليها والتي سنتكلم عنها ، ان شاء الله.

وقد ساعد الموارنة على الوقوع في هذا الخلط ما عمله بعض القدماء منهم . فانهم اذ رأوا فقر الطائفة ، بالنسبة الى اليعاقبة ، في المؤلفات الطقسية والقانونية،

١) السمعاني : لائحة الكتب السريانية في المكتبة الواتيكانية ، رومية ١٧٥٩ ، ص ٥٢٢

٢) كتاب جامع الحجج الراهنة في إبطال دعاوي الموارنة ، مصر سنة ١٩٠٨ ، ص ٧٤

٣) الكتاب نفسه ، ص ٤٠٢ .

٤) الدبس م٣ ، ص ٢٩٨

٥) في دنديني ، عشيقي ، ص ٨٣

فضلًا عن سواها ، اخـذوا عن هؤلاء بعض كتبهم كالناموس لابن العسال ، وكتاب شرح الليترجية لابن الصليبي ، ونافورات اليعاقبة ، وغير ذلـك ، وحوّروها قليلاً على موجب بعض عاداتهم وطقوسهم ، ونسبوهـا الى علمائهم الاقدمين . ولما كانت هذه الكتب تحتوي على طقس اليعاقبة ليس غير ، فقد ظن الموارنة بعدئذٍ ان للطائفتين طقساً واحداً . ويا ليتهم اكتفوا بالقليل الذي كان لديهم من كتبهم الصحيحة التي لا شبهة عليها وقنعوا به : فالقناعة غنى .

وهذا الفقر في الكتب الكنسية دفع بعض الموارنة الى المحاماة عن بعض ائمة اليعاقبة كالسروجي والرهاوي ، واجهاد النفس في تبيان كونهم ارثوذكسيين كاثوليكيين . ذلك لكي يتمكنوا من الاستمانة بمؤلفاتهم . وما كان اغناهم عن ذلك !

العهد اللاتيني

تجاه هذه الحالة ، وقد تسرب الطقس اليعقوبي الى الكنيسة المارونيـة ، فكان سبباً لاتهام الموارنة ، لدى الكرسي الرسولي المقـدس ، باتباع ضلال اليعاقبة ، كان لا بدَّ من القيام بالاصلاح الواجب.

قلنا فيما سبق ان هذه الغاية قد تكون بعض ما حدا بالبطاركة الى النزوح من وادي ايليج الى دير قنوبين في وادي قديشا. وقد رأينا البطريرك ميخائيل الرزي ، وخلفه شقيقه البطريرك سركيس ، يتنصّلان من تهمة اليعقوبيـة ، ويبيّنان الاختلاف البيّن الموجود بين كتب اليعاقبـة وكتب الموارنة ، فيقتنع بذلك الاب دنديني ، القاصد الرسولي ، فيصرح « ان الكتب المارونية الحقيقية هي كاثوليكية صرفة ، لا غبار عليها ولا يشتم منها رائحة الضلال. »[1]

ومنذ ذاك الحين اخذ البطاركة يسعون في ان يتلقى بعض الموارنة العلوم الكافية ويحصلوا المعارف الوافية ، ليتفوا معهم في وجه التيـار اليعقوبي ، ويساعـدوهم في الاصلاح المنشود . فولوا وجههم شطر الغرب ، ورغبوا في استقاء العلوم من منهل الكنيسة الرومانية ، امّ جميع الكنائس ومعلّمتهنّ .

١) عمشيتي ، ص ٨٣

وقد ذكر الدويهي ان اول من فكر في ذلك البطريرك سمعان بن حسان الحدثي، فارسل الى رومية، سنة ١٥١٥، كاهناً وراهبين ليتعلموا اللاتينية ويقتبسوا العلوم[1]. وسنة ١٥٤٢، كتب البطريرك موسى العكاري الى البابا بولس الثالث يسأله ان يوعز الى رهبان القديس فرنسيس بارسال ستة كهنة لينشئوا مدرسة بلبنان لتعليم بعض الشبان الموارنة اللغة اللاتينية[2]. وسنة ١٥٧٧، زار الموارنة من قبل الكرسي الرسولي الاب يوحنا المعمدان اليانو فاطّلع على امورهم وطلب من الحبر الاعظم، غريغوريوس الثالث عشر، في جملة ما طلب، ان تُنشأ مدرسة في رومية يتأهب فيها الموارنة الى قبول الدرجات المقدسة[3]. فتنازل قداسته الى اجابة الطلب واسس المدرسة الحبرية المارونية الشهيرة في رومية سنة ١٥٨٤[4]. وقد اقام البطريرك يوحنا مخلوف مدرسة في دير سيدة حوقا في وادي قديشا، سنة ١٦٢٤، يتعلم فيها الشبان العلوم الاكليريكية، حتى اذا نبغ احد منهم وفاق اقرانه، ارسل الى المدرسة الرومانية[5].

وفي الوقت نفسه، استرعت انتباه الجميع حاجة الطائفة القصوى الى طبع الكتب، خالية من النقائص والشوائب والمفاسد. فاقترح الاب اليانو السابق ذكره على قداسة البابا غريغوريوس الثالث عشر انشاء مطبعة سريانية وعربية لفائدة الموارنة في رومية. فتمّ الامر، وطبعت بعض الكتب الروحية سنة ١٥٨٠، والطقسية كالنويسة اي كتاب الجناز سنة ١٥٨٥، وكتاب القداس سنة ١٥٩٤[6]. وتوالى طبع الكتب الطقسية في مطبعة المجمع المقدس في السنين والقرون التالية على ما هو معلوم.

ومن البديهي ان الدارسين والطابعين كان ينتظرهم خطر كبير، وكانت الظروف التي وجدوا فيها مدعاةً الى سقوطهم فيه. فعوضاً عن ان يرجعوا، في الامور الطقسية، الى الكتب المارونية القديمة التي اراها البطاركة آل رزي

١) في الدبس م٦، ص ٢٥٩ ٢) في الدبس م٦، ص ٢٨٦

٣) في الدبس م٦، ص ٢٦٣ ٤) في الدبس م٦، ص ٢٩٧

٥) في الدبس م٦ ص ٣٥١

٦) انظر مقالتنا في المشرق. تموز - ايلول، ١٩٣٤، ص ٣٥٦

لقصاد البابا ، وشهد هؤلاء باختلافهـا البيّن عن كتب اليعاقبة ، كان لهم من تلقّنهم العلوم على ايدي الغربيين ، واضطلاعهم بالطقوس الغربيـة ، وقيامهم بالعمل تحت اشراف اصحاب السلطة الرومانية ، ما جعلهم يدخلون في طقسنا عناصر كثيرة وهـامة ، وخصوصاً في خدمة الاسرار ، من الطقس اللاتيني. فهم ، اذا كانوا قـد جردوا بعض الطقوس من العناصر اليعقوبية ، فانهم قد ادخلوا فيها عناصر لاتينية مكان اليعقوبية . وقد اخطأوا بذلك خطأً جسيماً .

حاشا لنا ان نبخس الطقس الروماني حقه ، او نخفض قدره ؛ فله شرفـه وروعته وجلاله وجمالـه . فضلًا عن ان المسيحيين الذين يرعونه ، ويؤدّون واجباتهم لله تعالى على طريقته ، يبلغون مئات الملايين عدّا . فاستدراج الموارنة الى اتباعه ، وقليل عددهم ، لا يزيده شيئاً ، كما ان استقلالهم عنه لا يضيره .

وبالعكس لو تمّ الامر الاول ، لفقدت الكنيسة الجامعة طقساً قديماً جليلًا ، تمتدّ اصوله ، مثل سائر الطقوس ، الى القرون الاولى وحتى الازمنة الرسولية ؛ ولحرمت البيعة صوتاً يرتفع الى الله ، منضماً الى الاصوات الاخرى التي تتألف منها هذه التسبحة الكاثوليكية العديمة النظير بتعداد انغامها ، ودقة ايقاعها ، وبديع توازنها ، هذه التسبحة المنسوجة على منوال التسبحة السماوية الابدية ، التي يُنشدها امام العرش وامام الحمل « جمّ غفير من كل امة وقبيلة وشعب ولسان .» [1]

وقد اعلن الكرسي الرسولي المقـدس مرارًا عديدة ، وبصور شتى خاصّة وعامّة ، حافلة وبسيطة ، اعتباره للطقوس الشرقية ، واحترامه لهـا ؛ وشدّد الاوامر بالمحافظة عليها . لكن ذلك كان بعد الزمن الذي نحن فيه .

ففي هذا الزمن وفيما سبقه من الازمنة ، كانت الافكار في رومية منصرفة الى تقييد الموارنة ، خاصة في خدمة الاسرار ، بوجوب استخدامهم من الطقس اللاتيني ما يستونه صور الاسرار ، واقتدائهم بعادات الكنيسة الرومانية . وآثار ذلك واضحة جلية في براءات الاحبار الاعظمين : من زخيـا الثالث سنة

---

١) رؤيا ٧ : ٩

١٢١٥[١] ، فلاون العاشر سنة ١٥١٥[٢] ، الى غريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٧٧[٣].

ونظن ان اول من قام بين الموارنة يجنح الى الطقس اللاتيني ويدعو الى اتباعه ، عملاً بنص البراآت الحبرية ، بل غيرةً منه تجاوزت منطوق هذه البراآت، كان جبرائيل بن القلاعي اللحفدي الذي انضم الى رهبانية القديس فرنسيس سنة ١٤٧١ ، وعاد الى لبنان سنة ١٤٩٤ ، وسيم كاهناً سنة ١٤٩٦ ، واقام بقبرس في رهبانيته. ثم سيم اسقفاً مارونياً على قبرس سنة ١٥٠٧ ، وتوفي هناك سنة ١٥١٦[٤].

فهذا جعل دأبه حث الموارنة على التمسك بالكرسي الروماني كاجدادهم . وخيّل له ان من موجبات هذا التمسك اتباع الطقس اللاتيني . ومن مؤلفاته كتاب في الناموس البيعي نجد نسخة منه بين المخطوطات العربية في المكتبة الفاتيكانية ، عددها ٦٣٩ ، وتاريخها سنة ١٥٧٤[٥]. وفي مكتبة دير الكريم مخطوط هو مجموعة قوانين، اهم اجزائه كتاب الناموس لابن العسال . ومن جملة محتوياته « شرح مختصر من ناموس البيعة عن السبع تقدمات[٦] الكنيسة المقدسة » . وقد كتب هذا الجزء « يوسف بن داود قسيس من كرمسدي سنة ١٦٠٨ للمسيح في رومية » . ولا يبعد ان يكون هذا الجزء نسخة من كتاب الناموس البيعي لابن القلاعي . فهو يتكلم عن القداس ، فالعماد ، فالتثبيت ، فالمسحة ، فالرسامة[٧] . ويذكر لكل من هذه الاسرار شرح رتبته اللاتينية ، ويورد له الصورة اللاتينية بالحرف.

ودونك ما يقوله في العماد :« الصورة الجوهرية . . . انا بعمدك فلاناً بسم

---

١) دبس تم ، ص ٣٢١
٢) دبس تم ، ص ٣٥٧
٣) دبس تم ، ٣٦٤
٤) دبس تم ، ص ٣١٠-٣١٢
٥) الاب ديب في كتابه السابق ذكره ؛ ص ١٤٢
٦) المراد بالتقدمات هنا اسرار البيعة.
٧) لم يتسنَّ لنا الاطلاع على الاصل المحفوظ في دير الكريم ، بل على نسخة مأخوذة عنه . وفي هذه النسخة لا ذكر للزواج ولا للتوبة . ولا ندري هل هذا النص في الاصل نفسه.

الاب والابن والروح القدس امين . ولا يقول مثل الروم : ينعمد فلان بسم الآب والابن والباقي، ولا مثل المشارقة ܐܢܐ ܡܥܡܕ ܐܢܐ ܐܡܪܐ ܒܡܪܥܝܬܗ ܕܡܫܝܚܐ (انا اعمد حملًا في رعية المسيح) . ولا يزيد امين بين الكلام الجوهري ويبطل الفعل ولا يخلي امين في الاخير . ولا يقول ܢܚܐ ܠܚܝ̈ܐ ܕܠܥܠܡ ܥܠܡܝܢ (الحي للحياة حتى الابد)... وليس يفعل المكتوب (يريد الصورة المسطورة امام الكاهن في الكتب آنئذ) بل باطل يكون هو فعله» . وبعد ذلك يشرح ما في رتبة العماد من نفخ، وتصليب ، وملح ، ووريق، الخ، مما يدل جليًّا على انها الرتبة اللاتينية .

وهكذا في « تقدمة الثبات في الميرون من يد رئيس الكهنة » ، يشرح الرتبة اللاتينية ويورد صورتها . ومثله «عن دهن الزيت... قبل طلوع الروح من الجسد » يشرح رتبة اللاتين ويزد صورة المسحة عندهم . وكذلك يطابق كلامه في الرسامة رتب الطقس اللاتيني .

ينتج من كل ذلك ان لابن القلاعي اليد الاولى والطولى في ابدال الطقوس اللاتينية من المارونية في خدمة الاسرار . على ان دعوته ، في مؤلفه هذا وفي سائر مصنفاته، الى اتباع الطقس اللاتيني، ما كانت تدلقيت اذاناً صاغية ، لو لم يكن لها من جانب الكرسي الرسولي المقدس تشجيع وترويج ، ولو لم يقم بين الموارنة انفسهم من يواصلها .

ان اعمال الكرسي الرسولي المقدس في هذا الصدد ، نجد اساسها في البراآت الحبرية التي سبقت الاشارة اليها ، وتفصيلها في القوانين التي عرضها قصّاده الاب اليانو ، ثم الاب دنديني ، ورفاقهما على الموارنة في المجامع التي عقدهما بحضرتهم البطاركة ميخائيل الرزي سنة ١٥٨٠ ، وشقيقه سركيس الرزي في ايلول سنة ١٥٩٦ ، وابن شقيقهما يوسف الرزي في تشرين الآخر سنة ١٥٩٦ نفسها[١] . فهي تحتم باتخاذ صورة العماد ، والحلة ، والمسحة الاخيرة ، والرسامة ، عن الطقس اللاتيني . وبفصل التثبيت عن العماد ، وتعيين الاسقف خادماً له

١) راجعها في الدبس ٦ ، ص ٢٠١–٢١٠ ؛ وفي ذيل المجمع اللبناني ؛ ترجمة المطران يوسف نجم ، ص ٩–١٦

دون الكاهن . وتحرم على الكهنة تبريك زيت المرضى المحفوظ للاسقف . وترفض صور الاسرار اذا جاءت بصيغة الطلب . واشياء مماثلة لهذه.

وفي هذه الغضون طبعت النويسة في رومية سنة ١٥٨٥ ، وفيها بعض صلوات مترجمة عن اللاتيني[١] . وكتاب القداس سنة ١٥٩٤ وفيه كلام التقديس مأخوذ عن اللاتيني . وفي المجمع الموما اليه ، الحّ الاب دنديني على البطريرك يوسف الرزي ان يسقّف جرجس عميرة ، تلميذ رومية ، ويكل اليه تأليف كتب نافعة ، منها كتاب الرتب لتوزيع الاسرار . وكانت حجة الاب دنديني ان عميرة قد عني بطبع كتاب القداس في رومية ، وان له من علمه وفضيلته ، وكذلك من شديد تمسكه بالكرسي الروماني ، ومن اخلاصه الخدمة له ، ما يؤهله لان ينظم ، بواسطة هذا الكتاب وغيره ، عبادة الله في هذه البلدان « على موجب الطقس الحقيقي والكاثوليكي » . وقد ايّد عميره استعداده هذا ، اذ اظهر رغبته الصريحة في قبول الدرجات المقدسة على يد المطران موسى العنيسي ، تلميذ رومية ، بحسب عادة كتاب الحبريات الروماني[٢] . فسقفه البطريرك على اهدن ، بالرغم من الصعوبات التي اعترضته ، وعهد اليه بتأليف او ترتيب الكتب .

وقد عدنا الى الآثار المارونية المعروفة نفتش عمّا عمله عميره ، ان في ايام اسقفيته وان في ايام بطريركيته ، في جانب الطقوس ، فلم نجد شيئاً ، اللهمّ الا انه ساعد المطران سركيس الرزي في طبع كتاب المزامير بالسريانية في قزحيا سنة ١٦١٠[٣] .

وما لم يعمله عميره ، اتمه غيره من تلاميذ رومية ، اقتداء بابن القلاعي . نذكر منهم طابعي الكتب في رومية كالخوري يوحنا بن ايوب الحصروني طابع النويسة ، والمطران اسحق الشدراوي ، والقس عبدالمسيح الطويل الحدثي طابعي الشحيمة المتوسطة المعروفة باليوسفية سنة ١٦٤٧ . وفي آخرها ملحق يحتوي على

---

١) انظر درسنا على كتاب الجناز ، في كراس مطبوع في بيروت ، سنة ١٩٢٦

٢) دنديني ، في عمشيتي ، ثم ، ص١٠٢ و١٠٤ و١٢٠ . بعد مقابلته بالاصل.

٣) انظر مقالنا في هذا الكتاب في المشرق (٣٢ [١٩٣٤] ٢٢٦-٢٦٣)

بعض رتب لتوزيع الاسرار ، وعلى بعض تبريكات وتكريسات ، وهو مترجم كله عن اللاتيني . ونخصّ بالذكر الاب اليسوعي الماروني الاصل بطرس مبارك، جامع كتاب الرتب الكهنوتية ، الذي طبع بعد موته سنة ١٧٥٢ ، مشتملًا على خدمة الاسرار الالهية واشباهها مترجمة بالحرف عن اللاتينية . بحيث يصح ان نعتبر عمله محاولةً واسعة وكاملة لادخال رتب الطقس اللاتيني في خدم توزيع الاسرار وما اليها ، عند الموارنة .

ومع هذه الآثار المطبوعة ، لا بأس بذكر بعض الرتب اللاتينية المترجمة الى السريانية والمودعة في مخطوطات ترجع بتاريخها الى هذا العهد . من ذلك المخطوط الفاتيكاني السرياني عدد٢٣٠ ، الذي خطّ احد اجزائه ، سنة ١٥٩٥، ملكيزادق من حصن كيفا من بين النهرين ، والجزء الآخر يوسف البالي سنة ١٥٨٦ . فانه يحتوي ، بين هذين الجزئين ، على جزء آخر هو رتبة التثبيت اللاتينية منقولة الى السريانية[١] .

وكذلك المخطوط السرياني الفاتيكاني عدد ٣٠٠ ، الذي كتبه في قزحيا الراهب سركيس ، سنة ١٦٠١ . فانه يحفظ للاسقف ، دون الكاهن ، حق ايلاء التثبيت[٢] . ويورد بالسريانية رتبة العماد اللاتينية[٣] .

وفي الخزانة البطريركية مخطوط سرياني تاريخه سنة١٦٠٦ ، كتبه المطران بطرس بن سابا الماقوري . في اوله رتبة تبريك ماء العماد يتبعها بدء رتبة العماد وكمالها مفقودة . وبعده صورة الحلّ من الخطايا ، وصورة مسحة المرضى بعد رتبة القنديل . وفي آخر ورقة منه ارشاد الى كيفية تبريك زواج الارامل . فكل هذا مأخوذ بالحرف من الرتب اللاتينية المماثلة ومنقول الى العربية .

وفي الخزانة نفسها مخطوط آخر عدده ٢٩٥ كتب في تنوبين سنة ١٦٥٤، برسم المطران يوسف (الحصاراتي) بدير سيدة حوقا . فانه يشتمل على الخدم الجبرية من تثبيت وتكريسات وتبريكات مأخوذة بالحرف عن اللاتيني ، وعلى

١) السمعاني. لائحة المخطوطات السريانية الفاتيكانية . مجلد ٢ ، ص ٥١٥
٢) ذكره الاب ديب ثمّ ، ص١٢٢ ، في الحاشية ٣
٣) ديب ثمّ ، ص١٠٨ ، في الحاشية ٢

رسامة المرتل والقارئ وما بعده حتى الخوري ، وهي الشرطونية المارونية ادخلت عليها الصورة والمادة من الرتبة اللاتينية .

وعند حضرة البرديوط يوسف الرامي ، من فالوغا ، مخطوط تاريخه سنة ١٦٥٠ ، يحتوي على مجموعة فتاوى قانونيـــة ولاهوتية ، كان للمطران يعقوب الرامي . ففي آخره صورة الحلّ من الخطايا ، وصورة الحلّ عند ساعة الموت ، وكلتاهما لاتينية محضة .

على ان ادخال هذه الطقوس والعادات اللاتينية عند الموارنة لم يتمّ بدون مقاومة من جانبهم . ولنا دليل على هذه المقاومة ان الكرسي الرسولي المقدّس ظلّ مدى قرون طويلة ، من زخيا الثالث الى لاون العاشر ، الى غريغوريوس الثالث عشر ، وحتى المجمع اللبناني في عهـد مبارك الرابع عشر ، يعمل في سبيل اقرار الامور نفسها . مما يخوّلنا حتى القول أنّ هذه الامور لم يكن من السهل ادخالها في عادات الطائفة .

وبواقع الحال نرى البطريرك ميخائيل الرزّي يكتب ، فيما كتبه دفاعاً عن نفسه : « ان غيرت عادة من عادات الكرسي الانطاكي فاكون مؤاخذاً امام الله والكرسي الرسولي »[1] . وليس ما يمنع ان نرى في هـذا التصريح اشارة الى ما نحن في صدده من الامور الطقسية .

وهذا خلفه وشقيقه سركيس يتولاه الغيظ الشديد ، بحضرة الاب دنديني ، اذ يعرف بما نسبه البعض الى معتقدنا وطقسنا ، ويرفض زمناً طويلاً عقد مجمع كان الاب دنديني يشوقه اليه ، خوفاً من تجديد مثل هذه التهم ؛ ولا يقبل اخيراً بعقده الا نزولاً عند الحاح الاب دنديني ، وبعد حصوله منه على التأمينات اللازمة[2] . وبالرغم من ذلك ، نرى الاب دنديني قليل الثقة بتنفيـذ القوانين التي حتم بها المجمع ، وذلك بسبب التصعبات التي كان البطريرك قد اظهرها ، وبسبب ما تحقّقه من ان الموارنة عامةً لا ينظرون الى هـذه القوانين كقواعد

---

١) في الدبس م٦ ، ص ٢٦١

٢) دنديني في عشيتي م٦ ، ص ٣٨ و٧٧ . والدبس م٦ ، ص٢٩٨

للايمان والعمل ، ومن ان البطريرك نفسه كان يصعب عليه امر تنفيذها[1] .

ولما توفي هذا البطريرك وقام مكانه ابن شقيقه يوسف الرزي ، نرى هذا الاخير ، بعد ان أقر قوانين المجمع السابق وزاد عليها ، يستدرك قائلاً : « ليس الباعث على تجديد هذه القوانين كونها لم تكن مرعية عندنا فيما سلف »[2] .

وهذا البطريرك نفسه لاقى معارضة في سبيل استجابة الاب دنديني الى تسقيف عميره . فسببه ، على ظننا الضعيف ، فيما أوخذ به طابعو كتاب القداس في رومية ، وعميره منهم ، من وضع كلام التقديس اللاتيني فيه مكان الماروني ، وفيما كانوا يخشونه من ميول عميره الرومانية ، فيما لو وُكل اليه اعداد الكتب الطقسية ، على ما رأينا .

ونسمع صدى عنيفاً لهذه المعارضة في حاشية كرشونية خطها بيده يوسف الباني سنة ١٦٦٥ على مخطوط تاريخه سنة ١٥٠٦ ، اهداه الى مرهج بن نيرون ، وهو محفوظ الآن في المكتبة الفاتيكانية تحت عدد ٤٨ . وهاك هذه الحاشية بنصها وفصها كما نقرأها في لائحة المخطوطات السريانية للسمعاني : « فلما كان تاريخ سنة ١٦٦٥ مسيحية ، وصل الى رومية يوسف الباني الميساوي ، وجاب معه كتابين الشرطونية السريانية القديمة ، مع باقية الرتبة القديمة الذي ليس حدث فيها لا زيادة ولا نقصان من معلمين بني مارون الذين اختاروا لهم الذكا والمعرفة ازكى من ابهاتنا القدما . مار افرام السرياني ، ومار يعقوب الرهاوي ، ومار اسحق ومار مارون وسائر ابهاتنا الشرقيين . فغيروا العماد القديم السرياني وتمسكوا في عماد الافرنج وفي رسامة الافرنج . وزادوا على الشرطونية القديمة صورة الافرنجية ، مفسرة منهم باللغة العربية ، لكونهم ما عرفوا يفسروها باللغة السريانية . فلكن اذا كان شرطونيتنا القديمة ليس يحل فيها رسامة فما احد اذاً قبل درجة الكهنوت ، ووضع اليد صار باطلاً » الخ ...[3]

---

١) دنديني في عمشيتي ، ثم ، ص ٦٣
٢) عمشيتي ثم ، ص ١١٧ . وذيل المجمع اللبناني ، ص ١٦
٣) لائحة السمعاني . مجلد ٢ ، ص ٢١٠

عمل الدويهي في سبيل الاصلاح

وفي هذه الاثناء، انعم الله على الطائفة برجلٍ خصّه الخالق بمواهب سامية، وحبته النعمة فضائل راسخة، وقادته العناية الالهية الى ورد المعارف والعلوم من المدرسة المارونية برومية، فصدر عنها ريّان، وعاد الى موطنه فكرّس شخصه وذاته، علمه وعمله، قوله وفعله، لسانه وقلمه، وبوجيز العبارة كل كيانه، ما هو وما له، للطائفة العزيزة: ذلك الرجل هو البطريرك العظيم اسطفان الدويهي (١٦٧٠ – ١٧٠٤)[1].

وكان من جلّ الامور التي انصرف اليها، تنظيم الكتب الطقسية. ولما كان له من اشغاله ومشاغله العديدة، وهو رئيس الطائفة، ومن محنه الشديدة في تلك الاحقاب العصيبة، ما لا يمكنه من القيام وحده بهذا العمل الشاق، الذي يقتضي مدًى طويلة، واشخاصاً كثيرين، فقد انتدب لمساعدته وللعمل تحت تدبيره المطران بطرس مخلوف، والمطران يوسف شمعون الحصروني[2]. نزيد عليهما المطران يعقوب عواد الحصروني[3]. وقد يكون منهم المطران يوسف مبارك[4]. وما عدا ذلك، فقد حثّ هذا الأب المغبوط كثيرين على النسج على منواله. فنشط جبرائيل حوّا الحلبي، بعد ذهابه الى رومية، على طبع الكتب اللازمة للطائفة؛ وحمل بعض الكهنة والاساقفة على استخراج قصص القديسين من السريانية الى العربية؛ والتمس من الكرسي المقدس طبع كتابي الاناجيل والرسائل في السريانية والعربية لاستخدام الكنائس، فطبعا في ايامه سنة ١٧٠٣؛ ووجه الى رومية ابرهيم النزيري، وميخائيل المطوشي، ليسعيا في تجهيز مطبعة لكتبنا الطقسية[5]. مما يدلّ على انه كان شديد العناية باصلاح الطقس، يوليه

١) نعتمد خاصة، في ما نستقيه من المعلومات هنا، على كتاب المثلث الرحمة المطران بطرس شبلي: «ترجمة ابينا المغبوط اسطفانوس بطرس الدويهي بطريرك انطاكية»: بيروت ١٩١٣

٢) شبلي مَ ذَ، ص ٢٠٠، والاب ديب مَ ذَ، ص ٩٠

٣) شبلي مَ ذَ، ص ١٥٨، والحاشية في ص ١٥٧

٤) شبلي مَ ذَ، ص ١٥٦

٥) شبلي مَ ذَ، ص ٢١٧

قسطاً كبيراً من اوقاته واهتمامه .

وقد استعدّ الدويهي لهذا العمل منذ سني الدراسة في رومية . ذكر عنه البطريرك سمعان عواد ، انه في ذلك الحين « ما كان يجد نصاً عن الموازنة الا وينسخه ، وانه ما كان يهدس الا بفحص عوائد كنيستنا القديمة ». وقال في محلّ آخر انه،بعد ارتقائه السدة البطريركية، « اخذ يطوف في كل رعيته ... ونقى كتبنا ... وردّ كل عوائدنا القديمة ورتبها احسن ترتيب . وكان ارسلها سابقاً الى رومية لتطبع ... ودرس كتب البيعة درساً بليغاً »[1] . ولا شك في ان اقامته في حلب ، مدة ست سنوات قبل تسقيفه ، مكنته من الوصول الى معرفة طقوس الطوائف الشرقية منشقة ومتحدة ، فضلاً عن حالة طقسنا الماروني في تلك المدينة .

اما الكتب الطقسية التي جمعها الدويهي ورتبها ، فقد جاء ذكرها في رسالة انفذها هو نفسه في اول ايار سنة ١٧٠١ ، الى الاب بطرس مبارك ، اجابةً لطلبه منه ان يلخص له ترجمة حياته[2] ، وهي كتاب الشرطونية اي رسامات الكهنوت ؛ ونسخته الاصلية موجودة في الكرسي البطريركي ، ومنه نسخ عديدة في اماكن مختلفة ؛ — كتاب ܣܘܦܪܐ ܕܕܝܪ̈ܝܐ : قص شعر الرهبان او تكريسهم ، ولم نعرف مَن ذكره بين المؤلفين ؛ — تكريس الكنائس وآنيتها : ومنه نسخة في الفاتيكانية من عهد الدويهي ، عددها ٣١٠[3] ، وعلى جلدها لائحة محتوياتها بخط يده ؛ ومنه نسخة في بكركي في الكنيسة ؛ — كتاب الصلوات : ولا نظنه الشحيمة ، كما ظنه البطريرك بولس مسعد ، ومال المطران شبلي الى موافقته عليه ، بل كتاب التبريكات والصلوات التي يقوم بها الكاهن ، اذ ان الكتاب السابق يحوي التكريسات المحفوظة للحبر ؛ وهذه الصلوات تؤلف جزءاً من المخطوط الفاتيكاني عدد

---

١) في شبلي م ، ص ١٩٨ . وفي الدبس م ، ٢٦٥ – ٢٦٦ و٢٦٣

٢) ذكرها الدبس بحرفيتها ، م ، ص ٢٦٣ – ٢٦٤ ، واستند اليها شبلي في تعداد مؤلفات الدويهي ، م ، ص ١٩٩ – ٢٠٧

٣) الاب ديب م ، ص ٩٣

٣١٢ الذي خُطّ في رومية سنة ١٧٤٥[1] ؛ ولم نعثر على نسخة أخرى منها ، بالرغم من تفتيشنا الحثيث ؛ — كتاب نافورات القداس : ونسخه كثيرة ، منها واحدة من عهده في خزانة الكرسي البطريركي ؛ — كتاب اسرار البيعة : وقد ارتأى البطريرك بولس مسعد ، ووافقه المطران شبلي ، انه كتاب خدمة الاسرار الالهية . ولا شك عندنا في ذلك . وزاد المطران شبلي قائلاً : « وهذا الكتاب لم نعثر على نسخة كاملة له » . وقد نسب الاب ديب الى الدويهي الرتب المسطورة في المخطوط الفاتيكاني عدد ٣١٢ السابق ذكره ، ببعض تحفظ . ومن المؤكد ان رتبة العماد التي نشرها العلامة يوسف لويس السمعاني ، في مجموعته الطقسية ، في الحاشية ، منسوبة الى الدويهي[2] ، وكذلك رتبة العماد التي نجدها في المخطوط البطريركي عدد ١٩٦ ، الذي كتبه المطران يعقوب عواد الحصروني في قنوبين سنة ١٧٠٠ ، تحت نظر الدويهي ، تصح نسبتها اليه ؛ — كتاب المدعدان : وهو يحتوي على الرتب التي تقام في الاعياد ، اي المواسم السنوية ، كتبريك الماء في الغطاس ورتبة الشعانين وما اشبه . وكان محفوظاً نسخةً واحدةً في الكرسي البطريركي ، منقولاً اليه من دير مار شليطا مقبس ؛ — كتاب الجناز : وكان قد شرع في تنقيحه فلم ينجزه .

وقد ذكر كل هذه الكتب المطران يوسف مبارك باختصار في آخر كتاب الشرطونية الذي خطه بيده ، قائلاً : « وتعب خصوصاً على كتاب الرسامات والتكريسات ، والتبريكات ، والصلوات ، وسائر الرتب التي تصير في طول السنة »[3].

ولم يكتفِ الدويهي بجمع الرتب ، بل ألف شروحاً وافيةً ضافية ، في معظمها واهمها ، ضمنها ثلاثة كتب : الاول في القداس الالهي ، والثاني في التكريسات ، اي الخدم الحبرية ، والثالث في الشرطونية ، اي الرسامة .

---

١) الاب ديب م ، ص ٦٢

٢) Codex Liturgicus Ecclesiæ Universæ, liv. II p. 310 sqq. et liv. III p. 184 sqq.

٣) في شبلي م ، ص ٢٢٠

وقد اودع هذه الكتب تفاسير الرتب، وايضاح الرموز. وقرن الاعتبارات الروحية التقوية بالابحاث العلمية من لاهوت، وقانون، وتاريخ، وطقس. وقابل بين طقوس العتيقة والجديدة، وبين عادات الكنائس في الغرب والشرق. فجاءت هذه التآليف آية في بابها، وخصوصاً فيما يتعلق بالقداس الالهي[1].

ومن شاء ان يتلمس خطة الدويهي في عمله، عليه ان يفتش عنها في حواشي هذه الشروح، فلا يصعب عليه العثور عليها، وخاصةً اذا قرن ما يجده فيها بما يعرفه من سائر اعماله في كتبه ومجموعاته الاخرى.

قلنا فيما سبق ان القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانا مطبوعين، في لبنان الشمالي اقله، بطابع اليعقوبية، وان تلامذة المدرسة المارونية برومية كانوا قد بدأوا، منذ اواخر القرن السادس عشر، يقاومون هذا التيار، مستنجدين بالطقس اللاتيني، يترجمون بعض رتبه الى السريانية او العربية، كما رأيت من كلام الباني، وكما صرّح الدويهي نفسه في شرحه على تكريس الميرون، حيث قال: «ان العادة القديمة ما زالت دارجة، حتى قام تلاميذ المدرسة الرومانية. ولكن هؤلاء استصعبوا الرتبة السريانية ونقلوا تكريسة الميرون من اللغة اللاتينية الى العربية ليستعملها الرؤساء.»[2]

فما يكون موقف الدويهي، يا ترى؟ افلا يجري على آثار من سلفوه من تلاميذ المدرسة الرومانية، وهو نابغتهم؟ واذا عاد الى ما قبل عهد هذه المدرسة، أيمكنه النجاة من شرك المخطوطات اليعقوبية التي كانت قد غمرت الطائفة، وخاصةً في جبة بشراي، وهو ابن الجبة البار؟

ان فضل الدويهي الاكبر، وسبب مجده الاعلى، انه فطن للامرين وتحذر من الخطرين، وإن بتفاوتٍ ظاهر. فلما قام ليشيد بناءه، حاد عن ضخامة الاسس اليعقوبية، اقلّه الحديثة، واعرض عن زخرف البنايات الرومانية. فوضع

---

١) شبلي ثم، ص٢٠٤ – ٢٠٧. وقد نشر الاستاذ رشيد الشرتوني هذه التآليف في المطبعة الكاثوليكية بيروت: منائر الاقداس سنة ١٨٩٥ – ١٨٩٦، وشرح التكريسات والشرطونية معاً سنة ١٩٠٢.

٢) شرح التكريسات (طبعة الشرتوني) ص ٥٣

الاساس على صخور مارونية ، متينة ، لا شبهة فيها . فما هو يتجاوز المصادر المارونية التي خُطّت فيما سبقاه العهد اللاتيني واليعقوبي ، ويرجع الى ما قبل .

وقد صرّح بذلك في مقدمة كلامه على شرح التكريسات حيث قال : « هذه الرتب التي تتصرف بها رؤساء الكهنة ، اجتهدنا على جمعها وتحريرها ... على موجب النسخات القديمة [التي خطت] منذ ثلاثمائة سنة وازيد »[1] . وكذلك في مقدمة كلامه على شرح الشرطونية ، يعتمد قبل كل شيء ، على نسخة البطريرك ارميا العمشيتي (١٢٠٩ – ١٢٣٩) ، وعلى نسخة أخرى كتبها مرقس لمتاوس ، اسقف عرقا وعكار سنة ١٣١١ ، وعلى نسخة كتبت في العاقورة سنة ١٢٩٦ ، وعلى غيرها[2] . وقد ذكر في مناثر الاقداس ، عند كلامه في صورة التقديس ، بعض المخطوطات التي استند اليها . فاذا منها كتاب النوافير الذي خطه حوشب بن اسطفان بن مسعود بن الخوري اسطفان بن الخوري شمعون من شموت[3] سنة ١٣٢٩[4] .

وقد كتب الدويهي نفسه ، سنة ١٦٧٤ ، الى مرهج بن نيرون الباني ، ان هذه الكتب القديمة لا تزال موجودة في جبل لبنان ، باقية بعينها ، كاملة « بلا مكر »[5] . ولا شك في انه يعني بها هذه المخطوطات التي تعود الى القرن الرابع عشر فما قبل . وكان الاب دنديني قد اشار الى ذلك ، كما تقدمنا فقلنا . ومن هذه الكتب ما لا يزال موجوداً ، لحسن الحظ ، حتى يومنا ، وان كان قليلاً ؛ على ان قيمته تزداد بنسبة قلته وندورته .

فاستناداً الى هذه الآثار المارونية القديمة ، قام الدويهي ينقي كتبنا الطقسية من العناصر اللاتينية واليعقوبية التي خالطتها .

---

١) شرح التكريسات (طبعة الشرتوني) ص ٢

٢) شرح الشرطونية (طبعة الشرتوني) ص ٨٦

٣) هكذا في النسخة المطبوعة . أما المكتوبة بخط يد المؤلف والمحفوظة في خزانة سيادة المطران عبدالله خوري ، النائب البطريركي العام ، فاسم البلدة فيها شمتا .

٤) مناثر الاقداس (طبعة الشرتوني) الجزء الثاني ، ص ٢٠٠-٢٠١ .

٥) شبلي ، عن مرهج نيرون . م ، ص ٢٠٤

وكان موقفه من مقررات السلطة الرومانية في جانب الاصلاح الطقسي موقفاً شريفاً . فهذا العلامة وقف حياته على الدفاع عن بني قومه وملّته ، ووضع في ذلك كتباً كثيرة ، جاء فيها على دحض الافتراآت والتهم التي وجهها الى الموارنة عن قصد او عن جهل بعض الكتبة . ومن جملة الامور التي اقرّها ان ما كان يرعاه الموارنة في طقوسهم مما لا يتفق مع عوائد الغربيين ، ليس مما يمكن شجبه او نبذه . واتى بالبراهين والحجج الدامغة على ان ذلك من مخلفات الكنيسة الاولى . واثبت انه شرع وحق وصواب . وكان يقصد بذلك كثيرين من كتاب الغرب ، ومنهم بعض قصاد الكرسي الرسولي المقدس .

على انه قد احترم غاية الاحترام ارشادات الاحبار الاعظمين ، واطاع اوامرهم ، في صدد الاصلاح الطقسي ، فعدَّل بموجبها اموراً رأوها خللاً وشواذاً ، وهي ليست بالخلل ولا بالشواذ الا بالنسبة الى الطقس اللاتيني ، والطقس اللاتيني لم يكن قط قاعدة للكنيسة الكاثوليكية في طقوسها المختلفة العديدة . وقد قرأنا له في ذلك عبارة تدل على مبلغ انصياعه لرغبات رومية ، نوردها دلالةً على شرف عواطفه ، وقد قالها في معرض كلامه عن وجوب تكريس الميرون من الزيت والبلسم دون غيرهما ، وهي : « طوعاً لصاحب السلطان الاعلى . »[1]

فعملاً بهذا المبدأ السامي ، قبل الدويهي بجمل ما طلبه الاحبار الاعظمون في برآتهم ، وبعض ما قرره الموارنة في مجامعهم المتأخرة ، ووضعه موضع العمل في ترتيب الكتب الطقسية . ولو جئنا نعدّده ونبيّنه هنا ، لطال بنا المجال . فيكفينا القول انه نبذ كلما كان رتبةً لاتينيـة كاملةً . وعدل تعديلاً طفيفاً بعض رتبنا ، تطبيقاً لها على مقررات السلطة الرومانية . ولا ندري لماذا احتفظ في العمل المنسوب اليه ببعض صلوات مترجمة من اللاتينية ، مثل احدى صلوات رتبة الاكليل ، وغيرها . فادماج هذه في الطقس ليس من باب ما قاله ونقلناه عنه : « طوعاً لصاحب السلطان الاعلى . »[2]

---

١) شرح التكريسات (طبعة الشرتوني) ص ٥٢

٢) نريد هنا رتبة الاكليل المدرجة في المخطوط الفاتيكاني عدد ٣١٢ . ولما كان تاريخه سنة ١٧٤٥ ، اي بعد وفاة الدويهي بزمان ، فقد تكون هذه الرتبة مزيداً فيها . وعليه

وقد ابقى الدويهي كذلك في الكتب التي نظّمها آثاراً عديدة ، بل رتباً كاملة ، من الطقس اليعقوبي . فهل اجرى ذلك يا ترى بسبب اندماج هذه العناصر اليعقوبية في طقسنا ، ورسوخها في عوائدنا ، بحيث اصبحت يصعب تمييزها من العناصر المارونية ، وخاصة عند عدم الوصول الى الرتب المارونية الاصلية المماثلة لها ؟ قلنا ان فكرة استقلال الطقس الماروني عن اليعقوبي استقلالاً تاماً ، على نحو ما نبسطه هنا ، هي فكرة جديدة . فقبل الدويهي وبعده ، كان العلماء الموارنة وغيرهم ، على ما بيّنّا سابقاً ، يعتقدون ان للموارنة وللبعاقبة طقساً واحداً وكتباً واحدة . ولا غرو ان الدويهي كان من هذا الرأي . وبه الكفاية في سبب ابقائه في طقسنا على كثير من الطقس اليعقوبي ، حال كونه قد قضى تقريباً على ما كان فيه من الطقس اللاتيني . على اننا نظن ، بالرغم من ذلك ، ان الدويهي ، اذا كان لم يرَ جليّاً الفرق التام بين طقس الموارنة القدماء وطقوس جيرانهم من سائر السريان ، فهو قد تبيّنه بدون شك . وقد لا تخلو مؤلفاته من ادلّة على ذلك ، لا مجال لسردها هنا .

اما الروح التي استرشد بها الدويهي في عمله ، فقد عبّر عنها في مقدمة كلامه على شرح التكريسات بهذه الكلمة : « لئلا نحيد بشيء عمّا تسلّم ، من الرسل ابراق الروح القدس ، آباؤنا ومعلمونا ، الذين سلفوا قبلنا بكل طهارة وحكمة على هذا الكرسي الانطاكي المعظم »[1] . ونعمّا هذه الروح !

على اننا يظهر لنا ان احترامه العميق للسلف الطاهر الحكيم قد تفوّق لديه على ما قد يقتضيه احياناً النقد المجرد . فقد قبل كل ما خاله تراثاً عنهم فجمعه على علاته ، بدون ان يعالجه مقابلة ومعارضة ، وتشذيباً وتصحيحاً . فضمّ الى واحد كل ما وجده مبعثراً ، بدون ما نظر اليه من حيث التلاحم والملاءمة . فلم يخلُ عمله ، او اقله العمل المنسوب اليه ، كما في خدم الاسرار ، من الجمع بين طقوس مختلفة في الرتبة الواحدة ، او من ايراد رتبتين مختلفتي الطقس

لا يمكن البتّ في هذا الامر الا بعد الاطلاع على نسخة الدويهي الاصلية . وهذا ما نجد البحث عنه .

١) شرح التكريسات (طبعة الشرتوني) ص ٢

لخدمة السر الواحد[١] ، او اختصار بعض صلوات هي من كيان الرتبة[٢] ، او تغيير موضوع صلوات اخرى[٣] .

لكنه لم يحجم عند الضرورة عن التملّص من هذا القيد . ويلذّ لنا ان نسمع ما قاله في صدد رتبة تكريس الميرون ، التي اضطرّ الى نظمها في سلك جديد . فلما رأى ان قبول الرتبة القديمة على علاتها اصبح غير ممكن ، « وان كان ما يمكن اننا نذمّها »[٤] ، وكان لا يوافق تلاميذ رومية على ابدالهم الرتبة اللاتينية منها ، كما رأيت ، صرّح بما يلي : « فالترمنا نقف عليها (الرتبة) ونقطف الذي هو ضروري لتكريس الميرون ، ولتحسين الرتبة على زيّ البلاد . والباقي تركناه ، كما يرى القارئ الذي يتأمل النسختين ، ان لا صار تغيير في التكريس ولا في الرتبة »[٥] . قلنا حذا القول خطةً عامةً . على اننا لا يمكننا التأكيد ان الدويهي قد عمل كل العمل بهذه الخطة ، حتى في رتبة تكريس الميرون ، او اتبعها في تنظيم سائر الرتب . فهذا يقتضي له الالمام بعمله كله مجملاً ومفصلاً . ولكن يمكن القول ان هذه الخطة كانت نصب عينيه . جاء في مقال للاب ابراهيم حرفوش ان الدويهي علّق مفكرة بخط يده على كتاب المعدعان ، الذي كان محفوظاً في مار شليطا مقبس ونقل الى خزانة الكرسي البطريركي ، في رتبة تبريك الماء يوم عيد الدنح « يختصر بها هذه الرتبة الطويلة جداً . »[٦]

واذا كان الدويهي لم يعمل بهذه الخطة حتى النهاية ، كما نظنّ ونرجح ،

---

١) مثل ذلك رتبة الاكليل في المخطوط الفاتيكاني ٣١٢ . فهي مزيج غريب من الطقس الماروني واليعقوبي واللاتيني .

٢) في رتبة العماد في المخطوط نفسه .

٣) في رتبة القنديل والمسحة الاخيرة في المخطوط الفاتيكاني عدد ٣١٠ ومخطوط بكركي .

٤) شرح التكريسات ، م ، ص ٤٨

٥) م . ص ٥٢

٦) المشرق ٦١ [١٩٠٣] ٥٦٦) . وقد راجعنا لائحة المخطوطات في الكرسي البطريركي فلم نجد فيها ذكراً لهذا الكتاب . . .

بسبب ظروف زمانه الخاصة ، فلا نكير انه وضع بهذه الكلمات القاعدة التي يحسن بل يجب اتباعها في تهذيب الطقس وتنظيمه في هذا الزمن الحاضر.

ولسائل ما كان اثر هذا الاصلاح الطقسي في الطائفة ؟ ان الدويهي اذاع عمله بمنشور على الطائفة وحتم برعايته وحده في خدمة الاسرار[١] . ويقيننا ان الاساقفة وافقوه على ذلك ولم تبدُ منهم معارضة . ولا نظن ان الخلاف الذي نشب بينه وبين بعضهم ، كان من اسبابه هذا الاصلاح الطقسي[٢] . ذلك ان المطران يوسف مبارك ، الذي كان بدون ريب من جملة القائمين عليه بل زعيمهم ، يطري عمل الدويهي في الطقوس بهذا الكلام : « من حين جلس هذا الاب النبيل القديس على كرسي البطريركية ، لاجل زيادة غيرته الالهية ، فحص اكثر كتب طائفتنا ، وصحّحها وردّها الى نصّ الرسل الاطهار والآباء الابرار . »[٣]

والكرسي الرسولي المقدس ، بعد ترجمة كتب الدويهي الى اللاتينية ، وافق عليها ، وعمد الى طبعها على نفقته[٤] ، وفضّلها على الكتب التي اعدّها فيما بعد المطران يوسف اسطفان[٥].

وصرح آباء المجمع اللبناني ، المنعقد سنة ١٧٣٦ ، بوجوب اعتماد كتاب الرسامات « الذي هذبه منذ عهد قريب البطريرك اسطفان الطيب الذكر »[٦] . وكذلك آباء المجمع المنعقد سنة ١٧٥٥ ، برئاسة البطريرك سمعان عواد ، امروا في البند الخامس ، ان « تحفظ في الطائفة كلها رتبة كنائسية واحدة وهي التي جمعها المثلث الرحمة اسطفانوس البطريرك الانطاكي ، وهي الدارجة الآن في طائفتنا »[٧]. على ان المجمع الذي عقبه السنة التالية في بقعاتا ، برئاسة البطريرك

١) .الاب ديب مّ ، ص ٩١ و١١٩
٢) انظر في هذا الخلاف شبلي مّ ، ص ٦٥ و١٦٦
٣) في شبلي مّ ، ص ٢٢٠
٤) الاب ديب مّ ، ص ٩١ و١٧٢ وغيرهما .
٥) الاب ديب مّ ، ص ٩٦ فما بعد و١١٩
٦) المجمع اللبناني ٢ : ١٤ : ٥ . ترجمة نجم ص ٢٢٨
٧) المشرق (٧ [١٩٠٤] ٨٠٤–٨٠٥)

طوبيا الخازن ، قد رجع فيه الآباء عن ذلك بقولهم في البند الثاني عشر: « لتكن في الطائفة كلها رتبة كنائسية واحدة ، ولا يُستعمل الا كتاب القداس المطبوع ، وبقية الرتب الكنائسية التي نعتني الآن باصلاحها. » [1]

يضطرنا الواقع الى القول ان عمل الدويهي ، الذي استنكف مجمع البطريرك طوبيا الخازن ذكره ، قد دُفن معه لسوء الحظ . ولم يطبع منه حتى اليوم جزء واحد ، اللهم الا بعض صلوات وتبريكات ، وضعت ملحقةً في آخر كتاب القداس المطبوع في رومية سنة ١٧١٥–١٧١٦ . قال الطابع في المقدمة : « وختمناه ببعض تبريكات مفيدة ، قد وجدناها في كتاب رتبتنا باللغة السريانية ، المجموع بعناية الاب النبيل والمعلم الجليل مار اسطفانوس الدويهي البطريرك الانطاكي . . . ونقلناها الى اللغة العربية ليطلع كل كاهن على معانيها . » وهذه التبريكات ادمجت كذلك باللغة العربية في كتاب الرتب الكهنوتية المطبوع في رومية سنة ١٧٥٢ . وما عدا ذلك ، وذلك قليلٌ وقليلٌ جدًا ، لا شيء ، على ما نعلم . وما عداه مما طُبع لخدمة الاسرار خاصةً ، وهو المرعي الآن في الطائفة ، لا أثر فيه لعمل الدويهي ، بل هو ترجمة الرتب اللاتينية . وما عداه مما لم يطبع بعد ، كالشرطونية وغيرها ، لا يراعى فيه عمل الدويهي كما هو .

ان العقل ليقف حائرًا امام هذا الامر الواقع . ولا ندري الى ايّ الاسباب ننسبه ! أإلى جنوح قومنا الى الطقس اللاتيني ، لتأثرهم بالثقافة الغربية في رومية ؟ ام هناك اسباب اخرى محلية مكانية ، تافهة ، يؤلمنا ان نشيها ، ونستنكف ان نتبسط فيها ؟ والدليل اليها ما رأيناه من التناقض بين مجمع البطريرك سمعان عواد ، ابن الشال ، الذي قضى باتباع الرتب التي جمعها الدويهي الشالي ؛ ومجمع البطريرك طوبيا الخازن ، ابن كسروان ، الذي حتم بانتظار الرتب التي يُعنى باصلاحها . وآباء المجمعين هم هم . والبرهة بين المجمعين لا تبلغ السنة !!!

---

١) المشرق ٤٣ ، ص ٨١٠

المجمع اللبناني

لم يرد في المجمع اللبناني باب خاص في الطقس الماروني وما يحتاج اليه من اصلاح . فالآباء المجتمعون قد تمشوا ، بالاجمال ، على آثار الدويهي في شأن المحافظة على طقسنا القديم والتمسك به وعدم مزجه بآخر . اما في الانصياع لرغبات الكرسي الرسولي في شأن الطقوس ، فنراهم قد تعدّوا حدود الدويهي ، فاوجبوا التقيّد بالصور اللاتينية في خدمة الاسرار . وقد يكون هذا ما حال دون قبولهم كتب الطقس التي كان الدويهي قد جمعها ، ودون اقرارهم اياها ، بالرغم من سنوح الفرصة . فوكلوا الى السيد البطريرك ومجمعه امر النظر في الكتب الطقسية وطبعها بحسب الاصول .

يضع الآباء هنا وهناك مبادئ غاية في وجوب التمسك بالطقس القديم . من ذلك قولهم ، عند الكلام عن الانعام المفاض على كهنة اللاتين بتلاوة ثلاثة قداديس في عيد الميلاد ، ان هذا الانعام لا يشمل كهنتنا : « لا لاننا نحرم عادة جرت عليها الكنيسة الرومانية المقدسة . . . ولكننا نزيد المحافظة على طقسنا القديم . »[1] فنعم المبدأ رعاية طقسنا القديم ، وحبذا بالحري التمشي عليه .

ويؤكد الآباء هذا المبدأ ويعززونه بكلامهم في العماد حيث يقولون : « يأمر هذا المجمع المقدس حتماً بان لا يُجرى في خدمة هذا السرّ الا على طقسياته المرعية في الكنيسة الشرقية ، مما رسمه آباؤنا وعهدوا به الينا »[2] . وفي محل آخر ، في جانب القداس يوم خميس الاسرار والسبت العظيم ، يوجبون رعاية عادة القداس الواحد ، لانطباقها على الطقس القديم[3] .

ولا ريب في ان الآباء كانوا يرغبون في اعادة الطقس سالماً من كل دخيل ، ويعملون على تجديد رونقه القديم ، بدليل ما يصرحون به ، فيما

---

١) المجمع اللبناني : ٢ : ١٢ و ١٧ في ترجمة نجم ، ص ٢٢٥

٢) المجمع اللبناني : ٢ : ٢ في نجم ، ص ٤٠

٣) ثم ٢ : ١٢ : ١٧ في نجم ، ص ٢٢٧

يلامس الطقوس الشرقية ، كاثوليكية وغير كاثوليكية ، حيث يقولون ، في باب الاوخارستيا ومادتها : « يجب الاحتراز مما يختلف به عنا بعض طوائف المسيحيين ، القاطنين نحن فيما بينهم ، في الاصطلاحات والعادات الذميمة والاضاليل.»[1] وهذا موقفهم تجاه الطقس اللاتيني نفسه، على ما رأيت ، ليس على سبيل تحريمه ونبذه ، ولكن محافظة على طقسنا القديم.

على انه كان لا مناص للآباء من قبول بعض طقوس رومانية ، كان الاحبار الاعظمون في برآتهم ، والقصاد الرسوليون في المجامع التي عقدت بحضرتهم ، قد عملوا على ادخالها في الكنيسة المارونية . وخصوصاً ان السلطة الرومانية ، التي وضعت رسوم المجمع اللبناني وقوانينه ، بواسطة قاصدها السيد يوسف السمعاني ، كانت لا تزال متمسكة بها فجرى الآباء في قبولها على آثار من سلفوا.

من ذلك ، في ايلاء سر التثبيت ، يحكم الآباء : « موافقةً للطقس اللاتيني ، ألا يخدم سر التثبيت الا الاسقف »[2] ؛ « ورغبةً في الجري قدر المستطاع على طقس الكنيسة الرومانية ، يأمر المجمع بان يقتصر في دهن طالب التثبيت في جبوته لا غير ، ويسمح في دهن طالب العماد في صدره وبين كتفيه فقط ، خصوصاً اذا كان بالغاً ، مع العدول عن المسحات التي كانت تجري سابقاً في الفم والاذنين والقدمين واليدين وفي عامة البدن » ، ان في المعمودية وان في التثبيت[3] . وهو يرسم كذلك ان يفصل التثبيت عن المعمودية ، ولا يعجل منحه للاطفال قبل اتمامهم السنة السادسة[4] .

ومنه في سر الزواج ، يأمر المجمع الاساقفة والكهنة « ان يجروا بالتدقيق على عادة الكنيسة الرومانية المقدسة في عد الموانع ورعايتها »[5] ، ولا يحرم

١) م٢ : ١٣ : ٧ اوله في نجم ، ص ١٦٥
٢) م٢ : ١٣ : ١٥ في نجم ، ص ٤٨
٣) م٢ : ٣ : ٤ في نجم ، ص ٥٤
٤) م٢ : ٣ : ٨ في نجم ، ص ٥٧
٥) م٢ : ١١ : ٧ في نجم ، ص ١١٨

« الزواج الثاني ولا الثالث ... عملاً بما للكنيسة الرومانية المقدسة ... من العادة والتعليم . »[١]

ومنه في سرّ الاوخارستيا ، في مناولة المؤمنين تحت الشكل الواحد او الشكلين،« بأمر المجمع ويحتم حتماً باتباع رسوم الكنيسة الرومانية المقدسة»[٢]. ويحكم بالاحتفال بعيد جسد الرب ، « ارتياحاً الى العمل بمنشور البابا اوربانوس الرابع »[٣]. ويحفظ اقامة رسم الكاس او القداس السابق تقديسه ، ليوم الجمعة من سبّة الآلام فقط ، « وفقاً لما هو جار في الكنيسة الرومانية المقدسة . »[٤]

وهذا الامر الاخير لم يوجبه الاحبار الاعظمون ، لكن « الاقدمين من آبائنا » قد عملوه[٥]. وما عمله المتقدمون من آبائنا في جانب رسم الكاس ، عمله آباء المجمع في جانب أمور أخرى . من ذلك انهم ، بالرغم من معرفتهم بوجود صورة طلبية للحلّ من الخطايا في كتبنا الطقسية ، فمع ذلك يأمرون الكهنة جميعاً « ان لا يستعملوا صورة الا هذه المعبر عنها بصيغة الانشاء : « انا أحلّك الخ »[٦]. وكذلك عند كلامهم عن مسحة المرضى ، فانهم يفضلون بجلاء « الجري على عادة الكنيسة الرومانية المقدسة » ، وان كانوا لا يحرّمون الصورة الشرقية[٧] ؛ ويعلنون للجميع « انه لا يلزم في اتمام هذا السرّ ضرورةً سوى حضور كاهن واحد »[٨]. ثم انهم يضعون ازاء الصورة الشرقية في ايلاء التثبيت ، الصورة اللاتينية . تاركين الخيار في استعمال احداهما[٩] . كما انهم اباحوا العماد ، اما بالغمس بموجب الطقس القديم ، واما بالسكب بحسب العادة

١) مجـ ٢ : ١١ : ٢١ اخره . في نجم ، ص ١٥٢ و١٥٣
٢) مجـ ٢ : ١٢ : ٢١ في نجم ، ص ١٩٩
٣) مجـ ٢ : ١٢ : ٢٦ في نجم ، ص ٢٠٥
٤) مجـ ٢ : ١٢ : ١٧ اخره . في نجم ، ص ٢٢٧
٥) مجـ ٢ : ١٢ : ١٧ اخره . في نجم ، ص ٢٢٧
٦) مجـ ٢ : ٤ : ٢ في نجم ، ص ٦٣
٧) مجـ ٢ : ٨ : ٥ في نجم ، ص ١٠١
٨) مجـ ٢ : ٨ : ٨ في نجم ، ص ١٠٢
٩) مجـ ٢ : ٣ : ٥ في نجم ، ص ٥٤

الرومانية [١].

على ان من حسنات المجمع أنه سمح للكهنة ، عند **الضرورة القصوى** ، « ان يباركوا زيت المرضى في خدمة سر المسحة الاخيرة... بموجب العادة القديمة في طقسنا السرياني » [٢] ؛ واباح للكهنة ، « وان تحتم عليهم استعمال الملابس الكهنوتية على طريقة اللاتين... ان يستعملوا بعض اشياء مما يشعر بطقسنا القديم.» [٣]

هذا في شأن الطقس اللاتيني ، ولم يذكر المجمع شيئاً ، ولا من قبيل التلميح ، عن العلاقة بين الطقسين الماروني واليعقوبي. ولا بدع ، فقد رأيت فيما مرّ ان السمعاني وافق من سلفه من علماء الموارنة على ان للطائفتين طقساً واحداً وكتباً واحدة. فلم يخطر اذاً بباله ، ولا ببال الآباء المجتمعين بحضرته ، ان للموارنة طقساً خاصاً مارونياً ، مستقلاً عن طقس اليعاقبة وسائر السريان ، يجب توخيه ورعايته ، سليماً من كل خليط ومزيج ودخيل ، لاتينياً كان او يعقوبياً.

نلخص من ذلك ومثله ان آباء المجمع لم يشاؤوا البتّ النهائي في جملة امور طقسية ، ولا في مجمل الطقس ومجموعه. اما لصعوبة الامر ، بسبب ان العادات القديمة لا يسهل اقتلاعها او تحويرها ، وان الكتب الطقسية ، الجاري العمل بموجبها ، كانت تساعد طبعاً على ابقاء القديم على قدمه ؛ واما لتعذر القيام بهذا الاصلاح الطقسي على واضعي المجمع والقائمين به ، كما يتضح لمن يدقق في درس رسومه وقوانينه.

ولهذا نراهم ، اذا اشاروا اشارة الى ما يمكن اعتماده في الحاضر ، يحتمون حتماً بما يجب توخيه في المستقبل في طبع الكتب الطقسية. فقد اوجب المجمع « على السيد البطريرك السامي الاحترام وعلى الاساقفة معاً ان يختاروا رجالاً اكفاء ، ينتقدون الرتب البيعية ويضمونها كلها الى مجموع واحد ، اي كتاب

١) ق ٢ : ٣:٢ في نجم ، ص ٤١
٢) ق ٢ : ٢:٨ في نجم ، ص ٩٩
٣) ق ٢ : ٨:١٢ في نجم ، ص ٢١٢

القداس وكتاب الجبريات وكتاب الفرض الالهي ... وما اشبه ذلك فيثبتها السيد البطريرك والاساقفة ، فتُنشر مطبوعة وتُوزَّع على الكنائس والاديار والابرشيات »[1] . وقد اولوا السيد البطريرك في سبيل ذلك سلطة « الاستئثار بالولاية على الطقوس البيعية في بطريركيته ، بحيث يسوغ له ان يفحص ... ويهذّب ، ويدخل فرضاً جديداً او ينسخ قديماً ... حتى ان له ان يزيد او ينقص في الطقس ، ولكن على شرط ان يبقى الجوهر سالماً ، وان يتمّ ذلك براي الاساقفة واهل العلم . »[2]

وما ذكروه هنا اجمالاً اعادوه وكرّروه لدن تكلموا عن كل كتاب بمفرده في بابه . فاوجبوا على السيد البطريرك «ان يعنى» وفاء بواجباته الرعائية، بتعاهد كتابي الطقسيات والجبريات ، وتثبيتهما وطبعهما وتوزيعهما ، فيجري الكهنة والاساقفة جميعاً على الطريقة الواحدة نفسها في خدمة الاسرار . »[3] وقد جاء في محلات أُخرى ، ذكر كتاب الطقوس المثبت[4] ، والمعزوم على وشك طبعه[5] ؛ « وكتاب القداس الذي يكون السيد البطريرك السامي الاحترام قد وقف عليه واثبته ... حتى اذا طُبع ... يُنشر في الخورنيات »[6] ؛ « وكتاب الجبريّات اي الشرطونية ، على ان يعتمد الكتاب الذي هذّبه منذ عهد قريب البطريرك اسطفان ... والمنتظر نشره بالطبع عما قليل»[7] ؛ « وكتاب الاقسام الذي يجب على السيد البطريرك ان يتصفحه ويحرّره ويثبته فيضاف الى كتاب الطقوس »[8] ؛ وكتاب السنكسار الذي يتحتم نقده « وحذف الاقاصيص المصنوعة والاساطير الملفقة منه ، والاقتصار فيه على تراجم القديسين

---

١) م ١ : ٢ : ٥ في نجم ، ص ٣٢
٢) م ٣ : ٦ : ٢ بند ٢٢ . في نجم ، ص ٤٢٥
٣) م ٢ : ١ : ٢ اخره . في نجم ، ص ٢٠٩
٤) م ٢ : ٢ : ٢ في نجم ، ص ٤٠
٥) م ٢ : ٢ : ١٥ في نجم ، ص ٤٩
٦) م ٢ : ١٢ : ٥ في نجم ، ص ٢٠٩
٧) م ٢ : ١٤ : ٥ اخره . في نجم ، ص ٢٢٨
٨) م ٣ : ٢ : ٦ اخره . في نجم ، ص ٢٣٠

المحققين وسيرهم المثبتة. »[١]

فالمجمع ، وان كان قد حتم ببعض أمور فيا يلامس علاقتنا بالطقس اللاتيني ، لم يقم بأعباء الاصلاح الطقسي ، على ما ترى ، ولكنه ترك هذا الامر للسيد البطريرك ، واولاه سلطة واسعة جدًّا فيه ، مشترطاً عليه ان يتم عمله « برأي الاساقفة واهل العلم ».

وكنا نودّ لو تمّ هذا العمل ، كله او جله على الاقل ، وقد مضى على المجمع اللبناني المقدس قرنان كاملان . فالاصلاح الطقسي الذي اوجبه المجمع اللبناني لم يُنفّذ ، على شدة الاضطرار اليه ، في كتاب واحد من الكتب الطقسية المذكورة. فمنها ما لم يزل مخطوطاً ، كالشرطونية والسنكسار والاقسام وبعض اجزاء الفرض الالهي والكتاب المقدس . ومنها ما طُبع ، ولكن على غير ما رسمه المجمع من خطط واوحى به من روح ، ككتاب الطقوس بجزئيه : خدمة الاسرار والمدعدان. ومنها ، وهو المطبوع قبل انعقاد المجمع ، ما أُعيد طبعه على علاّته ، مثل كتاب القداس وما اليه ، وبعض اجزاء الفرض الالهي والجناز.

الشواذ الحلبية

لم يكفِ الطقس الماروني القديم ما اصابه من طوارئ الحدثان ، ويعاقبة السريان ، وتلامذة الرومان ، فناه الله بما يمكن تسميته بالشواذ الحلبية.

من المعروف ان من جملة ما التأم لاجله المجمع اللبناني المقدس ، الاهتمام بحالة الطقس الماروني في حلب ، وخاصة عود الموارنة في هذه المدينة الى استعمال اللغة السريانية في الطقوس . وقد ذكر ذلك الاب فروماج اليسوعي في رسالته عن المجمع الى رئيسه العام قائلاً :« ان موارنة حلب ... عدلوا عن الترتيل في الكنائس الا بالعربية ... ونسخوا العادة القديمة ان يتلى الفرض الالهي وسائر الصلوات بالسريانية. »[٢]

١) ثمّ ١: ١٢:٥ في نجم ، ص ٣٢

٢) *Lettres édifiantes*, éd. Paris, 1870. II, p. 201 sq. وكذلك في مجموعة

ومما يذكره المؤرخون ان اللغة العربية قد احتلت الكنائس المارونية في حلب ، « حتى شاع عن المطران جرمانوس انه ابطل استعمال اللغة السريانية في كنيسته بالكلية »[1] . وهذا المطران جرمانوس هو العلامة الشهير جرمانوس فرحات مطران حلب (١٧٢٥–١٧٣٢) . واليه انفذ البطريرك يعقوب عواد والاساقفة ورقة حرم سنة ١٧٢٨ لانه تعدى حقوقه الطقسية فكرّس الميرون[2] .

ومن الثابت ان المطران عبد الله قرألي ، احد معاصري فرحات ووطنيّه واخوته في الرهبانية والاسقفية ، واحد آباء المجمع اللبناني المقدس ، قد ألف بالعربية ما ندعوه « الافراميات » . فاخذت تنتشر في الطائفة مستعملةً في القداس الالهي .

فوقف المجمع اللبناني المقدس في وجه هذا التيار الحلبي العربي . ووضع الحدود في كيفية استعمال اللغة العربية في الطقوس[3] . وبعد انفضاض المجمع بايام ، افاد الاب فورماج المومأ اليه ، ان الحلبيين ، بعد المجمع اللبناني ، ابطلوا الترتيل بالعربية في كنائسهم ، وعادوا الى استعمال السريانية ، بحسب العادة القديمة[4] .

وكذلك مجمع البطريرك سمعان عواد سنة ١٧٥٥ ، ومجمع خلفه البطريرك طوبيا الخازن سنة ١٧٥٦ ، عادا فاهتما « بالقطع والمزمورات التي رتبها المرحوم جرمانوس مطران حلب على الاوزان الموسيقية » وحصرا استعمالها « في القداس الاحتفالي للسيد البطريرك والمطارنة ورؤساء الرهبان . »[5]

لكن هذه التدابير والاحتياطات لم تحل دون استعمال اللغة العربية في الطقوس . ولو وقف الامر عند هذا الحدّ لهان . فان البعض قد اخذوا ، في

المجامع الحديثة المطبوعة في فريبورج سنة ١٨٧٦ والمعروفة باسم *Collectio Lacensis* في ذيل المجمع اللبناني ، عمود ٤٨٦ .

١) تاريخ الرهبانية اللبنانية المارونية . للاب بليبل . مجلد اول . مصر ١٩٢٤ ، ص ٦٨ ! ، من رسالة نائب الرهبانية العام الى رئيسه العام .

٢) م ، ص ١٦٨ و١٦١

٣) المجمع اللبناني ٢ : ١٢ : ١١ في مجم ، ص ٢١٤

٤) ذيل المجمع اللبناني في المجموعة الآنفة الذكر . عمود ٤٨٨

٥) المشرق (٧ [١٩٠٤] ٨٠٤ و٨١٠)

بعد ، يوافون ، في حلب ولبنان ، عبادات تقوية باللغة العربية رأساً ، وبدأوا يقيمون هذه العبادات في الكنائس ، اسوةً بالرتب والخدم الطقسية القديمة ، كزياح الميلاد وزياح القربان ، وزياحات الايقونات المختلفة ، وما اشبه ذلك ؛ فضلاً عن تأليف افراميات جديدة وطلبات عربية يُختتم بها الفرض الالهي عشية الاعياد الكبيرة .

الكتب المطبوعة

لسنا نتوخى الكلام هنا في كل كتاب طقسي بالتفصيل . وانما غايتنا ان نلقي نظرة عامة على الكتب الطقسية المطبوعة[1] . فترى هل هي تمثل الطقس الماروني صحيحاً ، ام ممزوجاً بعناصر اجنبية : يعقوبية ، او رومانية ، او عربية حلبية ؛ وهل تمشى الطابعون ، بعد الدويهي والمجمع اللبناني ، على المبادئ والخطط التي وضعها هذا البطريرك العظيم الشأن ، وآباء المجمع المحترمون .

اول ما طبعت كتبنا الطقسية ، كان ذلك في رومية العظمى ، على ايدي اساقفة او كهنة مارونيين ، وتحت اشراف الكرسي الرسولي المقدس وتدبيره . فطبع في اواخر القرن السادس عشر كتاب الجناز المعروف بالنويسة سنة ١٥٨٥ ، فكتاب القداس الالهي سنة ١٥٩٢ — ١٥٩٤ ، يليه كتاب الشماس في خدمة القداس سنة ١٥٩٦ . وكان الطبع غايةً في الاتقان والاحكام .

الا انه لما كان التأثير اليعقوبي لم يزل قوياً بعد ، وكان الطابعون حديثي العهد بمثل هذه الامور ، فقد تسرب الى كتاب القداس اجزاء كثيرة وهامة من الطقس اليعقوبي ، بل نوافير كاملة ، حافلة باسماء ائمة اليعاقبة . فجاء الكتاب مزيجاً من طقسنا القديم ومن طقسهم . وجاورت نوافيرهم ، بل تقدمت في الترتيب نافورتنا القديمة المنسوبة الى الرسل والمبدوءة بلفظة ܚܢܢ ، حتى يصح ، في رأينا الضعيف ، نسبة هذا الكتاب الى اليعاقبة اكثر منها الى الموارنة .

وفوق ذلك قد أُبدل في النافورة الكلام الجوهري ، اي كلام التقديس ، من

---

[1] ذكر تاريخ طبع الكتب الطقسية عند الموارنة بكل تفصيل حضرة الاب ديب في مؤلفه المذكور سابقاً : *Etude sur la Liturgie Maronite*. Paris, 1919.

مثله في النافورة الرومانية.

ولما وصل هذا الكتاب الى الطائفة، احتجّ البطريرك سركيس الرزي على وضعه وطبعه بهذه الصورة، وخصوصاً على ابدال كلام التقديس، وحرم استعماله في الطائفة، ثم اذن به بعدئذٍ نزولًا عند الحاح الكرسي الرسولي المقدس، بواسطة قاصده الاب دنديني. وقد لاحظت بدون ريب ان المجمع اللبناني لا يقرّ هذا الكتاب، ذلك لانه يوجب اتباع كتاب القداس «الذي يكون السيد البطريرك السامي الاحترام قد وقف عليه واثبته.»[1] وقد اعيد طبع الكتاب في رومية سنة ١٧١٦، بعد ان حذفوا منه لسوء الحظ نافورتنا القديمة الخاصة بنا، او بالحري بعد ان حولوها الى نافورة لرسم الكاس، فتأمل. وعلى هذا النحو اعيد طبعه اربع مرات في دير مار انطونيوس قزحيا بلبنان، في السنوات ١٨١٦، ١٨٣٨، ١٨٥٥، ١٨٧٢. ومرتين في بيروت سنة ١٨٨٨ و١٩٠٨.

وفي القرن السابع عشر طُبعت كتب الفرض الالهي اكثرها: اي الشحيم الكبير سنة ١٦٢٤، والشحيمة المتوسطة المعروفة باليوسفية سنة ١٦٤٦، والفنقيط الشتوي سنة ١٦٥٦، والصيفي سنة ١٦٦٦. ولم يتسنَّ لنا درس هذه الكتب وفروضها درساً خاصاً بعد، ولكن اذا ثبت انها لم يداخلها شيء من الطقس اللاتيني، فلا ندري مبلغ اتصالها بالطقس اليعقوبي. وقد أُعيد طبع الكتاب الاول في بيروت سنة ١٨٩٠، والثاني في رومية سنة ١٧١٣، وفي لبنان، اي في قزحيا وغيره، مرارًا عديدة، بدون ما تغيير.

وفي اوائل القرن الثامن عشر، طُبعت الاناجيل في رومية سنة ١٧٠٣، موزعةً قراآتٍ تُتلى في اقامة الطقوس. ثم سنة ١٧٣١ طبعت الشحيمة الصغيرة في رومية، واعيد طبعها مرارًا عديدة في رومية حتى سنة ١٨٦٣، ثم في لبنان، من سنة ١٨٧٦ فما بعد.

وفي منتصف القرن الثامن عشر، بعد الدويهي وعقيب المجمع اللبناني، حدث حادث جلل في تاريخ طقسنا، لم يأبه محدثوه لعمل الدويهي ولم يكترثوا لمقررات المجمع اللبناني. فقد طبع في رومية العظمى، سنة ١٧٥٢، «كتاب

١) المجمع اللبناني ٢: ١٢: ٥ في نجم، ص ٢٠٩

الرتب الكهنوتية ، وهو يشتمل " في اوله " على خدمة الاسرار المقدسة وصلوات وتبريكات مختلفة " ؛ وفي آخره ، على " رتبة جنازات الموتى ودفنهم " . وقد نظمه احد الآباء اليسوعيين وهو من ابناء الطائفة ومن تلامذة المدرسة المارونية، على ما يذكر في المقدمة ؛ ولا شك عندنا في انه الاب بطرس مبارك . وهو كتاب جليل ، ينم عن سعة معارف الجامع ومن مقدرته في الطقوس ، ويتضمن كل ما يحتاج اليه الكاهن خادم الرعية للقيام بواجبات وظيفته ، وذلك بنظام جميل وترتيب دقيق .

على ان ما يؤسف له انّ رتب خدمة الاسرار قد اخذت بالحرف من الطقس اللاتيني ، ما عدا بعض اجزاء رتبة الزواج ، فقد أُخذت من كتب السريان اليعاقبة ؛ وما عدا الصلوات والتبريكات فمظمها من مجموعة الدويهي . فنحق لنا القول اذاً ان واضع هذا الكتاب قد ادخل الطقس اللاتيني في الكنيسة المارونية بصورة تكاد تكون كاملة شاملة . ولم يكتفِ بوضعه الى جانب رتبنا القديمة ، بل ابدل ذلك الطقس اللاتيني من طقسنا القديم . ولم يترجمه الى السريانية ، بل نقله رأساً الى العربية ، ويها ادرجه في كتابه ، على ما في ذلك من مخالفة للمجمع اللبناني المقدس .

وما يدعو الى الدهشة ان هذا العمل قد تمّ بعد المجمع اللبناني بقليل من الزمان وايّاً كان العاملون ، فلا شك في ان السمعاني الكبير ، واضع المجمع اللبناني ، وهو آنذاك في اوج عزه ومجده في رومية ، لا يُقرّر شيء بدونه فيما يلامس الكنائس الشرقية ، وبالحري الكنيسة المارونية ، لا شك في انه قد علم بهذا الكتاب ، وقد يكون له يدٌ في اتمامه . افهذا اذاً ما كان ينشده السمعاني من " الاصلاح الطقسي ! من المحافظة على القديم ، " على الطقسيات التي وضعها آباؤنا وعهدوا بها الينا " ، كما جاء في المجمع اللبناني !

اما رؤساء الطائفة ، اي بطريركيا ومطارنتها ، فلا نخالهم علموا بهذا الكتاب قبل طبعه . ودليلنا على ذلك ان جامع الكتاب وضع في اوله رسالة الى " قدس السيد البطريرك الانطاكي ... وسائر مطارين واساقفة الملة المارونية " ، يشرح بها ما اتاه بكتابه ، ومقدماً اياه " خدمة نافعة وضرورية لجماعة

الاكليروس» . ثم يرجو منهم «ان يقتبلوا الكتاب ... ويأمروا كلًّا من كهنتهم بان يقتنيه ويعوّل عليه في لوازم دعوته». وما كان اغناه عن كل ذلك، لو كان الكتاب مطبوعاً بعلم هؤلاء الرؤساء، وبالحري بموافقتهم.

ولهذا السبب احدث كتاب الرتب الكهنوتية ضجة عظيمة في الطائفة، نسمع صداهـا في المجمعين المنعقدين سنة ١٧٥٥ و١٧٥٦[١]. فالآباء، وان لم يسموا هذا الكتاب تصريحاً، فهم يقصدون ضمناً تحريمه ومنع استعماله في الطائفة، حيث يقولون: «لا يستعمل في جناز الاموات الا النوبسة المطبوعة، ولتحفظ في الطائفة كلها رتبة كنائسية واحدة، وهي التي جمعها المثلث الرحمة اسطفانوس البطريرك الانطاكي، وهي الدارجة الآن في طائفتنا.»[٢] وبهذين الامرين شجب للجنازات ولرتب الاسرار المسطورة في الكتاب الجديد. وكذلك حيث يقولون في المجمع اللاحق: «فلتكن في الطائفة كلها رتبة كنائسية واحدة. ولا يستعمل الا كتاب القداس المطبوع وبقية الرتب الكنائسية التي نعتني الآن باصلاحها.»[٣]

هذا ما نقرأه . اما ما جرى في الواقع فكان بالعكس . فقد عمَّ في الطائفة استعمال الرتب اللاتينية بواسطة هذا الكتاب، وكان قد بدأ من قبل يتغلغل في نواحيهـا شيئاً فشيئاً بواسطة بعض المخطوطات، ثم بواسطة الشحيمة المتوسطة، المحتوية في ذيلها على بعض خدم الاسرار منقولةً عن الطقس اللاتيني.

ولا ادلّ على ذلك ممّا حدث فيما بعد، في اوائل القرن التاسع عشر. فقد اعدَّ المطران يوسف اسطفان، مطران قورش، كتاباً جديدًا للرتب الكنسية، يحتوي معاً على الرتب السنوية اي المعدعان وعلى رتب خدمة الاسرار الالهية: جمع الاولى من الكتب الطقسية واضاف اليهـا بعض عادات تقوية، لا صفة طقسية لها؛ واخذ الثانية من كتاب الرتب الكهنوتية السابق ذكره، بدون ان يحدث او يجدد فيها شيئاً. فارسل البطريرك يوحنا الحلو هذه الرتب كلها

١) المشرق (٧ [١٩٠٤] ٨٠٤ و٨١٠)
٢) ثمَّ، مجمع سنة ١٧٥٥، القانون الخامس.
٣) ثمَّ، مجمع سنة ١٧٥٦، القانون الثاني عشر.

الى رومية . والحّ خلفه البطريرك يوسف الحبيشي بشأنها . فدُرست في الدواوين الرومانية، بالمقابلة مع مجموعة الدويهي . فاثار درسها اعتراضات جمة . ولكن البطريرك عاد فارسل عريضة، وقعها معه المطارنة . وبها يقبلون بالكتاب على علاته، بعد قسمته الى جزئين، ويرجون الاسراع في طبعه . فتمّ ذلك وطبع الجزء الاول منه اي المعدعان سنة ١٨٣٩، وهو الذي اثار جلّ الاعتراضات؛ وقد اعيد طبعه في بيروت سنة ١٩٠٩ . وطبع الجزء الاخر، اي رتب خدمة الاسرار، سنة ١٨٤٠؛ وقد اعيد طبعه في بيروت سنة ١٨٩٧[١].

وهذان الكتابان يجري استعمالهما اليوم في الطائفة .. وقد رأينا ما فيهما من عبث برسوم المجمع اللبناني المقدس ومن مخالفة لعمل الدويهي . وقد ذكر شيئاً من ذلك العلامة الكردينال انجلو ماي في تقريره بشأن هذا الكتاب بجزئيه: من ذلك «انه لم يتمّ برأي الاساقفة واهل العلم، ولم تدرج السريانية فيه قبالة الكرشونية، وهو يبعد جدًّا عن مجموعة الدويهي، التي كان مجمع نشر الايمان قد صدقها واثبتها، وهو كله تقريباً بالعربية بعكس كتاب الدويهي، فضلاً عن ان فيه اموراً عديدة مأخوذة من المؤلفات الروجية او التقوية العصرية الغربية»[٢].

اما في شأن ما اخذه الكتاب، في جزئه الثاني، من كتاب خدمة الاسرار الروماني، فالعلامة ماي لا يعترض الا على طريقة اخذه . ودونك كلامه: «وحيث يتبع (الكتاب الماروني) كتاب خدمة الاسرار الروماني، فهو ليس مضبوطاً بالتمام، لكنه بالحري محرف .»[٣] وزاد الكرادلة المكلفون تصحيح كتب الكنيسة الشرقية، فاظهروا بجلاء موافقتهم على دخول هذه العناصر اللاتينية في الطقس الماروني، حيث قالوا: «لا مانع من ان يتخذ من الكتاب الروماني تلك الاجزاء التي تعتبر ملائمة، وخصوصاً فيما يلاحظ الاسرار او رتبة اخرى قديمة هامة، على ان يتمّ ذلك بترجمة مضبوطة وبفطنة .»[٤]

اطلنا الكلام في كتاب الرتب الكهنوتية ووليدهِ كتاب المطران يوسف

---

١) راجع كل ذلك في كتاب الاب ديب المذكور سابقاً، ص ٩٤ فما بعد .
٢) ذكر ذلك الاب ديب ثمّ، ص ٩٧
٣) الاب ديب ثمّ، ص ٩٧ ٤) الاب ديب ثمّ، ص ٩٨

اسطفان بجزئه الثاني ، لاننا نرى انه نفذ تلك الخطة التي بدأ بوضعها ابن القلاعي ، وجاراه فيها معظم تلاميذ رومية ، وهي الجري على عادات الكنيسة الرومانية وطقوسها ، فيما يلامس خدمة الاسرار المقدسة.

اما فروض الجناز في هذا الكتاب ، فقد سرت في الطائفة ، حتى اعاد طبعها المطران الدبس سنة ١٨٨٤ و١٨٩٨ ، فعوّل بالاجمال على النويسة القديمة ، المطبوعة في رومية سنة ١٥٨٥ . وقد ضمّ الدبس الى كتاب الجناز الافراميات والطلبات العربية التي اتينا على ذكرها بكلمة . وطبع كذلك سنة ١٨٨٤ ترجمة الحسايات الاكثر استعمالاً . وكانت مطبعة قزحيا قد اصدرت سنة ١٨٤١ كتاب القرآت التي تتلى من الكتاب المقدس في الفرض الالهي ، ما عدا الاناجيل . فهذه كان قد سبق طبعها في رومية سنة ١٧٠٣ . بقي كتاب الرسائل البولسية التي تتلى في القداس الالهي ، فهذه طبعت مراراً كثيرة في قزحيا وحلب وبيروت ، وكتاب الحاش ، فقد طبع في جونية سنة ١٩٠٢ . نكتفي بذكر هذه الكتب وطبعها ذكراً بسيطاً . فهي لا شأن لها كبيراً في ما نتوخاه من درسنا الحاضر.

الطقس الماروني القديم

ان الكتب الطقسية المطبوعة ، يمكن وضعها في ثلاثة ابواب : كتب خدمة القداس ، وقد قلنا انها اصبحت اقرب الى الطقس اليعقوبي منها الى الماروني ؛ وكتب خدمة الاسرار ، وهي لاتينية صرفة تقريباً ؛ وكتب الفرض الالهي ؛ ولم ندرسها درساً مستفيضاً فنعرف هل هي مارونية بحتة ، ام مزيج من الفروض المارونية واليعقوبية . اما قرآت الكتاب المقدس ، فلم تطبع كذلك طبعة قانونية ، بل طبع قسم منها بالعربية ، دون السريانية ، وهذا مخالف للاصول . واهم من ذلك ان العربية ليست في الغالب مترجمة بدقة وضبط عن السريانية المعروفة بالبسيطة . ثم ان من الكتب الطقسية ما لا يزال مخطوطاً ، على ما ذكرنا .

فمن الواجب ، والحالة هذه ، الرجوع الى الطقس القديم . وهذا امر يفرضه

البرُّ بالواجب تجاه السلف الكريم والائمة الاقدمين؛ ويحبّبه احياء امجاد هـذه الكنيسة المارونية، وقد تحالفت العوامل المختلفة على طمسها؛ ويدفع اليـه ويشجع عليه ما قام مؤخرًا ويقوم في الغرب من مثل هـذه النهضة المباركة. فليس الّا ان تعقد النية على القيـام بهذه المهمة، مهما كلفت من مشاق، وتستجمع القوى لتذليل ما يقوم في سبيل تحقيقها من عقبات، وتتخذ الاحتياطات لاحباط ما قد يثور في وجهها من عراقيل.

ولا شك في ان للموارنة طقسًا خاصًا بهم، يستقلون بـه عمن سواهم. وهو اذا سهل على كل مطلع فصله عن الطقوس الغربية، فلا يتعذر على الباحث البصير تمييزه من طقس السريان المجاورين.

وتوصلًا الى ذلك، يجب اطراح كل المستجدات التي دخلت الطقس، وسميناها الشواذ الحلبية، وما نُسج على منوالها في لبنان. فكل ما وضع في الاصل بالعربية ليس من الطقس الماروني في شي.

ثم يجب الاحتراز شديدًا من كل المخطوطات التي عقبت تأسيس المـدرسة المارونية برومية سنة ١٥٨٤، ومن المطبوعات التي اخذت عنها. فهي جـد متأثرة بالطقس اللاتيني، بل بعضها واكثرها متحولة اليه، حتى يصح اعتبارها كتبًا طقسية لاتينية، مكتوبة فقط باللغة السريانية او العربية.

واخيرًا يجب الايقان أن المخطوطات التي كتبت من اوائل القرن الخامس عشر فما بعد، وخصوصًا في جبة بشراي، حيث كان النفوذ اليعقوبي سائدًا، ليست في الغالب سوى مخطوطات يعقوبية، سواء أكتبت لاستعمال اليعاقبة، ام دسّت دسًا للاستعمال في كنائس الموارنة. فلا تصح اذًا نسبتها الى الطقس الماروني. على ان ما كتب في تلك الحقبة، حتى في الجبة، قد يكون بعضه مارونيًا اقلّه في بعض اجزائه؛ فيمكن الاستفادة منه.

اما كتب الطقس الماروني القديم فعلينا ان نفتش عنها قبل هذه الازمنة، وبعيدًا عن هذه الامكنة. فكل كتاب خطّ في القرن الرابع عشر فما قبل، وقام الدليل على نسبته الى الموارنة؛ وكل كتاب خطّ في تلك الحقبة او بعدها في نواحي البترون وجبيل، وخصوصًا في وادي ايليج: حيث اقام بطاركتنا

حتى اوائل القرن الخامس عشر ، هو كتاب ماروني صحيح.

لا نكير ان هذه الكتب نادرة جدًا . على ان قسماً منها لا يزال محفوظاً في خزانة الكرسي البطريركي وفي سواها من خزائن الكتب في لبنان ؛ وقد يفضي التفتيش الى العثور فيها على غيره . وقسمٌ منها تحتوي عليه خزائن الكتب في رومية وباريس ولندن وغيرها في الغرب . واذا كنا لا نعرف كل هذه الكتب ، فلأنّ الانظار لم تتخذ حتى الآن هذا الاتجاه الذي اتخذناه . بل كان الكتبة والعلماء يكتفون بما يرددونه من ان الموارنة واليعاقبة ، وان اختلفوا في المعتقد ، فهم متفقون في العادات والطقوس .

على ان ما نعرفه حتى الآن من هذه الكتب، على قلتها ، يمكننا من القول انها تبعد عن الكتب اليعقوبية ، ليس فقط في صلواتها ، بل كذلك في سياق هذه الصلوات وتنظيمها وترتيبها فيها . وهي على قلتها تشتمل على رتب طقسنا القديم ، او اقلّه على معظمها واهمها ، كالقداس الالهي وخدمة الاسرار والفروض . اما ماهية هذه الرتب ومكوّناتها ومميزاتها ، والى اية طائفة طقسية تعود ، فتلك امور لا سبيل الآن الى التبسط فيها

وقد ادى البطريرك الدويهي ، على ما ذكرنا ، خدمة جلّى ، اذ ابقى لنا في مجموعته شواهد ناطقة بمحتويات هذه الكتب . لانه قد عول على الكتب المارونية حين عمد الى تهذيب الطقس وترتيبه . فاستند الى الكتب السابقة لزمانه « بثلاثماية سنة وازيد » ؛اي العائدة الى ما قبل القرن الخامس عشر . فساغ لنا ان نعتبر مجموعته كنسخة عن هذه الكتب القديمة ، اللهم الا بعض تحويرات ، اقتضاها واجب « الطوع لصاحب السلطان الاعلى » ، في الجري على بعض عادات وطقوس لاتينية ، او جاء بها الزمان من طقوس جيراننا وضيوفنا اليعاقبة ، او آثرها هو نفسه رغبة في تحسين الطقوس ، على ما ذكر ونقلنا عنه.

فاقتفاء لآثار هذا الرجل الماروني ، يجب ان نعمد الى هذه الكتب القديمة ، فنستخلص منها طقسنا الاصلي . وعملاً بمبدإه ، يجب ان « نقطف ما هو ضروري» لقيام الطقوس، « وتحسين الرتبة على زي البلاد » ، بحسب مقتضيات الازمنة والامكنة ، ولكن على شرط ان لا « يصير تغيير في [الطقس] ولا في الرتبة . »

فخر الدين

١٦٣٥ - ١٩٣٥

لمرور ثلاثمائة عام على مقتله في الاستانة

بقلم سعيد عقل

يا اندفاعَ الامواج في شاطئ البوسفورِ ، رفقاً بذكرياتِ الاميرِ !
بقـايا حُلم تفوَّف بالضنى ، وألوى ؛ فالصبحُ مأتمُ نورِ ؛
فيـه من وثبة الجريح الى الثأرِ ، وفيه من احتضار النسورِ .

...

هو فخرُ الدين ، الفتى ، يقرأ الأيامَ في قولِ خـازنيٍّ وقورِ ؛
فيرى الامسَ من مذابحَ حمرٍ ، نافراتٍ على ممرِّ الـدهورِ ؛
جَدُّه ، قِبلةُ الشموسِ ، قتيلٌ ؛ وأبوه ، دُنيا اسى ، في جفيرِ ؛
والـدروز الأباة يغويهم الـسيفُ ، فيلقونه رحابَ الصـدورِ ؛
واذا وجـهُ عين صوفر اشلاءٌ ، وآفاقهـا بـلون الزفيرِ .
فيغضُ الاميرُ طرفـاً ، ويخفي ، خلفَ جفنيـه ، هزّةً للعصورِ .

...

بسم الـدهرُ للشريد ، وشاد العرش ، ظمآن ، لـلامير الصغيرِ .
أُفـقُ لبنـانَ ضيّقٌ ، وامانيه رحابٌ مدى شرود الضميرِ .
هزَّ فخرَ الـدينِ انقباضُ حدودٍ ، فرآهـا على شفا المعمورِ ؛
فـاستثار الابطالَ يعْدون للمجـدِ ، غضاباً ، ولامتشاق البدورِ .
سالَ فيهم شاطئ طرابلسٍ ، وانشقَّ ، تيهاً ، عن أنجمٍ في مسيرِ ؛
وتداعى عرشُ ابنِ سيفـا الى الترب ، وخلّى الصدى بصُمّ الصخورِ ،
فـاذا يُنصتُ البنون الى الموج ، يحتونها قنّاً في الهـديرِ .
وتنـادوا من الشمال الى زحلة ، يـترفدونهـا في الكرورِ ،

فيهبّ الابطالُ منها ؛ ولا حدّ لوثب الرّحليّ ، يوم الظهورِ .
دان مجد الفُرَيخ ، دان شفا الاردنّ ، في وثبة ، ونفخة صورِ .
عصبةٌ من فوارس حملوا البيض لقبر المسيح ، حملَ النذورِ ،
قيل: حجٌّ ! وقيل : شوقُ سيوفٍ حدُّها ، في الطموح ، حدُّ النورِ !

...

كاد وجهُ الامير يَحجب من مجدٍ عريقٍ ، على السهى منشورِ !
كاد لبنان يلتقي «العاليَ الباب» بزندٍ سمحِ الفتول ، قديرِ !
فتلوّت استانةٌ : روعةَ الواجف هزّته غصّةَ المقهورِ .
حلمت بالشواظ يبطر لبنان ، وبالكرِّ في العديد الوفيرِ ؛
فاذا البرّ من غبار عباب ، واذا البحر من دخان حرورِ ،
من عدى بكّر العتاد ، تكاد الارض ترنو اليهم بنفورِ .
لم يرعه التقاؤهم ، وعلى الكفّ فؤادٌ له حبيبُ الكرورِ ؛
راعه حُلمه تحطّمه الاقدار ، طفلًا في هدهدات السريرِ ،
فامّحى عن عداته ، يكظم الانفاس خوفًا على الفضاء الكبيرِ .

...

بينا سُدّة الامير عليٍّ تتعزى بابن الخيال الكسيرِ ،
كان في مقلب النهار أميرٌ مجهدُ الطرف ، مجهدُ التفكيرِ ،
يتلوّى على الخريطة ، حُلمًا شائنًا في خطوطها ، والسطورِ ؛
متعب ، يفجر الأسى محجريه ويروّي مزقَ الفم المخرورِ ،
تعتريه ، شوقًا الى مجد لبنان ، ارتعاشاتُ مطلبٍ مأسورِ ،
ويودّ الوصولَ للارز بالوهم ، فيجري به الى البوسفورِ .
واذا بالصباح يستبق الوقت ، ويطفو في قلبه الموتورِ ،
فيخال الخريطة ارتقصت ، زهوًا ، وراحت من كفّه في سرورِ !

...

حملته ، الى شواطئ لبنان ، اواذيُّ من منًى وحبورِ ،
فالتقاهُ البلاط ، مولًى سيحمي جبهةَ الترك من عدوٍّ مغيرِ ،

شفيت من طبوحه مقلتاهُ ، وتعرّى من الخيال الخطير .
لو رأوا في البلاط نورًا ، لكبّوا ، في خضمّ البوسفور ، بازّ القصور !

. . .

داس في أرضه الاميرُ ، فراح الجبل الميتُ في ثياب النشور ،
وسرت رعشةٌ بلبنان هزّت من ذرى أرزه الى صخر صور :
أمّة تستردّ مجدًا سليبًا ، واميرٌ يلهو مع المقدور .

يا حجارًا خوافت اللون في لبنان ، قصّي كتابَ عهدٍ نضير !
قلمّا كنتِ ، ضاحكاتٍ من النجم ، حسانًا ، ممرّدات الخصور
انتِ تيرون ! انتِ عجلون ! انت المرقب السمح ماطرًا بالسعير !
انا ما دستُ مرّةً حجرًا منك ، ولم انتفض لذكرى الامير !
حدّثي ! حدّثي ! ففي لونك الناحل اطيافُ جيشنا المنصور !

سالت الارض بالخيول الى الاردنّ ، سالت مع الخيال الثغور ؛
تزرع الرايَ خافقاتٍ ، من العاصي الى الميت ، ضاحكاتِ النشور ،
ومن الابيض الكبير الى تدمر ، رقراقةَ السنى والحبور .
ضحكت ، يومَ عنجر ، الأسلُ السمرُ ، وشكّت قلب الضحى المستطير .
أمّةٌ وفرةُ العتاد تلاقي باقةً من شبابنا الممرور .
اجفل السهلُ للطعان ، واغضى وجهُ حوّمون للدمِ المهدور ؛
ينثر السيفُ خصمَه ، فتخال الانجمَ الحمر من حُسام نثير ،
وتخال الامير ، في جيشه العابس ، يمشي على ابتسام الثغور .
ظلّ صوت الطعان يرتجّ في الليل ، الى سفرة الصباح الطرير ،
فتملّاه مصطفى ، قائد الترك ، حزينَ السنى ، حزين السفور ؛
ما رآه الامير الّا التقاه بسخيٍّ في كفّه ، موزور ،
ضربةٌ سمحةٌ كفت ، فارتمى الفارس في قلب جيشه المدحور ؛
وأطلّت شمسُ الصباح ، فحيّت جند لبنان بالشعاع الغرير .
لم يمت مصطفى . فقال ابن معن : « رح الى النور ، لست لي بأسير ،

انت حرٌّ! فمدَّ للشمس طرفاً وامـلا العين من سنى التحريرِ!»

...

نكست هامهـا الجبالُ، ودان الشرقُ للمستقلّ فيه، الجدير.
وجه فخر الـدين انتفاضة قلب مستهـامٍ الى الخيالِ، كبيرِ،
قدّهُ من جبـال لبنان، في الليل، ومن ضحكة القنا في النحورِ.
يعتلي صهوة الجوادِ عبوساً، فعلى الشرق رعشة المخمورِ.
ويـذوب الصهيلُ في سمع استانة، نجوى «حِدا» ونجوى نفيرِ.
ايخلّي مراد الرابع العرش على وهـدة الردى والشفيرِ؟
ايخلّي الاميرَ، مملوكه، امس، يشكّ البنود في البوسفورِ؟
حُلمٌ في خيـال لبنـانَ رحبٌ، رعرعته فنيقيـا في الصدورِ:
سفنٌ تمخر العبـاب وتبقى الهرقليّات، خلفهـا في قصورِ،
تقصـد القطب، والجزائر في القطب، وتأتي منـاجماً في بكورِ،
وتـدور اعتزازةً حول بكر الارض، تجني النضـار من أوفيرِ،
تزرع المُدنَ في الشطوط، وتنثي مَن يهزّ القنـا بوجه القديرِ.
ويتيـه السلطان في حُلم لبنان، فيلوي على جسام الامورِ.

...

حمـلة اليوم، لو تكون للبنان، لأَودى بعزّة المعمورِ!
من رجالٍ في سرحة الفكر عدًّا، وسفينٍ في منتهى التقـديرِ.
فـاللهيبُ، اللهيبُ يطير لبنـان، ويرفضَ بالردى والـدثورِ؛
وحوالي الاميرِ من كاظمٍ قسراً، ومن حاسدٍ أتيّ الشرورِ،
أعيُنٌ يخنق السنى لفتـةٌ منهـا، فتغضي على مرادٍ ضريرِ،
مـا أحسّت بالترك يولونها القوّة، الّا تفجّرت عن قبورِ.
المدى في رجاله، والمدى الترك يجور اليـه إثرَ يجورِ،
يلتقيهم لبنـان بالعصبـة البسْل يعضون للطمـان الاخيرِ،
فيموتون عن نفوس كبـارٍ، ويتامون مـلْ طرفٍ قريرِ.
قلعـةٌ إثر قلعـةٍ تسلم الابراج، الّا تيرون، اخت النسورِ،

معقل الحُلم لم تشأ ان تـداعى ، هُزُءًا بالزمان والمقدورِ ،
لم يدعها الامير تسقط ، لولا السمُّ في مائها الزلال النميرِ ،
فرعاها بطرفه ، ورعته ، في وَداع أدمى غناء الطيورِ ؛
ومضى يسحب القيود باستانة ، مخضوبةً بحُلم كبيرِ !

. . .

يا اندفاع الامواج في شاطئ البوسفور ، رفقاً بذكريات الامير !

زيارة الى قلعة المرقب

بقلم الاب فردينان توتل اليسوعي

توطئة

ان يكن للسيارات منافعها في تقريب المسافات وحمل الروّاد ، بسويعات معدودة ، من اقاصي البلاد الى اقاصيها ؛ فلها مضراتها ، وهي آفة الصبر وبليّة التأني الذي لا بد منه في زيارة الآثار ، للنظر اليها بعين الدقة والتمحيص .

وانّا في زيارتنا قلعة المرقب في اوائل تموز ، مع اساتذة الجامعة اليسوعية ، اختبرنا من السيارة منافعها ومضرّاتها . على ان المنافع ، والحمد لله ، غلبت المضرّات . وبفضل آلة التصوير الشمسية طبعنا على اطار البلور ما لم يتسنَّ للعين ان تطبعه في الذاكرة . فجلنا في قلعة المرقب جولة المستعجلين لكننا لم نبارحها الا وفي الجعبة تصاوير عديدة لبروجها ومشارفها وجدرانها ، وفي الذاكرة شبحها الهائل المتقطعة رجومه على صفاء الاديم الازرق في سماء بلاد العلويين .

وعدنا الى الجامعة ، والى المكتبة الشرقية ، فانتقلنا من سياحة السيارات الى مراجعة التآليف واذا هي حافلة بذكر المرقب وآثاره وتاريخه واكثرها الكثير هو باللغات الافرنجية ، من كتاب الكولونيل جاكو الموضوع دليلاً لارض العلويين ، الى مؤلف فان برشم فاسيو ، المطبوع في القاهرة سنة ١٨٩٧ ، وفيه وصف الرحلة السورية ، الى مؤلفات دوسو الافرنسي ، وريتر الالماني ، وهونيكمان[1]

١) دائرة المعارف الاسلامية وفيها سلسلة المصادر ، مادة « مرقب »

ومن رُوي عنهم من امثال بوركارت ، ووالپول ، ولسترانج . وهؤلاء لم يغفلوا الاطلاع على ما كتبه العرب في حصن المرقب كياقوت ، وابي الفداء ، وصاحب كتاب تشريف الايام ، مترجم السلطان قلاون ، وابن بطوطة ، وسيف الدين الدمشقي ، والقلقشندي ، وغيرهم ؛ فعليهم معوّلنا.

ولا عجب ان تكاثرت المصادر في البحث ، وتاريخ المرقب صفحة من اروع صفحات تاريخ الحروب الصليبية ؛ عالج الافرنج امره لما له من المكانة في الحُصُن التي ابتنوها او رمّموها ، وعظّم العرب شأنه وقد يكون فتحه عنوان انتصارهم النهائي على الصليبيّين.

لقد تعقبنا المستشرقين في وصف القلعة الفني ؛ واستعرضنا اقوال المؤرخين ، واخصّهم العرب في ذكر الوقائع التي جرت فيها وحولها ؛ ولم يفتنا ما في مقالنا من تطفّل وجزاءة بالاقدام على الخوض في بحث لا يمسّه الا الاختصاصيون. ولكن استنادنا الى مؤلفاتهم، وقلة ما نعرفه عنها ، لا اقول العامة ، ولكن الخاصة من الناطقين بالضاد ، ورغبتنا في تنبيه الخواطر الى الاهتمام بامر آثارنا ، تلك كانت الاسباب التي دعتنا الى الكتابة ، وقد تأتي في بابها صلةً لما سبقنا ووضعناه في «المشرق» وصفاً لما زرناه من قرى فلسطين وحوران وبلاد الفرات وبلاد العاصي[1].

من بيروت الى بانياس فالمرقب

من بيروت الى طرابلس مسافة ٩٠ كيلومتراً ، ومنها الى طرطوس ٦٠ ، ومنها الى بانياس ٣٨ ؛ تجتازها السيارة فتمرّ على الطريق التاريخية القديمة ، قاطعةً نهر الكلب ، وبلاد جبيل ، والبترون ، فعكار الى ان تدخل بلاد العلويين .. اليك عتليت وانصابها الفنيقية ! وهنالك عن بعد ، جزيرة ارواد وبناياتها ، كأنها العمارة البحرية الكبرى . جميلة هي كنيسة طرطوس الملوكية وقد وضعت عليها الحكومة يدها فجعلتها متحفاً تأوي اليه الاثار المكتشفة في تلك الربوع من اجزاء عواميد ، واعضاء تماثيل يغلب في صنعها الفنيقي اثر الفن

(١) في المجلدات ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٣٣

المصري . نظرة عليها نلقيها وكفى ؛ والسائق خطفنا خطفاً . تركنا شعبة الطريق الى دريكيش ، عند خروجنا من طرطوس ، وبعدها الشعبة الى الشيخ بدر ، والمصيف . ثم تعطلت بنا السيارة فنزلنا وتعرفنا الى القرية المجاورة لذلك الموضع . هي متن عرنوق وسكانها من الملكيين الارثوذكس . طربنا لسماعنا احد فتيانهم يتلو على مسامعنا الصلوات المألوفة : « قدوس الله قدوس القوي ... نسبحك نمجدك ... يارب ، يا اله ! » فقلنا له : « زاد الله عدد المسيحيين ! » ففرح لتمنياتنا. ثم ركبنا ، فجزنا جسوراً وانهاراً ، الى ان حطت بنا الرحال في بانياس ، وقد سماها اليونان بالانيا واللاتين فالانيا . كانت على ايام اليونانيين الاقدمين مركزاً لجالية اصلها من سكان ارواد ؛ وتبعت مقاطعة اقليم سورية الى ان صار مرجعها لاوديقية (اللاذقية) على ايام جوستينيان في القرن السادس الميلادي ، لكنها كانت ترجع بالروحيات الى اسقفية افامية . وفي القرن العاشر كانت تعود الى انطاكية ، طبقاً لما بلغنا عنها في لائحة الاساقفة البيزنطيين . وجعل الصليبيون اسقفاً لاتينياً في فالنيا ، لكنه قلما اقام فيها لكثرة الحروب ، فكان يلجأ الى المرقب .

وفي كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ[1] اخبار طريفة تفيدنا عن علاقات الصليبيين والمسلمين فيها ، اخذاً عن شاهد عيان . وان اسامة لا يذكر الافرنج الا باللعن ، ولكنه اذا تطرق الى الكلام عن عدالتهم لا يتمالك عن وفائهم حقهم من الانصاف ، فشهادته غير مجروحة ، وسوف تساعدنا في الرد على من يتهمون الصليبيين بمخالفة وعودهم في فتح المرقب .

قال ص ٦٤ : منزلة الفارس عند الافرنج :

« والافرنج ، خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية الا للفرسان ، ولا عندهم الا الفرسان اصحاب الرأي وهم اصحاب القضاء والحكم . وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم اخذها صاحب بانياس (واسمه رنيه) من الشعراء ، وبيننا وبينهم صلح وانا اذ ذاك

---

١) طبعة فيليب حتي .

بدمشق . فقلت للملك فلك بن فلك : « هـذا تعدّى علينا واخذ دوابنا ، وهو وقت ولاد الغنم . فولدت وماتت اولادها ، وردّها علينا بعد ان اتلفها » فقال الملك لستة سبعة من الفرسان : « قوموا اعملوا له حكماً . » فخرجوا من مجلسه ، واعتزلوا ، وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد ، وعادوا الى مجلس الملك . فقالوا : « قد حكمنا ان صاحب بانياس عليه غرامة ما اتلف من غنمهم . » فامره الملك بالغرامة . فتوسّل اليّ ، وتثقّل عليّ ، وسألني حتى اخذت منه اربع مائة دينار . وهذا الحكم بعد ان تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا احد من مقدمي الافرنج يغيّره ولا ينقضه فالفارس امر عظيم عندهم . »

واذ نحن في التنقيب على اخبار ذلك العهد في الارض التي تطأها اقدامنا ، وعليها سوف نضرب خيامنا لكي نقضي الليلة على الحشيش او « الحلفاء » تصورنا جماهير الصليبيين والمسلمين المحتشدة في تلك الربوع ، ايام السلم ، وكل فريق يلتهي بالنظر الى اعمال الفريق الآخر ، وقد صار الموضع محجة للبراغيث فكثرت مع كثرة الناس وفتكت في لحمانهم فتكاً . والخبر جاء في كتاب ابن منقذ (ص ٨٦) قال : « عسكر الافرنج على بانياس في جمع كثير ، وان لم يكن في حرب ، وكان معهم البطرك ، وقد ضرب خيمة كبيرة جعلها كنيسة يصلّون فيها ، يتولى خدمتها شيخ شماس منهم ، وقد فرش ارضها بالحلفاء والحشيش فكثرت البراغيث ، فوقع لذلك الشماس ان يحرق الحلفاء والحشيش لتحترق البراغيث فطرح فيه النار وقد يبس فارتفعت السنتها وعلقت بالخيمة فتركتها رماداً . »

وقضينا الليلة في جوار بانياس ولم نتحيّر باي القولين نعبّر عن احوالنا وهل الاصح ان نقول : اكلوني او اكلتني البراغيث . ولم يتطرق الينا الّا رجال المكوس ، وقد توهّموا امتعتنا بضاعةً مهرّبةً ، فلما تحققوا امرنا عادوا ادراجهم وتركونا بسلام ، ولا صوت يناغي نومنا الهادي الا صوت موج البحر المبتسم على الشاطئ .

وصف المرقب

خرجنا من بانياس من جهة الجنوب ، وبعد زهاء ٨٠٠ متر تحولت بنا السيارة يساراً الى الشرق ، فارتقت سفوح جبل سهلة الانحدار ، بانت لنا منها واجهة القلعة الشمالية . واجتزنا ، من ثمّ ، قرية المرقب . وما كانت دقائق حتى دارت بنا السيارة حول القلعة فبلغت الى ناحيتها الجنوبية ، وهناك وقفت ، فنزلنا عند المدخل.

رسم المؤلف ري الافرنسي قلعة المرقب رسماً اعتمد عليه الكتبة من بعده وقد نقلناه في الرسم ٢ :

ان انقاض الحصن كما هو في يومنا تشبه صورتها قنينةً راسها موجّه الى الجنوب وعقبها الى الشمال ؛ وفيها قسمان : القسم الجنوبي وفيه انقاض البروج والمعاقل والمشارف المكوّنة منها القلعة بمستحكماتها ، وهي تشرف على الساحل ؛ بينها وبينه صخور وقيعان تمخضت بها الارض فاحدثتها في ثوراتها البركانية بين زلازل واعصار . والقسم الشمالي كانوا يلجأون اليه في سكناهم فكان اشبه بالقرية ، وهو الى يومنا مبيت لبعض الفلاحين . وكلا القسمين يحيط بهما سور منيع مزدوج الجدران مدعّم بالبروج، اعظمها البرج B وقد اعاد بنيانه المسلمون بعد استيلائهم على الحصن.

اما مدخل القلعة من الجنوب فهو باب واسع يُرقى اليه بدرج عريض يصلح لسير الناس والدواب ، ومنه يدخل الى باشكة محكمة البنيان ، منها المنفذ الى حرم القلعة ، ومنها ايضاً الدرج المؤدي الى سطحها ، المحاط بمشارف وهو من بناية القرن الثالث عشر.

من صحن القلعة يمتدّ النظر جنوباً نحو مدخل المعبد H (الرسم ٥) وهو بهو كبير وصفه انلار في كتابه على «آثار الصليبيين الدينية» (المجلد الثاني ص ٤٤٢–٤٤٣) وان متنه الافرنسي مكتظ بالالفاظ المخصوصة بفن البناء ، حاولنا تعريبها ما استطعنا اليه سبيلاً، قال: « كان معبد مرگات (المرقب) كنيسة لسكان القلعة ومصلى لمطران فالنيا او بانياس تلك الكنيسة فيها صحن وحيد معقّد السقف

بحنايا ، ولها صدر او محراب مبني في مربع مستطيل وعلى جانبيه في الزاويتين غرفتان صغيرتان للسكرستية . هذه الكنيسة الصغيرة بُنيت بالحجارة المنحوتة الجميلة على طراز شريف وبسيط معاً وقسمت الى شطرين بقنطرة مستندة الى عمودين وراءهما قوائم ملتصقة بالحائط مربوعة وعليهما تاجان ملتصقان برؤوس القوائم . وهناك شبابيك رؤوسها مثلثة الاضلاع وهي في فتحة من الحائط ، واسعة في جانبها المحاذي لصحن الكنيسة ، ضيقة في صدرها ؛ منها شبّاك في صدر الكنيسة ، وشبّاك في الواجهة ،وشباكان في كل قسم من قسمي الصحن. وللكنيسة بابان جميلان احدهما في الغرب ، والآخر في الشمال لكل منهما حنية عقد مثلثة الاضلاع، ظريفة القد ؛ وهي من صنع القرن الثاني عشر ، وعليها تضافير بارزة وتحتها قاعدتان عليهما عمودان أهيفان اما واجهتا البابين فمنحوتتان وليس للعتبتين الفوقانيتين مترنصات تستندان اليها. وان صانع عقد الحنايا قطعها افقيّاً عند الواح تيجان العواميد وفصل بين حنية وحنية بعرض المدماك.

اما ارجل العواميد فتذكّر بالقد الاتيكي الحسن، وتيجانها تتشابه ، وهي من الرخام ، وطرازها كورنثي باوراق غير مثقوبة منحنية الاطراف على شكل اقواس الدائرة كما يوجد ذلك في كنيسة طرطوس ، وفي محراب اللدّ ، وفي باب غزة ، وفي غير ذلك من البنايات الصليبية . وهذا المعبد الجميل هو مثال صاف لطراز الفن الرومني (roman) المستعمل ما وراء البحار ، خارج اوربة.

في ناحية صحن القلعة الغربي بقايا بهو كبير GS فيه اربعة مقاطع كان سقفه ذا حنايا يحملها في الوسط عمود مركزي ، وفي الاطراف اركان وقوائم. وكانت جدران البهو مزينة بالصور ، وفيه عقدت مشورة الفرسان الاخيرة حيث قرّ قرارهم على تسليم القلعة للمسلمين في ٢٧ ايار سنة ١٢٨٥ . اما البرج الاكبر فعلوه ٢١ متراً ، وطول قطر دائرته ٢٩ متراً ، وسمك جدرانه خمسة امتار وفيه طبقتان للدفاع ؛ وكان بين الطابق الاعلى والطابق الاسفل ثقوب يتكلمون فيها ، وبفضلها يصير التفاهم بين العساكر في القبو التحتاني وبين الحرس الواقف على المشارف . وفي اعالي ذلك البرج كانت طريق مستديرة محوّطة بالمرامي المخرّمة ، وهناك سطح كانوا يضعون عليه آلات الحرب الكبيرة.

في الصور التي عرضناها تظهر انقاض متراكمة (الرسم ٨) من بقايا مساكن وغرف واقبية دارسة كانت فيها المخازن والاسطبلات، ومواضع سكنى العساكر، والدهاليز الرابطة بين سائر الحصن. انما هي اثر بعد عين صبرت على مئات السنين وهي تحدثنا اليوم باعمال الصليبيين.

قلت اعمال الصليبيين، لان بنايات المرقب بعضها ينسب الى البيزنطيين وبعضها الى العرب. ولكن اجمل ما بقي فيها انما هو من اعمال الافرنج وقد ختموه بختمهم، وهو طرازهم الخاص في البناء القوطي الروماني. تصفح انلار تفاصيله في الحجارة وسمّى كل حجرة باسمها او كاد، وان نقل اقواله الى العربية لمستحيل. ونتمنى ان يوفق ائمة اللغة الى وضع الالفاظ المساعدة على ترجمتها. ولا بد، في وصف المرقب، من ملاحظة نأتي بها خدمة للصدق في التاريخ.

ان بعضهم لا يزالون الى يومنا يبخسون الصليبيين حقهم من الفضل على الفن والصناعة في الشرق، ولم ينسبوا للعرب الّا كل حسنة وللصليبيين الّا كل سيئة. وربما استبانوا بعض فوائد الحروب الصليبية، لكنهم لا ينفكون يشنعون سمعتها، فينسبونها وشرورها الى الكنيسة ورجالها، فيغفلون ذكر الاسباب الجوهرية التي دعت بالمسيحية لتكافح عن كيانها بالسيف لئلا «يلتحم عليها طرفا الهلال.»

في مقال على سورية في زمن الصليبيين نشره السيد نقولا زيادة[1]، وصف احوال البلاد وصفاً قيماً مستنداً الى المصادر، لكنه لم يميز بين الغث والسمين. فلا كرد علي ولا بروتز عمدة يُعتمد عليها في الدرس الصادق لحوادث الحروب الصليبية، ينظر اليها الاول بعين غير مجردة عن التعصب الديني، والثاني يحصر نظره في دائرة المسائل الثانوية فيجمع للصليبيين ذكرى الحوادث السيئة، وهذه تحدث اينما كان بشر، ولم ينسب الى نور الدين وصلاح الدين واشياعهما الا كل فضيلة وحسنة[2] فما احرانا ان نرجع بهؤلاء الى قلعة المرقب ليدرسوا في انقاضها

---

١) في مقتطف ١٩٣٥، يونيو، ص ١٦ وما بعدها، ويوليو، ص ١٩٣ وما بعدها.
٢) لامنس: سورية ١: ٢٢٦

آثار الفن البنائي الصليبي ولا يخصوا محاسنه كلها بالمسلمين كما فعل الكاتب المذكور اذ قال في الصليبيين: « انهم قلدوا المسلمين في البناء الحربي الديني » (ص٢٠٢) ولم يزد على ذلك ، فاوهم انهم لم يبتكروا . والواقع خلاف الوهم، والمرقب شاهد.

تاريخ المرقب

البيزنطيون يسمونه Μαρχάπις واللاتين « مرگات » او « مرگاتوم » (Merghatum) وان له تاريخه قبل الفتح الصليبي ، وفيه ، وبعد نزوح الصليبيين عنه .

قبل الفتح الصليبي – بناء الحصن

في ذلك العهد تناوب العرب والبيزنطيون في تلك القلعة ، فوضعوا بناياتها الاولية ، ولعلهم وجدوا فيها آثاراً لمن سبقهم في الاستيلاء على البلاد ، لان لفظة « عمّر » التي رواها ياقوت يمكن تأويلها بان « المعمّرين » وجدوا في آثار غيرهم مادة لما بنوه . قال في المعجم[1] :

« المرقب بالفتح ثم السكون والقاف وباء موحّدة ، وهو اسم الموضع الذي يرقب فيه ، بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بانياس . قال ابو غالب همام بن المهذب المعري في تاريخه[2] : وفي سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢)فيها عمّر المسلمون الحصن المعروف بالمرقب ، بساحل جبلة ، وهو حصن يحدّث كل من رآه انه لم يرَ مثله ، واجمع رأي اصحابه على الحيلة بالروم فباعوهم الحصن بمال عظيم وبعثوا شيخاً منهم وولديه رهينةً الى انطاكية على قبض المال وتسليم الحصن . فلما قبضوا المال ، وقدم عليهم نحو ثلثمائة لتسليم الحصن ، قتلوهم واسروا آخرين كثيرين فباعوا انفسهم بمال آخر ثم فدوا ذلك الشيخ وولديه بمال يسير وحصل المسلمون على الحصن والمال . »

---

١) طبعة وستنفلد ، ص ٥٠٠ من المجلد ٤

٢) مؤرخ نجهله . عسى ان يوفق منقب الى اكتشاف مؤلّفه .

وترى ان وصف ياقوت للقلعة لا يعرفنا بها التعريف الذي يرتاح اليه الخاطر ، وما اكثر ما يوجد من حصون كل من يراها يحدث انه لم يرَ مثلها،ويكفي ان يكون لم يخرج من قريته فيحدث عن اكبر بناية فيها « انه لم يرَ مثلها » .

اما مخالفة سكان الحصن وعهودهم فسوف تؤدي لنا مادة لنظرات قيمة في تاريخ الصليبيين والردّ على من اتهمهم بقلة البرّ بالوعود .

وفي كتاب « عجائب البر والبحر » لشمس الدين الدمشقي[1] تعليمات على المرقب لم يأتِ بها صاحب المعجم . قال شمس الدين :« المرقب ثغر منيع ، على راس شاهق ، مطلّ على البحر ، كبير ، مثلث الشكل ، بناه الرشيد على اثر قديم ، ثم النصارى ، ثم ملكه المسلمون في عصرنا . »

وقال فان برشم (ص ٣٠٤ في الحاشية ٧) : ليس من المحتمل ان ينسب الصرح الى رشيد الدين سنان زعيم الاسماعيلية لان المرقب على ايامه كان في أيدي الاسبتاليين ، وارتأى ان الرشيد انما هو هارون الخليفة وقد ذكر على سبيل المجاز ، اذ نسبوا اليه كل عمل عظيم كانوا يجهلون اصله ، شأنهم في نسبة امثاله الى سليمان . ولكن ليس ، في نظرنا ، مانع يحول دون ان يكون الرشيد هو الذي وضع اساسات المرقب ، ومعروف ان على ايامه بنيت العواصم والثغور ، صيانة للبلاد من هجمات البزنطيين[2] .

وفي السنة ١١٠٤ احتل البزنطيون المرقب وغيره من الحصن المجاورة كصافيتا وجبلة وغيرها .

استيلاء الافرنج على المرقب

في اي سنة فتح الافرنج المرقب ؟ وكيف فتحوه ؟ وكيف عاد فانتقل من ايديهم الى ايدي المسلمين ؟ هذه اسئلة مصادر الجواب عليها نوعان منها عربية ومنها لاتينية ؛ وبالمقابلة بينها حصّل المؤرخون التعليمات التي ساعدتهم على وضع تاريخ الحصن .

---

١) طبعة مهرن الافرنجية ، ص ٢٠٨

٢) لامنس : سورية ١ : ١٢٦

في السنة ١١١٧-١١١٨ هاجم الصليبيون المرقب وكان في حوزة المسلمين، فضايقوه وكان صاحبه يعرف بابن محرز . فارسل الى اتابك طغدكين يسأله ان يستلم القلعة لئلا تسقط في يد الصليبين ؛ وكان طغدكين حاكم دمشق ومؤسس دولة المماليك وجامع كلمة امراء المسلمين[1].

وكان الحصار قد اخذ بخناق الحامية وقلّت المؤونة وارتفع سعر القوت والحاجيات واشتد الغلاء ؛ وفي غضونها كان حاكم جبلة ابو محمد بن الصليعة في دمشق ، بالقرب من طغدكين ، فاستنجده ايضاً ابن محرز برسالة عرض فيها عليه الحصن ليستولي عليه ويؤمّنه من الافرنج وقال : « ان لم تلحقونا اعطيناه للفرنج . » وكانت جبلة قد سقطت في ايدي الصليبيين ، فكانت الفرصة سانحة لاستردادها ، ودفع غارات الصليبيين عن المرقب . فاشار اتابك طغدكين على ابن الصليعة باخذ المرقب ، واطمعه في انه يسترد جبلة ووعده النجدة والمعونة فسار ابن الصليعة من دمشق وذهب الى حماة ، ومنها الى حصن شيزر فابتاع فيها ما يكفيه من غلال عدة شهور ، فبلغ الى قلعة المرقب وتسلّمها ؛ وظل ابن محرز فيها ؛ وارسل ابن الصليعة نوّابه لاسترداد جبلة . وحدثت في السنة ٥١١ هـ (١١١٦م) مجاعة من جراء اتلاف المزروعات في البلاد فارسل ابن الصليعة الى اتابك طغدكين على يد ابن محرز صاحب الحصن يسأله المعونة بغلة تُحمل اليه .

وفي غضونها كان روجار ، صاحب انطاكية ، قد خرج الى حماة ورفنية ، فخرج اليه اتابك طغدكين . وكادا يلتقيان بالقتال ؛ ثم جرت بينهما مراسلات ادّى امرها الى ان يبتعد روجار عن حماة وعن رفنية ، على ان يتسلّم المرقب . ودفع اتابك اربعة من اصحابه رهينة على الوفاء . وعاد روجار الى انطاكية . وراسل طغدكين الذين بالمرقب ، وأمرهم بالتسليم الى الافرنج على غير قيادة ولا تعويض . فارتاعوا من هذه الرسالة وصرفوا رجاله ، وابوا التسليم الى الافرنج ولم يحفظوا العهود التي قطعها اتابك طغدكين ، ملك دمشق ، مع

---

١) راجع كرد علي : خطط الشام ١ : ٢٨٥

روجار . فصار الافرنج يلتمسون الحيلة الى احتلال القلعة .

ودبّ الخلاف بين ابن الصليعة وابن محرز . وخاف ابن الصليعة من اهل المرقب ، فخرج منها . فوثب اهل المرقب ونهبوا ماله ؛ فأشعر ابن محرز بضعفه وارسل الى الافرنج بانياس بتسليمهم المرقب ، على ان يبقى اهله في جانب منه .

فاجابوه وتسلّموا المرقب منه . وبعد ايام يسيرة اخرجوه منه وعوضوه بالمنيقة .

هذه رواية كتاب مخطوط عنوانه « تشريف الايام والعصور بسيرة السلطان الملك المنصور » طبع ڤان برشم شيئاً منه فاخذنا عنه . ونوّه هونيكمان بحوادث فتح المرقب فقال : ان الافرنج نكثوا العهود . ولم ينتبه الى كون اصحاب المرقب هم الذين خالفوا ما كان تعهّد به سلطانهم وكانوا اول من نكث العهد ؛ ثم من معاملتهم ابن الصليعة الذي نجدهم واحسن اليهم تستدل على ان الافرنج لم يبقوهم في المرقب الا خشية الخيانة ؛ وعلى كل حال فقد عوّضوا عليهم بغير موضع السكنى .

ودخل المرقب في دور تاريخه الثاني .

على عهد الصليبيين

واختلف المؤرخون على سنة فتحه ، وعلى اسم صاحبه ، لكنهم اجمعوا على انه كان من اسرة منسوير (Mansuer) وهم من موالي امير انطاكية . على ان دولة آل منسوير في المرقب لم تطل مدتها . وفي اول شباط سنة ١١٨٦ اشعروا بعجزهم عن القيام بهيئتهم والدفاع عن الحصن فدعوا فرسان الاسبيتار وسلّموهم المرقب وتخلوا عنه .

كيف جرى ان اسرة منسوير النبيلة تخلّت عن حصنها ، وعن عنوان شرفها رما كان الداعي الى ذلك ؟ قد يرى المؤرخون السبب في ذلك الخراب الذي حلّ بالمرقب والمخاطر التي احدقت به ، مع انحطاط قوى اصحابه ، مما جعل اكتافهم تنوء دون حمله الثقيل ولا بد من كلمة استطراد في الموضوع تفسيراً لوقائع المرقب .

الفرسان «الاسبتار»

ان الحملات الصليبية كانت في جوهرها حروباً مقدسة ، وغايتها الاساسية تحرير الاراضي المقدسة من نير المسلمين . فكان السواد الاعظم من الصليبيين يدخلونها مدفوعين بالداعي الديني ، واذا أتوا الشرق وقاموا بما كانوا يعتقدونه واجباً تقيدوا به في خدمة الـدين ، كانوا يهتمون بالعودة الى بلادهم . فعادوا اليها كباراً وصغاراً ، امراء وملوكاً وعامة ، لكنهم سعوا الا تذهب اثمار فتوحاتهم ضياعاً فجهدوا في تأسيس مملكة اورشليم وتنظيم اماراتهـا لتكون مستعمرة كاملة فيها من القوات ما يكفيها للدفاع عن ذاتهـا بذاتها ، من غير التعويل على اوربة لكي تواصلها بنجداتها . وبالطبع كان امر التجند اهم الامور في تلك المملكة ، والمسلمون كانوا يهادنون لمدات قصيرة ثم يعودون يهاجمون الصليبيين . فـاهتم الامراء الصليبيون في حشد العساكر من سائر العناصر التي دخلت في طاعتهم ، ليس فقط من مسيحيين ، ولكن من مسلمين ايضاً . على ان هؤلاء الرجال كانوا معاونين ، ولم يُعهد اليهم بامر القيادة وبالاعمال المتعلقة بها مقدرات المملكة وحياتها ؛ فكان الجيش النظامي الثابت اخصه من جماعة من الافرنج لا من عامتهم ولكن ممن تخصصوا للجهاد وقد انخرطوا بسلك الرهبان ونذروا النذور ، وضحّوا بحياتهم في خدمة المصلحة الصليبية ، طبقاً لما كانت تقتضيه الظروف . ومن هؤلاء كان الفرسان الاسبتار كما سماهم العرب .

دعوا بذلك الاسم نسبة لمستشفى القديس يوحنـا في اورشليم المؤسس فيها قبـل حملات الصليبية ؛ وعاشوا ، في بادئ الامر ، مقيدين بقانون القديس بندكتوس ، وقد بسط البابا حمايته عليهم . ولهم امتيازات وحقوق يتمتعون بها . لباسُهم الوشاح الاسود المعلم بالصليب الابيض ، وختمُهم فيه صورة مريض عنواناً لغايتهم الاولى . كانوا اولاً مخصَّصين لمعالجة المرضى ، وصاروا من بعـد يحملون السلاح في زمان الشدائد . وان ذلك الزمان حان في اواخر القرن الثاني عشر ، عقب الزلازل التي خرَّبت المدن والقـلاع واوهنت قوى المرقب فجعلتها مطمعاً للمسلمين . هي الهزات الهائلة التي اجمع المؤرخون على ذكرها ولنـا في تاريخ الازمنة للدويهي وصفها المعتبر لمـا بذله المؤرخ الماروني من الهمة في

استقصاء اخبار تلك الايام قال[1]:

« في السنة الف وسبع مئة كانت الزلزلة العظيمة في الشام فلم يسمع مثلها. دامت نحو اربعة اشهر ولم تزل الناس تشاهد الرجفة من شدة الريح الذي انحصر بباطن الارض. وخربت انطاكية وجبلة وحلب وشيزر وحماه وحمص، واما طرابلس فصارت كلها بشبه المقبرة. ما ثبت فيها بيت عامر ولا خلص منها رجل حتى حكمه الموت ».

لم يأتِ اسم المرقب في لائحة الدويهي ولا في سائر المؤرخين العرب. اما الافرنج فذكروه في كتبهم بين الحصن التي خربتها الزلازل. فاشعر آل منسوير بعجزهم عن ترميمه وقد اعتراهم الملل من الجهاد المستديم فحنّوا الى بلادهم وتاقوا اليها، فسلّموا المرقب الفرسان الاسبيتار وهم مستعدون لحمايته.

تحصين المرقب

فاحتلّ الفرسان الاسبيتار قلعة المرقب، وصاروا يعنون بترميم خرابها وتحصينها، وشحنها بالمؤن والذخائر اتقاء هجمات العدو. فتعززت على ايامهم وعمُرت. كان آل منسوير قد بنوا الناحية الشرقية الكبرى في القلعة بجدارها المزدوج، وخطوطها البسيطة، وبروجها المستديرة الصغيرة الاطار المحصّنة بطبقة واحدة.

اما الفرسان الاسبيتار (١١٨٦-١٢٨٥) فبنوا القلعة في نصفها الجنوبي الاصغر، اي المثلث الزوايا المستطيل الواقع بين الجبهة A غرباً، والبرج R شرقاً، والمسند C، ذلك ما تدل عليه هيئة البناية اجمالاً وهي تنم عن اواخر القرن الثاني عشر، واوائل الثالث عشر.

في السنة ١٢١٢م زار المرقب سائح افرنجي اسمه ولدبرد، فوصفه، وافادنا عليه ما لم يأتنا به ياقوت. قال:

« خرجنا من طرطوس فصعدنا الى المرقب وهو قلعة واسعة محصّنة يحيط بها سوران فيهما بروج عديدة. والجبل الذي بنيت عليه القلعة عالٍ فهو حصن

١) مخطوط المكتبة الشرقية

الاسبيتار ، واعظم معقل في تلك البلاد وقد وُضـع ضد المعاقل القرية العديدة التي بناها « شيخ الجبل » وسلطان حلب . فكبح حصن المرقب جماحهما ، والجأهما الى دفع الجزية ، فصارا يبتاعان الامن كل عام بالفي مارك . وخشية ان يهاجم الحصنَ مباغتةً ، لا ينفك الحراس عن حراسته ليل نهار ، وقد يحوي عدداً من من السكان عديداً ، ويطعم فيه الاسبيتار الف رجل عدا العساكر ، وفيه المؤونة لخمس سنوات . »

ومن البديهي ان « الاسبيتار » ، على كثرة اموالهم وغناهم ، لم يستطيعوا ان يقوموا وحدهم بكل ما كانوا يحتاجون اليه من النفقات ، فيذكر تاريخهم ان ملك المجر ، بعد عودته من الحملة على الاراضي المقدسة ، مرّ بالمرقب . فاستقبله الاسبيتار ورحّبوا به فجعل لهم اموالًا ينفقونها في ترميم ما انتقض من الحصن وفي صيانته . فعظم شأن الحصن . ومما يدل على مناعته في ذلك العهد ان صلاح الدين ، بعد ان ظفر في وقعة حطين وفتح القدس وغيرها من مدن المملكة اللاتينية ، طمح ببصره الى المرقب فسار اليه سنة ١١٨٨ لكنه لم يجرأ على مهاجمته فتحول عنه . قال ابن شداد في سيرة صلاح الدين[١] :

« لمّا تكاملت عساكر صلاح الدين رحل ونزل تحت حصن الاكراد فنزل على انطرسوس فوجد الفرنج قد خلوا انطرسوس فسار الى مرقية فوجدهم قد خلوها ايضاً ، فسار تحت المرقب وهو للاسبتار فوجده لا يرام ولا لاحد فيه مطمع » .

وكأني باحد شعراء القائد الكبير سار واياه على السفوح المحيطة بالقلعة ، وقاسها بنظره من اسافلها الى اعاليها ، وشاهد السحب تحف بجوانبها كموج البحر والقلعة سفينتها ، وحاول ان يكتشف مواضع بنيانها على الصخر ، فاذا هي قطعة من الجبل والجبل قطعة منها . نظر الى كهفها وخوافيها فاذا فيها بعشّ النسر ، فقال فيها شعراً سار مثلًا في الناس :[٢]

---

١) طبعة شولتنس وترجمته ، ص ٤٤

٢) عن النويري : نهاية الارب في فنون الادب ، ص ٤٠٥ من الجزء الاول

وقلمة عنق العيوق سافلها ؛ وجاز منطقة الجوزاء عاليها
لا تعرف القطر ، اذ كان الغمام لها ارضاً توطأ قطريه مواشيها
اذا الغمامة لاحت ، خاض ساكنها حياضها قبل ان تهمى عزاليها
يعد من أنجم الافلاك مرقبها ، لو انه كان يجري في مجاريها
على ذرى شامخ وعر ، قد امتلأت كبراً به ، وهو مملوء بها تيها
له عقاب ، عقاب الجو حائمة من دونها ، فهي تخفى في خوافيها

ابتعد صلاح الدين عن قلعة المرقب ولكن لم يحول المسلمون نظرهم عنها . وقد قيّض لهذه البلاد العزيزة ان تكون في موقعها الجغرافي جبهة التقاء الشرق بالغرب ، فان تمتعت بالسلم ساعة ، فالايام تتمخض لها بما ليس في الحسبان.

ففي السنة ١٢٠٤ سيّر السلطان الملك الظاهر الغازي ، صاحب حلب ، حملة على المرقب . فهاجم جنوده السور وخربوا منه برجين ، وكادوا يدخلونه لولا سهم قتل قائدهم فارتدوا خائبين . وكان فرسان الاسبيتار يخرجون من المرقب ، من حين الى حين، فيغزون اللاذقية، ويرجعون. واشعر المسلمون ان لا راحة لهم ما دامت الحصون الكبرى في ايدي الافرنج. نعم ان بيبرس انشأ عهد مهادنات كان القتال يكفّ فيها من الجانبين ، فيتاح لكل فريق معالجة شؤونه وتضميد جراحاته . ولكن كل منهم كان يتمثل بقول الشاعر ويتأهب للقاء عدوه :

ان العدو ، وان ابدى مسالمة ، اذا رأى منك يوماً غرة ، وثبا.

وفي السنة ١٢٧١ سقط حصن الاكراد بيد المسلمين فاشعر فرسان الاسبيتار في المرقب بالخطر المحدق بهم ، والجئوا الى مهادنة ضحوا فيها بنصف املاكهم ، وتعهدوا الّا يزيدوا في بنايات المرقب بنايات غيرها.

ومات السلطان بيبرس، وظهر التتر في نواحي حلب، وهم احلاف الافرنج ، فاغتنم الصليبيون الاسبيتار الفرصة ، فغزوا اراضي المسلمين وروى ابو الفداء خبرهم ، فقال :

« في السنة ٦٨٠ (١٢٨١ - ١٢٨٢م) استأذن سيف الدين بلبان الطباخي . احد مماليك السلطان الملك المنصور، وكان نائب السلطان في حصن الاكراد ، في الاغارة على بلد المرقب لما اعتمده اهله من الفساد عند وصول التتر الى حلب، فاذن له السلطان في ذلك، فجمع بلبان الطباخي المذكور عساكر الحصون

وسار الى المرقب ، فاتفق هروب المسلمين ونزل الفرنج من المرقب وقتلوا واسروا من المسلمين جماعة »[1].

وكان لذلك الفشل تأثيره المؤلم في المسلمين ، وتأهبوا للثأر . واشعر الاسبيتار بالخطر المحدق بهم فصاروا يتحفظون لئلا يفاجئهم السلطان على غفلة منهم .

سقوط المرقب في يد السلطان قلاوون

قد حفظ التاريخ للحروب الصليبية ذكرى وقائع شهيرة من قتال وفتح ، وربما كان دخول المسيحيين بيت المقدس وخروجهم منه وانكسارهم في حطين ، وجهادهم في عسقلون ، مما تثير قصته الاعجاب فتحول النظر عما دونها اهمية ؛ على ان الكفاح الاخير حول المرقب هو من الحوادث الخطيرة المعدودة محطة حاسمة في الحروب الصليبية الجديرة بذكرى التاريخ . لم يحفظ لنا الافرنج الا تفاصيل ضئيلة . ولا عجب ، فان ذكرها يثير اسفهم على فقدان حصن من اعز حصونهم . اما العرب وقد نالوا من فتح المرقب النصر ونتائجه ، فأسهبوا في الكلام على فتحه . ولنا من اقوالهم ما كتبه الشاهد العيان لتلك المواقع ابو الفداء ، وكان في الثانية عشرة من عمره لما حضر حصار المرقب ، وصاحب كتاب تشريف الايام المذكور سابقاً . وقد وصف فيه فتح قلاوون للمرقب وصفاً مفصلاً فعولنا عليه في سرد الحوادث .

مات السلطان بيبرس سنة ١٢٧٧ فخلفه قلاوون وصي ابنه واعلن ذاته سلطاناً سنة ١٢٧٩ ، فحارب المغول واحلافهم الصليبيين وكسرهم في سهول حمص سنة ١٢٨١ ، وتغلب على خصمه صنقر الاشقر صاحب دمشق ، وحمل على المرقب . وكان حصار القلعة يقتضي عدداً عديداً من العساكر . ولكن المثل السائر يقول : « اللطف بالحيلة اجدى للوسيلة » فاوهم قلاوون الصليبيين انه اعرض عن المرقب . وصار يحشد العساكر سراً ليفاجئ اعداءه على غير أهبة منهم .

فجهز المجانيق في دمشق ، وأمر بحملها الى الجهة المجهولة . فسار الرجال ، ولا يعرفون الى اين السير والمصير . وتجهزوا بازوادهم ومقدميهم . وهم يضربون

١) راجع مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية : المؤرخون الشرقيون ١ ص ١٥٨

اخماساً لأسداس ، ويتحدثون في اي موضع يلاقون العدو ، وبعضهم يقول : ان الحملة الى بلاد الروم ، وغيرهم غير ذلك .

وفي غضونها تحركت العساكر من مصر بعددها وعديدها، فكانت زردخانة بكمالها ، وفيها احمال كثيرة من النشاب . فنُرّقت على الامراء والجند . وجُهّزت آلات الحديد والنفط . وأحضر الاختصاصيون من المهندسين والصناع الخبيرين بضرب الحصار واستعمال المجانيق .

ودار عمال قلاون على القلاع المجاورة للمرقب ، وهي في حوزة المسلمين فجردوها من مجانيقها ، من غير رهج ولا اظهار شيء . وحُملت الآلات والمجانيق على الاعناق والرؤوس ، وسار السلطان قلاون .

وبلغوا الى المرقب فنازلوه ، وذلك في يوم الاربعاء العاشر من شهر صفر (١٧ نيسان ١٢٨٥) وللوقت حُملت المجانيق على الاكتاف وطاف البلاء بالحصن من كل مكان ونُصبت المجانيق الفرنجية والقرابغا . ومن جملة ذلك مجانيق فرنجية كبار ثلاثة ، ومجانيق قرابغا ثلاثة ، ومجانيق شيطانية اربعة ، بحيث انها طافت بها من كل مكان واستمرّت ترمي من الحجارة بما يتطاير شرره . . . واخذت النقوب من كل جانب واتفق ان المجانيق الفرنجية التي كانت في ايدي الاسلام كسرت مجانيق الفرنج . وتقدمت الاسلامية الى قريب القلعة فاصلح الافرنج مجانيقهم ورموا على المجانيق الاسلامية فكسروا بعضها . وقُتل تحتها جماعة من المسلمين . . . وانتهى النقب السلطاني وَحُشي بالاحطاب وأوقد في يوم الاربعاء سابع عشر شهر ربيع الاول . فعملت النيران في وسط النقب في البرج الذي في الباشورة[1]

وزحف المسلمون ليتسلقوا الباشورة ، واشتد القتال ، وقصدوا الصعود ، فما تمكنوا . فبطل الزحف، وانفصل هذا النهار ، وسقط البرج وتوهم المسلمون عسر التوصل الى الحصن وباتوا في قلق عظيم لان المجانيق تعطلت والنقوب التي صارت في السور ترمت . . . فلما كان يوم الجمعة . . . خيل الله للفرنج ان النقوب في

---

١) الباشورة : هي البرج المتعالي على مدخل القلعة ، وقد سماه الافرنج « Barbacane »
(van Berchem)

بقية الاسوار قد اصابها ما اصاب النقب السلطاني وان النقوب تخرج الى الخنادق ومنها الى الابراج، وهم لا يشعرون بذلك . فأيقنوا بالهلاك وطلبوا الحديث في الامان والمعاملة بالعفو والاحسان ... فرأى السلطان ان اختيار الغنيمة بهذا الحصن العظيم اولى من التطويل في حصاره ... فأجابهم الى العفو والامان... فسيّروا اكابرهم الى الدهليز، ولم يسألوا غير الامان على النفوس، وان لا يخرج معهم لا مال ولا سلاح متعلق بالحصن خاصةً... ومن له مال يتعلق بنفسه يُنعم عليه به ... وكتبت لهم امانات . وصعدوا ومعهم الامير فخر الدين المقري الحاجب . فحلف الجسطلين وبقية الفرسان وسلموا الحصن جميعَه في ثامن ساعة من نهار الجمعة ثامن عشر شهر ربيع الاول (٢٤ ايار) . ودخله السلطان يوم السبت واجتمع الامراء الاكابر في خدمته . وضرب للحال مشورةً في هدم القلعة او ابقائها فمنهم من اشار بهذا، ومنهم من اشار بهذا، فرأى السلطان ابقاءها لحصانتها ومنعتها وتحصينها وتزيينها ... ورتب بها الف راجل اقجية وجرخية ومقاتلة، واربع مئة من ارباب الصنائع، ورتب بها جماعة من الامراء اصحاب الطبلخانات، وجماعة من البحرية الصالحية والمنصورية مائة نفر، ونقل المنجنيقات التي كانت ترمي عليها فصارت ترمي منها وكذلك الآلات والاخشاب والاحطاب والنشاب والزردخانة والنفط، ومن كل شيء كان في صحبته من اصناف الحصن وآلاته . ورتب لها خاصاً بلاد كفرطاب، ومدينة انطاكية، ومدينة اللاذقية، والمينا، وبلاد المرقب التي كانت خاصاً له وما كان مُقطعاً قبل الفتح . وجملة ما يتحصل منه عند عمارته الف الف درهم . ورتب كلف عمارته ونفقات رجاله على البلاد الى ان تتعمر وتتراجع اهلها . ولما تمت هذه الامور رحل فنزل بالوطاة على مدينة بلنياس[1] .

وما زال ذكر الفتح منقوشاً الى يومنا في برج القلعة الاكبر، وقد رمّمه قلاون واصلحه واليك نصه (عن فان برشم):

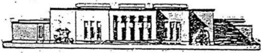
(بسملة) . فتح هذا الحصن المحروس وانشأ هذا البرج المبارك

---

١) فان برشم، ص ٣١٠، اخذاً عن التشريف، ص ١٤٦

مولانا ... سلطان الاسلام والمسلمين. قاتل الكفرة والمشركين مبيد الطغاة والمنافقين سيف الدنيا والدين قلاون الصالحي ابو الفتح قسيم امير المؤمنين. وذلك في شهور سنة اربعة وثمانين وستمائة وذلك بتولي العبد الفقير بلبان المنصوري ·

وها ان الايام طويت ، والسنين مضت ، وانقرض عهد المماليك وعاد الافرنج الى البلاد السورية ، لا كالفاتحين ، ولكن كالاصدقاء المرافقين والخلان المساعدين . لقد زرنا انقاض المرقب ، واحيينا في ذكر تاريخه حياة البطولة · عسى ان نحيا بها نحن ايضاً وهي خير تراث خلف عن سلف ·



في تاريخ الفقه الاسلامي

ثلاث محاضرات

للدكتور يوسف شخت
الاستاذ بجامعة كونيكسبرج ، والاستاذ بالجامعة المصرية

٣

تكلمنا في المحاضرتين السابقتين عن مسائل تتعلق بثلاثة ادوار قديمة من تاريخ الشرع الاسلامي ، وهي العصر الجاهلي — وليسمح لي بادخاله في هذا النطاق الواسع — ، وعصر فقهاء المدينة السبعة ، والعصر الذي تكونت فيه المذاهب الكبرى. فالان، ونحن مستمرون على السير بموجب الترتيب الزمني، ننتهي الى دور تندر مصادره . فمن العجب ان نلاحظ انه لم يبلغنا الا القليل جداً من مؤلفات الزمن بين بدايات المذاهب (التي توجد لها مصادر معاصرة ولو لم تطبع كلها) والنهضة العظيمة التي بانيها علم الفقه في القرن الخامس للهجرة . ونتيجة هذا الدور لا بد ان تكون ذلك التنظيم والتنسيق للفقه الذي نشاهد اكمل مظاهره عند المذاهب الثلاثة في وقت واحد تقريباً — للحنفية على يد القدوري، وللشافعية على يد الغزالي ، وللمالكية على يد سيدي خليل . ويلوح انه ليس مستحيلاً ان نتمكن من اكتشاف وثائق اكثر تبياناً لهذا الدور الغامض ، اذا ما وجدنا ان بعض مؤلفات ابي جعفر الطحاوي الفقيه المصري المشهور وبعض الكتب الاخرى التابعة لذلك العصر قد كانت حليفة البقاء . وقبل ان يتحقق هذا الامل علينا ان نفتش معلوماتنا — من الكتب التي تعالج اختلاف الفقهاء ، وهي كتب هدتنا المصادفة الغريبة الى عدد غير قليل منها يرجع الى القرن الرابع الذي نبحث عنه . وهذا مما يبرر بضع ملاحظات على هذا النوع من كتب الفقه على العموم . فقد ذكرنا في محاضرتنا السابقة اول كتاب وُضع في هذا الفن وهو كتاب الحجج لمحمد بن الحسن الشيباني . فهذا الكتاب يشترك مع بضع رسائل

للشافعي في غرض يحتمل ان احدث هذا الفن كله ، وهو مجادلة المعارضين التي تستلزم بطبيعة الحال ابدا. آرائهم . وأمّا كتاب اختلاف الفقهاء لابن جرير الطبري الذي ذكرناه ايضاً قبلًا فيحلّ فيه محل هذا الغرض شيء آخر، هو المقارنة والموازنة بين اقوال المتقدمين تأسيساً لمذهب المؤلف نفسه ؛ وان هذا الكتاب اولى ان ينسب الى القرن الثالث وان كان مؤلفه قد مات في سنة ثلاثمائة وعشر . وهذان النوعان من كتب الاختلاف ظلّا قائمين الى القرن الرابع ، والى جانبهما قد نشأ نوع آخر ، وهو نوع الكتب التي تُثبت الآراء المتنافسة لغرض علمي بحض . واحياناً نجد المؤلف الواحد قد ألّف في الاختلاف اكثر من كتاب واحد . ومن ذلك ان الطحاوي الذي اسلفنا ذكره الف كتاب شرح معاني الآثار وغرضه الراجح هو المجادلة بحيث انه لا يذكر حتى اسماء خصومه ، ولكن له ايضاً كتاب اختلاف الفقهاء الذي يدلي فيه برأيه الشخصي على اثر عرض الآراء المختلفة والأدلة الدالة عليها . — وقد الف معاصره محمد بن ابراهيم بن منذر النيسابوري كتاب الاختلاف الذي يمثل هذا النوع الثاني ، كما الف ايضاً كتابين من النوع الثالث وهما كتاب الإشراف على مذاهب اهل العلم والكتاب الاوسط في السنن والاجماع والاختلاف ؛ وهذا الاهتمام العلمي المحض قد حمله ايضاً على ان يجمع في كتاب الاجماع المسائل التي لا اختلاف فيها . اما المسائل المختلف فيها ضمن المذهب الحنفي فلدينا الروايات الثلاث لكتاب مختلف الرواية لأبي الليث السمرقندي وهو ايضاً من النوع الثالث العلمي المحض . وقد ذكرت كل تلك الكتب تفصيلًا لانها على العموم غير معروفة الا للقلائل رغم أهميتها ، ولانها لم تطبع بعد الا شرح معاني الآثار للطحاوي . وما اكثر الكتب المؤلفة في هذا الموضوع في زمن متأخر في القرن الخامس وما بعده فلا يمكننا ان نوازي بينها وبين تلك المصادر القديمة ولا ينبغي ان نعتبرها وسيلة يعتمد عليها في الحصول على معلومات جليّة ؛ لان تلك الكتب كثيرًا ما تناقض نفسها وتناقض حقيقة الامر اي اقوال المذاهب المشهورة . وذلك لانها ليست قائمة على معلومات مباشرة بل يتوقف بعضها على بعض . كذلك كتاب الميزان الكبرى للشعراني ليس الا تغييرًا لكتاب رحمة الامة في اختلاف الائمة للدمشقي،

وهذا بدوره مختصر لكتاب الإشراف على مذاهب الاشراف لابن هبيرة الى حدّ ان جميع الاغلاط الموجودة في ذلك الكتاب تتكرر في هذين. وينبغي ان لا نؤاخذ ابن هبيرة بشدّة بهذه الاغلاط لان كتاب الاشراف ليس الا رواية مستقلة لفصل من كتابه الكبير المسمى بالافصاح عن معاني الصحاح وهو شرح مفصل للأحاديث الصحيحة ، ومضمون كتاب الاشراف كله وارد في كتاب الافصاح شرحاً للحديث النبوي المشهور: اختلاف امتي رحمة

ان اخبار المتأخرين من المؤلفين عن مبادئ مذاهبهم واقوال الفقهاء الاقدمين يجب ان تقابَل على العموم بتحفظ شبيه بالتحفظ الذي ينبغي ان تقابل به كتب الاختلاف الاحدث عهداً ، حتى ولو كان اولئك المؤلفون من اصحاب المذهب الذي يتحدثون عن ائمته. فانا نشاهد في المذاهب ابتداء من القرن الخامس افتقاراً للروايات فيما يتعلق باقوال اصحابها الاولين ، وهو مما يجعل دراسة مؤلفاتهم الاصلية أحرى وأوجب. واني لاستمدّ امثلتي من كتاب المخارج في الحيل لمحمد ابن الحسن الشيباني السالف الذكر الذي لا ريب في صحته مقارناً له بشرح السرخسي المتاخر لاقوال محمد بن الحسن المروية في كتاب المبسوط ، فالشيباني يقول في مسألة معينة على وجه الاجمال: « لا آمن ان يبرئه بعض الفقهاء. » ولكن السرخسي يعترف بانه لا علم له بمن قال بهذا القول. والشيباني يقول في التحليل: « اذا قال واحد منهم هذه المقالة [اي لو قالت الزوجة تزوجني فحللني او قال الزوج الاول تزوج هذه المرأة فحللها لي او قال الزوج الثاني اتزوجك فاحللك لزوجك الاول] لم تحلّ للزوج بهذا النكاح الثاني » فالسرخسي في تعليقاته على هذا الكلام يقول ان النكاح الثاني عند الشيباني صحيح لكن التحليل في هذه الظروف لا يحصل ، في حين ان النكاح الثاني عند ابي يوسف فاسد غير صحيح ، ولكن السرخسي في موضع آخر ينسب القول الاول الى ابي يوسف والقول الثاني الى محمد بن الحسن الشيباني. ويقول السرخسي في مسألة اخرى انه يُنسَب الى ابي يوسف قولان متناقضان دون ان يستطاع اعتبار احدهما سابقاً والآخر متأخراً ، فهو مع ذلك يجهد نفسه بالتوفيق بين القولين بوجه محتمل. ويقول السرخسي في الحيل المستعملة لمنع الشفعة: « وعند محمد رحمه الله هو

مكروه اشد الكراهة» وهذا ليس صحيحاً لان الشيباني قد جمع امثال تلك الحيل في باب طويل من كتابه المتقدم ذكره نقرأ فيه كلاماً كهذا: «ارأيت رجلاً يريد ان يشتري داراً ويخاف ان يأخذها جارها بالشفعة فكره ان يمنعه من ذلك فيظلمه وكره ان يعطيه الدار فيدخل عليه ما يكرهه هل عندك في ذلك حيلة؟ قال: نعم الخ». واليكم مسألة تدل على ان رأياً نسب خطأ الى ابي حنيفة قد ظفر بان يصبح مسلماً به في المذهب كله؛ فنقرأ في الفتاوى العالمكيرية: «فاعلم بان الوقف على قول ابي حنيفة رحمه الله لا يصح مضافاً الى ما بعد الموت الا بطريق الوصية، هكذا ذكر الخصاف رحمه الله، ومحفوظنا ان الوقف عند ابي حنيفة رحمه الله صحيح اذا كان مضافاً الى ما بعد الموت او كان موصى به». ومع ذلك فالخبر الذي ذكره الخصاف هو الصحيح لان هذا يظهر من قول الشيباني نفسه في كتاب المخارج في الحيل. وقد امكن ايضاً ان تتسرب اخبار ملفقة الى حواشي كتب الشيباني حتى في زمن قديم جداً. وينبغي لهذا كله ان يتحاشى المرء قبول شهادة كتب احدث عهداً في اقوال الائمة الاقدمين من دون تمحيص. وسبب تلك الاغلاط يرجع قبل كل شيء الى تضاؤل الاهتمام بآراء فقدت اهميتها العملية بعد التدوين النهائي للاحكام في المذاهب، ويرجع ايضاً الى الظن الطبيعي ان تلك الاحكام المدونة هي عين الآراء الشخصية للائمة الاقدمين، ويرجع اخيراً الى استبدال عبارات مثل «في قياس قول ابي حنيفة» بعبارات اخرى مثل «في قول ابي حنيفة» فحسب وهو شيء نراه حتى في الكتب القديمة جداً.

وأخرى المسائل التي سنبحث عنها هي مسألة القانون العرفي في بلاد الاسلام. فبينا ان العلاقة بين الاحكام الشرعية والاحكام العرفية — كما رأينا — وجهة مركزية من تطور الفقه نفسه في الادوار الاقدم عهداً فان هذه العلاقة تصبح بعد ذلك عندما استقر الفقه في صورته النهائية مطلباً مستقلاً. ومن بينات القوة الروحية العظيمة التي استمتعت بها الشريعة انها بلغت حد فرض نفسها على القانون العرفي وان كان هذا القانون قد بلغ من ناحيته او كاد يبلغ حد احتكار العمل القانوني من الوجهة المادية. وهذا بادٍ من ان الناس تحققوا وجود قانون عرفي

يعارض كثيرًا من الاحكام الشرعية ؛ وانهم فسروا هذا من الوجهة التاريخية بان الأجيال المتاخرة لم تبلغ شأن السلف الصالح ، ومن الوجهة الاخلاقية بمبدأ الضرورة التي اغنت عن العمل بالاحكام الشرعية . وعلى هذا النسق الفكري اوجد عالم معاصر فيما يتعلق بالخلافة التي تنافى تاريخها اصلًا عن قواعد الشرع ، قواعد ثانية موجهة الى التطبيق العملي . ولكنها مع ذلك مصنوعة على طراز تلك القواعد الشرعية . فاما ما يتعلق بالفقه فقد رأى اهله ان يوفقوا بينه وبين العرف على قدر المستطاع مما افضى في التطور المتأخر للمذهب المالكي المغربي خصوصًا الى ان يجيزوا عدة تصرفات عرفية لم تكن تعرفها الشريعة من قبل . اما العمل العرفي فكثيرًا ما حاول اصحابه ان يحتفظوا بظاهر المطابقة للشريعة على الأقل ، في حين ان حقائق الامور كانت بعيدة عنها بعدًا شاسعاً . وهكذا اقاموا في حالة اخذ السارق والسكران عند ارتكاب الجريمة حدود السرقة والشرب رأساً معتقدين اعتقادًا صميماً انهم يطبقون الشريعة ولكن دون ان يعنوا بالاجزآت الدقيقة التي فرضتها الشريعة . وهكذا ذهب بعضهم الى حد ذبح محرم يستحق الموت وفاقاً لقواعد ذبح الضحايا . وأنظمة المحتسب وناظر المظالم لا يراد بها الا اجتياز الهوة التي تباعدت شقتها بين منطقة الشريعة ومنطقة الحياة القانونية العرفية ، فلهذا ليست من الشريعة المحضة . ومنذ الزمن القديم كانت حاجة الشريعة محسوسة الى ان يندمج فيها العرف القانوني وان تتيح لمن يهمهم الأمرُ الوسائلَ لعقد تصرفات تقتضيها المادة مع مراعاة احكام الشريعة الالهية مراعاة تامة . وهذا هو الغرض من الحيل الشرعية التي تجمع بين المخارج البسيطة والطرف الفقهية الأريبة . فبهذه الحيل يصل المرء من طريق تصرفات شرعية الى نتائج تطابق الحاجات العملية ولكن لا تسلّم بها قواعد الفقه رأساً ؛ فهي من جهة الفقه مخارج ومواضعات ومن جهة العرف جهود في جعل العرف مقبولًا موافقاً للشرع .

وقد انشأ الحنفية هذا الفن من الفقه وتعهدوه ، ونجد ان ابا يوسف ومحمد ابن الحسن الشيباني على رأس سلسلة طويلة من الفقها . قد الفوا في الحيل ؛ وقد انتهى الينا كتاب محمد بن الحسن كاملًا (وهو المسمى بكتاب المخارج في

الحيل الذي ذكرناه مراراً) ويشتمل على مسائل عديدة نقلها صاحبه من كتاب ابي يوسف. اما المذاهب الاخرى فالحيل فيها اقل شأناً منها عند الحنفية ، حتى ان الشافعي والبخاري الذي كان نفسه شافعياً وغيرهما قد حاربوا الحيل حرباً عواناً. ولم يمنع هذا ان المتأخرين من الشافعية قد احسوا بالحاجة الى تأليف كتب في الحيل على مثال كتب الحنفية وان ينسبوا الى الشافعي نفسه من المخارج العملية ما قد ورد في كتاب محمد بن الحسن الشيباني ، وقد افرد الحنبلي الكبير ابن قيم الجوزية للحيل بحثاً طويلاً ، ورغم مناهضته للمكر ومنعه للفرار من احكام الشريعة وصل في بحثه الى اعتبار كثير من تلك المخارج مشروعاً خاصة في دائرة التصرفات التجارية . واشهر كتاب في هذا الباب هو كتاب الحيل والمخارج المنسوب خطأً الى ابي بكر احمد بن عمرو الخصاف الحنفي. فالواقع ان كتابه الحقيقي ليس الا رواية لكتاب المخارج في الحيل للشيباني عني الخصاف بان يستبعد منها كل اشارة قد تدل على مؤلفه الاصلي . والكتاب الذي اشتهر به هو تأليف عظيم الشان لمؤلف مجهول عاش في حوالى سنة اربعماية ، وهو مصدر فريد في بابه لمعرفة القانون العرفي الذي كان يعمل به في ذلك الزمن في العراق (كما نظن) يكشف لنا عن مستواه العالي واصطلاحاته الراقية . وهذا القانون العرفي يميزه الدور الهام الذي يقوم به الاقرار ، فانه لا سبيل الى الرجوع فيه ولهذا يصلح جيداً لأن يكون مبعثاً للنتائج القانونية المقصودة ؛ كما يميزه دور العدول الامناء الذين يثق بهم المتعاقدان يقومون بالتوسط بينهما في علاقاتهما التعاقدية ، وكما تميزه ايضاً كثرة استعمال الوثائق المكتوبة. فكل هذه الخصائص توجد مجتمعة في كتب « المواضعة » . وهي وثائق يكتبها المتعاقدان وليست لها قيمة قانونية مباشرة لكنها تصلح لاثبات حقيقة الامر فيما بين المتعاقدين من العلاقات التي لا يكشف عنها بل يسترها عادة عدد من التصرفات والاقرارات الموضوعة ؛ وتحفظ هذه الوثائق — اي كتب المواضعة — مع الوثائق الفقهية الحقيقية التي توضح وظيفتها عند عدل امين يثق به المتعاقدان ويعمل هو بمقتضاها فيما بينهما ابتغاء معاملتهما بالعدل والانصاف ومنع اي منها عن ان ينتفع بتصرف او اقرار منفرد لما فيه ضرر لمصلحة الآخر واليكم مثالاً قد يوضح كل هذا

ايضاحاً تاماً: «قلت: رجل له على رجل مال فوكل رجلاً ان يتقاضى هذا المال ويستخرجه على ان له نصفه او ثلثه هل يجوز هذا؟ قال: لا وان وكله على هذا الشرط فاقتضى المال كان له اجرة مثله لا يجاوز بها ما جعل له... قلت: فهل في هذا من حيلة؟ قال: نعم الحيلة في ذلك ان يقر الذي باسم المال لابن هذا الوكيل او لرجل يختاره الوكيل بثلث المال بحق عرفه له ويوكله بقبضه... ثم يوكل الذي باسمه المال والمقر له بالثلث هذا الوكيل باستيفاء المال واستخلاصه فان خرج المال كان للمقرّ له الثلث من ذلك... قلت: فان قال صاحب المال ارأيت ان اقررت بثلث المال لمن يريد الوكيل فاذا وقعت الشهادة على ذلك لم يقم هذا الوكيل باستيفاء المال او احدث حدثاً تبطل به الوكالة فقد صار هذا الرجل شريكاً لي في المال بثلثه فما الحيلة؟ قال: يعدّلون كتاب الاقرار على يدي من يثقون به ويكتبون مواضعة بينهم تكون على يدي العدل يعمل بما فيها ويحملهم عليها فان خرج هذا المال بتقاضي الوكيل وقيامه كان لهذا الرجل الثلث... وان لم يخرج من المال شيء او لم يقم بذلك او احدث حدثاً يطلب الوكالة به لم يكن للرجل المقرّ له بثلث المال شيء ورد العدل منهم الكتب على من يجب ردها عليه ويحكون في المواضعة امرهم كله ليعمل العدل بينهم بذلك».

والمصدر الثاني الرئيسي لمعرفة القانون العرفي في بلاد الاسلام هو الشروط والوثائق. ويوجد الى جانب الدور الهام الذي تؤديه الوثائق المكتوبة في باب الحيل كتبٌ كثيرة في الشروط عند الحنفية كما هي موجودة عند المالكية والشافعية. وجدير بالذكر ان اكثر المؤلفين لكتب الحيل من الحنفية الفوا ايضاً في الشروط وانهم من جانب آخر قد اشتغلوا غالباً بالوصايا والاوقاف ايضاً بصورة تجعل من الممكن ان يستبين المرء في الكتب الحنفية على مرور القرون ميلاً ظاهراً الى البحث عن الموضوعات ذات الاهمية العملية. وتلك الاهمية العملية لكتب الشروط ناتجة عن نفس وجودها. ذلك ان علم الفقه لا يقبل الا الشهادة الشفوية ولا يستلزم وثائق مكتوبة، وذلك العلم وحده لم يفلح في جعل الشروط في ذلك المركز المظلم الذي هي فيه كتب الفقه. وترجع عادة تحرير التصرفات الى العصر الجاهلي، فقد ظهر ان الوثائق في ذلك الزمن لم

تكن محض مذكرات يستعين بها الشهود (كما هي الحال في علم الفقه) بل كانت وثائق مستقلة تنطق بمضمونها لا ريب انها لم تزدوج بالشهادة الشفوية الا في مرحلة ثانوية وقد اقر القرآن هذه الحالة في نوع من العقود في الآية التالية: «يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فان كان الذي عليه الحق سفيهاً او ضعيفاً او لا يستطيع ان يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ولا تسئموا ان تكتبوه صغيراً اوكبيراً الى اجله ذلكم اقسط عند الله واقوم للشهادة وأدنى الا ترتابوا الا ان يكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها واشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم. وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فان امن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن امانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم.» وفي آية اخرى ذكر القرآن الوثائق المكتوبة في اعتاق الرقيق على انها شيء معروف: «والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً.» حتى الاصطلاح الخاص بالاعتاق التعاقدي في مصطلح الفقه، وهو الكتابة، يدل على ان ذلك الاعتاق كان مكتوباً في الغالب على الاقل. والأمر السابق الذكر وهو ان الشروط والوثائق تقوم في تطبيق الشريعة العملي بدور اهم بكثير مما يعينه لها علم الفقه — ذلك الامر لا نفهمه الا ببقاء عادة ثابتة قديمة تقتضي تحرير العقود بالكتابة؛ ومن الراجح ان تلك العادة الموجودة في القانون العرفي العربي الجاهلي كانت قد تأثرت بنفوذ التمدن العراقي، فان العراق مشهور بالدور الهام الذي قامت به الوثائق المكتوبة في حياته القانونية والادبية منذ زمن قديم جداً. اما الوثائق التي تبينها وتوضحها كتب الشروط وكذلك الوثائق الاصلية التي احتفظ بها فهي تتفق

بطبيعة الحال في مضمونها المادي واحكام الشريعة الاسلامية بحسب الظروف والامكان ، وخصائصها البارزة لا تظهر الا في صيغها التي تغيرت تغيرا كبيرا على كر القرون لكنها كانت دائما خاضعة لقواعد فنيّة صارمة . واليكم خاصة جديرة بالذكر تشترك فيها كتب الشروط القديمة باجمعها : قد تلونا آنفا آية قرآنية تنص ان « الذي عليه الحق » يكتب ويمل ؛ واما في كتب الشروط القديمة فالقاعدة الاساسية هي ان يلي الكتاب المدين (او من يقوم مقامه من المتعاقدين) على المدين (او القائم مقامه) وأن يقرّ هذا بصحة الوثيقة ويُشهد على ذلك الشاهدين.

وثمة مصدر ثالث لدراسة القانون العرفي ، وهو التشريع المدني الدنيوي في بلاد الاسلام. ومن الحق ان الشريعة الاسلامية لا تعترف بتشريع مستقل يقوم الى جانبها ، وتلك التشريعات المدنية حتى في اوائل العصور الحديثة لم تزعم اكثر من ان تكون ملحقات بالشريعة في الدائرة التي سمحت لها بها ؛ والواقع ان تلك التشريعات كثيرا ما جاوزت هذه الحدود . وأشهر مثال لمثل تلك التشريعات هو ما يسمى بالقانوننامات العثمانية . فانه بينا كانت اكثرها تتصل بمسائل ادارية قد ردتها الشريعة الى اختصاص الدولة فان اول قانون من هذه القوانين وهو قانوننامه السلطان محمد الفاتح ينظم العقوبات ايضاً ، والاحكام الشرعية في الواقع لم تنفذ في تلك المنطقة احياناً كثيرة. وتفترض هذه القانوننامه ان القصاص يمكن اجراؤه بخلاف الحدود ، وقد وضعت بدلا منها قانوناً جنائياً كاملاً يختلف اصلاً عن احكام الشريعة وان كان يذكرها في مواضع عديدة ويستعير منها بعض القواعد الأساسية . ويمتاز هذا القانون الجنائي بالدور الهام الذي تؤديه الغرامات المالية المختلفة المبالغ تبعاً لثروة المذنب . حتى الزاني بشرط ان يثبت عليه البينة وفاقاً لقواعد الشريعة يعاقب عليه بغرامات مختلفة القدر على حسب كونه متزوجاً او غير متزوج (وتهمنا ملاحظة التعديل الذي ادخل بهذا على فكرة الاحصان في الشريعة) والأرقاء لا يدفعون الا نصف المبلغ المفروض على الأحرار . والسكر ايضاً (وهو يقوم مقام الشرب في الشريعة) لا يعاقب عليه الا بالتعزير ؛ وهو يُترك في الشريعة لتقدير القاضي ،

واما في هذه القانوننامه فالتعزير دائماً ضربات بعصا مقرونة بغرامة مالية. ويطبق نفس هذا التدبير على السرقة ولا يقام الحد الا في سرقة الخيل، ويكون في هذه الحالة إما قطع اليد وإما غرامة باهظة جداً ولا بد من ان هذه الجريمة كانت تعتبر خطيرة بصفة خاصة. وجلي ان هذا القانون الجنائي يراد به ان يحل محل القسم المطابق له من الفقه تماماً لا اكماله فقط، لكنهم على كل حال يتحاشون ان يقولوا بهذا صراحة ويطلقون عبارات من قبيل « السياسة في مقابلة الجنايات» او « بدل السياسة » على ابدال الحدود بالغرامات المالية. وقد اتخذت هذه القانوننامه انموذجاً للقوانين العثمانية التالية لها التي تعالج نفس الموضوع.

وعلاقة اخرى بين الشريعة الاسلامية والتشريع المدني، تخالف كل ما تقدم مخالفة تامة، توجد في الدور الاخير من تاريخ الشرع وهو دور تطوره المعاصر. وحسبنا ان نذكركم بالتعديلات التي أدخلت منذ سنة الف وتسعمائة وعشرين على الاحوال الشخصية في مصر. ولسنا نريد ان نبحث الآن تلك الظاهرة المهمة للحياة القانونية المصرية لان الوقت الذي نملكه قد انتهى. وانما نحن نستشهد بها هنا كدليل على ان العلم الاوربي الذي يشتغل بتاريخ الفقه الاسلامي لا يتناول الازمان الماضية فقط بل يجهد في استيعاب الحياة الحاضرة ايضاً وان موضوعه الواسع ليس ميتاً جامداً بل لا يزال قوياً متطوراً. فان كنت قد وفقت الى اطلاعكم على شيء من الروح العلمية الخالصة المهيمنة على دراساتنا هذه فقد حققت بعض الغرض من هذه الأحاديث كل التحقيق.

الثأر عند العرب

وصفته الدينية

بقلم الاب لامنس اليسوعي

٣

(تتمة)

انّا عرضنا ، في القسم الثاني من مقالنا ، لدور النساء ، نوادب وشواعر ، في تحريض الموتور على الاخذ بثأره . ثم انتقلنا الى موقف الموتور من واتره عند الأثار ، وانتهينا الى اثر هذه العقيدة حتى بُعيد الاسلام . ويهمّنا الآن ان نبحث في الضحية المختارة هدفاً للثأر فنجرب وصفها ، متطرّقين في القسم الاخير الى ذكر تلك المحاولات التي اخذ بها حكماء العرب ، قبيل الاسلام ، وغايتهم تخفيف نتائج الثأر باقرار الدية .

وان لنا في حكاية قيس بن الخطيم ما يدفعنا الى التعمّق في فهم عقيدة الثأر وما كانت تمثل في عقلية البدوي الجاهلي . وقد سردنا تلك الحكاية في القسم الاول من المقال . على ان ما لم نسرده هو كيفية موت الشاعر المذكور . وتفصيل ذلك انه ، بينا كان مارّاً في حيّ بني حارثة في المدينة ، أُصيب بثلاثة اسهم ، فخرّ صريعاً . ولم يُعرف مُطلق الاسهم . الّا انها طارت من أُطم لبني حارثة . فكان على اقرباء قيس واصحابه ان يأخذوا بثأره ، وهم لا يعرفون الواتر . على انهم لم يتراجعوا ، ولم يترددوا لحظة في اختيار الضحية . واذا بهم يهجمون على ابي صعصعة يزيد ، لا لكونه ظهر على شيء من الاضطلاع بالجريمة ، بل لانهم لم يروا سواه كفواً لقتيلهم ، وهو من سادة بني النجّار المنتسبين الى بني حارثة . فقتلوه ، وساروا حتى اتوا قيس ، وهو يحتضر ،

فوضعوا رأس ابي صعصعة امامه على الارض . فطابت نفس قيس ، ومات[1] .

ولا يخفى ما كان قد وقر في اذهان العرب في ما خصّ الضحايا ، وسلامتها من كل عيب او دنس، كي يتقرّب بها المضحّي من مقام الالوهية[2] . وكلما كانت الضحية سالمة صحيحة ، زادت قيمتها ، فرضي الاله عنها . هكذا نظر العرب الى ضحاياهم الدينية ، وهكذا نظروا الى ضحاياهم في سبيل الضيف ، والضيافة مظهر من مظاهر « الدين » القديم كذلك ، فافتخروا بانهم لا يقرون الضيف الا ما كان صالحاً من اللحم :

وانا لنُقري الضيف ، ان جاء طارقاً ، من الشحم ما أمسى صحيحاً مسلَّما [3]

وهكذا نظروا ايضاً الى ضحاياهم في سبيل الثأر . فلا يقوم بثأرهم فينفّس عن الميت ، الا قتلُ السيد ، او اكرم شخص في قبيلة الواتر . « ان الدم الكريم هو الثأر المُنيم ! »[4] كما قالوا ، او كما قال الشيبانيون ، على اثر مقتل بسطام بن قيس : « لا يوفي ببسطام قتيل ! »[5] ذلك ان الثأر ، كان قد اصبح هو ايضاً عملًا دينياً تُفرض فيه الضحية . فكان يُنظر فيه الى سلامة الضحية واهميتها لتزداد قيمةً في نظر المضحّي والمُضحّى له ، وتخفّف به وطأة المصيبة على اسرة القتيل .

لقد كان في مبدأ الثأر ان العقاب يجب ان يتناول الواتر نفسه ، اي قاتل القتيل . على ان الموتور كان يقوم بمعادلة بين الجرم وعقابه ، بين القتيل والضحيّة . فكان الحرّ ، عضو القبيلة ، يُقتل بالحرّ ، والمولى بالمولى . وهو المبدأ الذي

١) اطلب ديوان قيس بن الخطيم ، ص ١–٢

٢) راجع في ذلك : ابو دؤاد : السُنن (طبعة الهند) ٢ : ٢ ؛ الدارمي : السُنن (مخطوطة المكتبة الملكية في القاهرة) ص ٢٨٥ ؛ Gaudefroy-Demombynes, *Le pèlerinage à la Mekke*, Paris, 1923. p. 279

٣) حسان بن ثابت : الديوان ٤ : ٢٠

٤) الجاحظ : الحيوان ٢ : ٢ ٥) الاصمعيات (طبعة Ahlwardt) ٦٣ : ٧ ؛ ابو تمام : الحماسة ، ص ٤٥٦ – ولا يظهر دور بسطام السياسي الا بصعوبة من ذاك الدرس العميق ، الظاهر ، مع ذلك ، على شيء من الابهام والغموض ، الذي نشره :
Erich Bräunlich, *Bisṭām ibn Qais, ein vorislamichen Beduinenfürst und Held*, Leipzig, 1923.

اقرّه القرآن فيما بعد ، فقال : « الحرّ بالحرّ ، والعبد بالعبد ، والانثى بالانثى »[1].
والذي دلّ عليـه حادثة حُصين بن الحمام السهمي ، المرويّة في الاغاني ،
وتفصيلها انه كان له جار يهودي فقتله ابو جوشن ، احد جيران بني صُرمة ؛
فجاء الخبر حصيناً ، وكان حُصين من اعقل اهل زمانه ، فلم يتردّد بان يجيب
المخبر بقوله : « فاقتلوا اليهودي في جوار بني صُرمة » [2] — جار يهودي بجار
يهودي ! — فاتوا جهينة بن ابي حمل ، فقتلوه . فشدّ بنو صرمة على ثلاثة من
حميس بن عامر ، جيران بني سهم ، فقتلوهم . فقـال حُصين : « اقتلوا من
جيرانهم ، بني سلامان ثلاثة . » ففعلوا[2].

وهكذا لم يكن الانتقام ليقف عند منطوق العدالة البدوية الماثلة بالتعبير
الموجز : « رجل برجل » ![3]

على ان القرآن ، وهو اقرب الى الانسانية من ممثلي تلك العدالة ، صرّح
عالياً بانه « لا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى »[4]. ولكن كان من الصعب ان يسمع
له اولئك البدو ، وان يعملوا باحكامه . وهم ، فوق ما كانوا يعتبرون من
التبعة الشاملة الملقاة على عاتق اسرة القاتل كلها بل على عاتق قبيلته جمعاء ،
كانوا يعتبرون حالةً اخرى لا تدخل في مجال قياساتنا ، وعنصراً صعب التحديد ،
الا وهو مركز القتيل من المجتمع ولا يخفى ما في تقدير هـذا المركز من
الافتئات ، والاستبداد بالرأي ، والاتكال على تقدير البدوي الشخصي ، وهو
ميّال بالفطرة الى التأثر بالهوى ، مُتشبّع بما وقر في ذهنه من سموّ قدره ، واهمّية
مقامه الاجتماعي . ولنا في عدة حوادث ادلة ساطعة على ما قدّمنا ، من ذلك
حادثة جُويّ المُزني ، وقد اصابه الخزرج في قتالهم للاوس ، فلما احسّ بالموت ،
رفع رأسه ، وقال : « اعطي الله عهداً ليُقتلنّ منكم خمسون ليس فيهم اعور

١) القرآن ٢ [البقرة] ١٧٣
٢) الاغاني ١٣ : ١٢٤
٣) ابن هشام : السيرة ، ص ٤٢١ ، ٦٤١
٤) القرآن ٦ [الانعام] ١٦٤ ؛ ١٧ [الاسرى] ١٦ ؛ ٣٥ [الملائكة] ١٩ ؛ ٣٩ [الزمر]
٥٣ [النجم] ٣٩ .

ولا اعرج»[1] وهكذا قدر ذاك البدوي العامي نفسه بخمسين من افاضل الرجال ! غير مكتفٍ بالشريعة السائرة : رجل برجل ! فكيف لو كان من السادة الكبار ! كالزبير بن العوّام مثلاً ، حواريّ محمد ، الذي قُتل غدرًا في يوم الجمل. فلم يكن اهله ليرضوا برأس القاتل ، وهو من عامة الناس[2] . وعلى هذا القياس ، لم يكن اهل القتيل ليرضوا برأس القاتل ، اذا كان من اولئك « الخلعاء » المنبوذين الذين « تخلعهم » قبيلتهم لتتخلّص من تبعة اعمالهم ، وتصرّح بانها لا تأخذ بثأرهم اذا قُتلوا[3] . فيقول الموتورون ، اذ ذاك ، وحقّ لهم القول ، ان لا نسبة بين فقيدهم وقاتله « الخليع » .

على ان البدويّ الموتور ، حتى في غير هذه الاحوال الخاصة ، يدّعي دائمًا ان لا نسبة بين فقيده والواتر . فالفقيد الكريم ، وكل فقيد كريم في نظر اهله بل هو « خير الناس ! »[4] افضل من القاتل . واذًا على الموتور ان يرمي افضل اهل الواتر ، اي سيد القوم . عليه ان يرمي بقتيله « خير الناس » او « افضل الناس »[5] كما يقول ، ولا يعني بخيرهم اعظمهم فضائل اخلاقية ، بل ارقاهم مركزًا في المجتمع، وهذا المركز وحده يهمّه في ادراك ثأره. فهو يضرب « كبش القوم »[6] ؛ ذاك الذي يكون « اعزّ فقدًا وهالكًا »[7] . وهو ما دام لا يرتاح الى انه رمى افضل القوم واشرفهم ، يظلّ قلقًا مضطربًا ، ولو قتل بقتيله سيّدَين بدل السيّد . فان دمَهما لا يفي بدم فقيده ، كما يقول:

---

١) ابو تمام : الحماسة ، ص ٤٤١

٢) الاغاني ١٦ : ١٢٢

٣) الاغاني ١٩ : ٧٦

٤) ابن عساكر : الكتاب المذكور ٥ : ٨٠ ؛ وان يكن ظالمًا فهو «خير الناس». اطلب كتابنا : *Le Berceau de l'Islam* I, 127

٥) هي التعابير التي يردّدها الشعراء الثائرون حتى تصبح من القوالب الانشائية – اطلب الاغاني ١٩ : ١٢٩ ؛ ٢١ : ٢٧٦ ؛ البلاذري : فتوح البلدان ، ٤١٢ ؛ عبيد بن الابرص : الديوان (طبعة Lyall) ١٧ : ٩

٦) الاغاني ١٣ : ١٤٢ ؛ ١٦ : ١٢٩ ؛ السمهودي : وفاء الوفاء ٢ : ٢٧٢ .

٧) عبيد بن الابرص : الديوان ١٧ : ٧

ونحن قتلنا سيّدَهم بشيخنا سويد ، فما كان وفاءً به دما (١

والسيد ، في حياة القفر ، يمثّل قبيلته ؛ فلم يكن لـه مندوحة عن ان يتحمّل شيئاً من مساوئ افرادها . على ان العادة التي شاءت ان تحمّله دم من يقتلهم ذووه كان من شأنهـا ان تدفع البدو الى التلوّن والمبالغة في المطالبة بثأرهم . حتى اذا كان القتيل ذا خطر في المجتمع ، وكل قتيل ذو خطر في نظر ذويه ، كان الموتور لا يكتفي بقتل سيّد واحد ، بل يجمع بين المركز الاجتماعي والعدد ، فيرمي الى قتل ثلاثة سادة بسيّده[٢] ، « فيدرك ثأره ويزيد » ، على قول الافوه ، احد حكماء العرب[٣] . واذا جرى البدوي هذا المجرى ، فلا حدّ ولا تحفّظ ، ولا اعتبار يوقفه عند عدد معلوم . بل هناك تسعة قتلى بقتيل واحد بعض الاعيان ، وهناك هجوم على قبيلة الواتر صميمها ومواليها[٤] . وكلّما زاد عدد الضحايا عظمت قيمة السيد الفقيد . وقد لا يكتفي الثائر بكل ما تقدّم ، اذا لم يضرب سيـد القوم فيقتله[٥] : فيظلّ نشيد فخره خافتاً اذا لم يختمه بنغمة الثأر المتواترة : « قتلتُ سيدكم ! »[٦] . وقد اصبحت هـذه النغمة كتعبير طقسي يلفظه القاتل ، على اثر قيامه بذاك الواجب . حتى اننا نسمعها بعد الاسلام ، دالّةً على تأصل تلك العادة في البدو ، وفي الشعر البدوي وهو اجلى صورة للعادات القديمة . وها ان قاتل حفيد النبي ، الحسين بن علي بن ابي طالب ، في كربلاء ، يصيح مفتخراً :

قتلتُ خيرَ النـاس أمّاً وأبـا ؛ وخيرَهم ، اذ يُنسبون ، نسبا (٧

١) الاغاني ١٦ : ١١٦ ؛ وراجع الاغاني ١٥ : ٧٥–٧٦ ؛ ١٦ : ٢٢، ٥٢–٥٤ ؛ البحتري : حماسة : الباب الثالث عشر .

٢) الواقدي (طبعة Kremer) ٢٢

٣) الاغاني ١١ : ٤١ ؛ الاصمعيات ٣٨ : ٢٢

٤) لبيد : ديوانه (طبعة Huber) ٤٨ : ٢

٥) ابن هشام : السيرة ، ص ٤٣١

٦) البحتري : الحماسة ، عدد ١٤٨ : ٥ ؛ حسّان بن ثابت : ديوانه ١١ : ١٦

٧) ابن الاثير : أُسد الغابة ٢ : ٢١

هذا ما يُستنتج من اقوال الثائرين الشعرية الفخرية . اما الحقيقة فلم تكن دائماً لتوافق هذه الاقوال[١] . حتى ان البدو انفسهم عرفوا «كذب الباكيات»[٢] ومبالغة الشعر الثاري ايضاً . كان من همّ الثائر ان يزيد عدد ضحاياه ويضخّم اهميتهم في المجتمع[٣] ، فيصبح كل قتيل سيدًا كريماً ، بل يصبح القتيل عدة قتلى ، فتزداد اهمية الفقيد المطالب بثأره ، وتزداد شجاعة الثائر كذلك. وهذا دريد بن الصمّة لا يرضى ، في ثأر اخيه عبدالله ، الا بان يقتل «خيرَ لداته»[٤] وهذا حسان بن ثابت يقتل كل السادة ، وكل الاشراف[٥] ، دون تمييز . بينما غيرهما من الشعراء الثائرين يهتمون بالتدقيق فيعدّون ضحاياهم ، ويذكرون مركزهم . فهم ثلاثة ، او ستة ، كما في قول الاجدع بن مالك :

ولقد قتلنا من بنيك ثلاثةً ؛ فلتترعنّ ، وانتَ غير مطاعِ (٦

او قول العباس بن مرداس :

قتلنا بـه في ملتقى الخيل خمسةً وقاتلَه زدنا ، مع الليل ، سادسا (٧

بل هم سبعة من خيرة القوم :

اصبنا بـه من خيرة القوم سبعةً كراماً ؛ ولم نأكل به حشفَ النخلِ (٨

حياة البدوي ثمينة في نظر اهلـه ، ودمه غالٍ لا يُعدل به دم رجل آخر ايًا كان . فبئس الآية القديمة : « رجل برجل » ! وبئس ما فيها من مساواة لا يرضاها السريّ من البدو ، وكأنهم سراة ! وهكذا أُبدلت بتلك الآية آية

١) راجع في « اسراف الشعراء وافراطهم » اقوال الجاحظ : كتاب الحيوان ٦ : ١٤١–١٤٢ ، وكتابنا *Tâif*, p. 145-146

٢) راجع القسم الثاني من هذا المقال : المشرق ، ص ٤٣٠–٤٣١

٣) عبيد بن الابرص : ديوانه ١٧ : ٧–١٣ ؛ المفضّل : الفاخر (طبعة Storey) ص ٢٢٤

٤) شيخو : شعراء النصرانية ، ٧٦١

٥) حسان بن ثابت : ديوانه ١١ : ١٥–١٨

٦) في الاصمعيات ٤٥ : ٦

٧) الاصمعيات ٣٨ : ٢٤

٨) الاغاني ١٦ : ٥٨ ؛ الجاحظ : الكتاب المذكور ١٥٢ ؛ وراجع Nöldeke, *Beitr. Zur alten Poesie*, p. 149

جديدة فقيل: « سيد بسيد »، و« كريم بكريم »[١]. على انها لم تحل المشكل لان كل البدو اشراف كرام، كما قدمنا. واذا فقد ظل الموتور يرمي رأس القوم، فينتصر من سيد قبيلة واتره، وسواء أأصاب الواتر المذكور ام لم يصبه. بل قد لا يفتش عن شخص الواتر، فيضرب لا يبالي من يصيب على شرط ان يصيب رجلاً من السادة الاشراف:

وشريف لشريف ماجد لا نباليه، لدى وقع الاسل![٢]

وعلى هذا فاننا نرى الرثاء المتوج بالثأر يشاطر الفخر، بل يزيده، افراطاً ومبالغة، مستنداً في ذلك، فوق العواطف الحالية، الى ما وقر في ذهنه من اساليب الشعر القديم وكلها تأخذ بالقسط الوافر من المبالغات. ولا يخفى ما في الشعر العربي من تأثير الاسلوب والاخذ بالقوالب المتوارثة[٣]. حتى لا يتمكن البدوي الشاعر من ان يتخلص من حكم تلك الحكم والامثلة الموجزة الجامعة التي لخصت، في الشعر القديم، عقائد البدو في مناحي الدين والاخلاق والاجتماع، فقامت لهم مقام الكتب المنزلة متصفة بصفة تقرب من التقديس. اذا عرفنا ذلك، ادركنا بعض ما أهاب بمحمد فدفعه الى شن تلك الغارة على الشعراء، راغباً في ان يحل القرآن محل تلك الاخلاقيات والحكميات الجاهلية. بيد انه لم ينجح الا بجهد وصعوبة. نتحقق ذلك من اقوال المؤرخين المسلمين الذين يذكرون ان البدو ظلوا، حتى العصر الاموي، يخلطون بين الآيات القرآنية وحكم شعرائهم وامثلة حكمائهم الاقدمين؛ بل ان هذا الخلط كان يتجاوز جهلة البدو الى خطباء المسلمين انفسهم، اثناء خطبتهم الطقسية، من على منابر الجوامع[٤].

ولا يخفى ان هذا الشعر القديم مشحون بعواطف الثأر، وما تجره من فخر

---

١) ابو تمام: الحماسة، ص ٢٨٠؛ الاعشى في كتاب الاضداد (طبعة صالحاني – هفنر) ص ٨٥

٢) حسان بن ثابت: الديوان ١١: ١٧

٣) راجع في ذلك Nöldeke, *Fünf Mo'allaqât*, I, 3-5

٤) ابن عساكر: الكتاب المذكور ٥: ٨٢؛ الاغاني ١٦: ١١٢

وحماسة وتحريض ، ملآن بمآتي الموتور قبل ادراك ثأره وبعده . يردّد الموتور ذلك فيزداد حزنه حتى اليأس ، ويندفع في سبيل التضحية حتى لا يرضى بالثلاثة القتلى ، ولا بالستة ، ولا بالقسمة ، وان زاد عليهم ستة من السادة الكرام[1] وهو يسير ، في كل ذلك ، على اثر الشعراء الاقدمين متخذًا قوالبهم الفخرية ، منتحلًا عواطفهم نفسها ، فيصبح ، ولا فرق بينه وبينهم ، بفضل ما غذّى به مخيّلته من مفاخرهم القديمة فسحر لبّه ، وجعله لا يكاد يميّز بين اقواله واقوالهم ، ولا بين مآتيه ومآتيهم . فيرى افضل مظاهر الحياة الفخر بالبطش والشجاعة ، بل غاية الحياة نفسها غزوة مستديمة :

ليدرك ثأرًا ، او ليدرك مَنّنا[2]

واذا قُتل احد انسبائه في غزوة بسيطة ، فلا يرى الا حشد جيشه من « خيّالة ومشاة »[3] في سبيل الثأر ، وهو في الحقيقة لا يسخو بتعريض جواده للخطر ، هذا اذا كان له جواد ![4] على ان الشعر غير الحقيقة ، الشعر المحفوظ المردَّد في ذاكرته ، والذي يهيب به الى المعارضة ، ومن شروطها المبالغة في كل شيء . وهكذا نراه يقتل ، شعرًا ، اهل بيتٍ « على دم واحد »[5] اي ليثأر برجل واحد . بل هو يلقي تبعة القتل على القبيلة كلها ، وقد يهدّد بافناء قبيلتين كاملتين : خزاعة وبكر ، مثلًا[6] ؛ وهل من حاجة الى القول ان خزاعة وبكرًا لم ينلهما الفناء !

وهكذا كان موقف المهلهل ، على اثر مقتل اخيه كليب ، عندما صرّح بانه سيفني حيّي-قيس وذهل ، بل اراد ان يفني آل بكر عن آخرهم ، فقضى

---

١) الاصمعيات ٣٨:٢٤ ؛ ٤٥:٦ ...

٢) الاصمعيات ٩ : ٢

٣) وهو قول دريد :

تكرّ عليهم رجلتي وفوارسي ، واكره فيهم صعدتي ، غير ناكب
(الاصمعيات ٨:٥)

٤) راجع كتابنا : *Tāif*, p. 147

٥) حاتم الطائي : الديوان ، ص ١٢

٦) ديوان الهُذليّين ٢٠٠،٧ المفضّل : الفاخر ، ٢٥٢

اربعين سنة ، على قول الرواة ، في طلب ثأره . وهو مطلب يشبه ما طلبه صخر في ثأر اخيه معاوية اذ شهر حرب الفناء على آل مُرّة ، وعلى بني غطفان[1] . حتى اذا اصاب منهم مَن اصاب ، عدّ القتلى وصاح بانه غير راضٍ او يفني القبيلة ، او يبيدها فردًا فردًا .

على اننا نتساءل : هل كان صخر مؤمناً بما يقول ؟ وهل كان يتقيّد فعلًا بواجبات الثأر ؟ وقد رأينا مضطرّين الى الجواب بانه لا هو ، ولا سابقه المهلهل[2] ، ولا رجال قريش بعد انكسارهم في بدر ، ظلّوا محافظين على التحريمات الشاقة التي كانت تفرضها عادة الثأر الدينية . وهذا ما يدفعنا الى القول بان تلك الطقسيات القديمة ، لم يبقَ منها قبيل الهجرة الا القليل الرامز الى اصلها . حتى انها لم تكن تحول في شيء دون متابعة الحياة العادية في مكة . وهذا صخر لا نراه ينفصل عن اسرته ، كما اننا نرى المهلهل يتزوّج عدّة مرّات اثناء طلبه بثأر اخيه .

اما في ما خصّ عدد القتلى ، فيحقّ لنا ان نحتاط الاحتياط نفسه . وهذا صاحب الاغاني يقرّ بصراحة ان قتلى قبيلتي بكر وتغلب ، طول حرب البسوس التي دامت اربعين سنة ، لم يتجاوز العشرة . بيد ان هذا العدد لم يكن ليرضي الشعراء ، كما لا يخفى . ولا تتنزّل مخيلتهم باقلّ من عشرين الى خمسين قتيلًا[3] واحياناً كان القتيل نفسه يفرض هذا العدد ، قبل وفاته ، كما قدّمنا[4] . وقد يُضاعف عدد الخمسين ، فيبلغ القتلى مائة في ثأر رجل واحد . كما في حادثتي امرئ القيس والشنفرى الشهيرتين[5] . وهناك غيرهما من الحوادث تبلغ فيها القتلى مائة[6] وتزيد ، فيرى حسان ان مائة قتيل لا تكفي في ثأر فقيده[7] .

1) De Coppier, *op. cit.*, p. 17
2) الاصمعيات ٦٩ : ٤
3) ابو تمام : الحماسة ٤٤٣ ؛ المفضّل : الفاخر ٢٢٠
4) ابو تمام : الحماسة ٤٥١
5) الاغاني ٨ : ٦٧–٦٨ ؛ ٩ : ١٥٨ ؛ المفضّليات (Lyall) ١٩٦
6) البحتري : الحماسة ١٥٤
7) حسان بن ثابت : الديوان ٢٠٣ : ٦

ويبلغ بها غيره سبعمائة[١]، بل تبلغ احياناً الف قتيل في ثأر امير[٢]. ولا يخفى ما في كل هذا من فخر وتبجّح أصيلين في العنصر العربي.

ومما يجب ذكره ان الموتور كان شديد الايمان بان الله لا يميته الا بعد ان يدرك ثأره ويقوم بنذره، فيزيح عن صدره «همّاً كأنه جبل»[٣]. والله حقيق بان يسهّل عليه هذه المهمة، فيكلم الجرح الذي احدثه في نفسه مقتل قريبه. عند ذاك يستريح الموتور، فيتخلّص كالغزال الناشط من حبائله[٤]. ولم تكن هذه الحبائل الا تلك التحريمات المفروضة على الموتور في سبيل ادراك وِتْره، والتي عدّدناها سابقاً. ولا نجاة منها، في الاصل، الا بالثأر؛ وهو الذي يولي الحياة للموتور «الميت»، على قول مالك بن عمرو:

فليجدوا مثل ما وجدت، فاني كنت ميتاً قد مسّني جَزَعُ! (٥)

ويعيده الى معيشة القبيلة يشرب، ويلهو[٦]، ويقول الشعر، مردّداً:

واصبحت قد حُلّت يميني، وادركت بنو ثُعَل تبلي، وراجعني شعري! (٧)

وكان، قبل ذلك، قد ترك حتى قول الشعر في هجاء اعدائه. وبالتالي فقد ترك النسيب وما اليه مما قصده عمرو بن مالك بقوله:

لا اسمع اللهو في الحديث (٨ ...

كما ترك الفخر باعماله وباعمال قبيلته. وكلها تحريمات مفروضة على الحجّاج

---

١) الاغاني ٩: ١٥٦؛ ٢١: ١٤٢-١٤٣؛ المطهّر المقدسي (Huart) ٥: ٢٠١؛ وراجع Jacob, *Altbeduinenleben*, p. 145

٢) الاغاني ١٩: ٨٥

٣) البحتري: الحماسة ١٠٣: ١

٤) الجاحظ: الحيوان ٦: ١٤٣

٥) البحتري: الحماسة ١٦٨: ٢

٦) راجع الشواهد التي اوردناها في الصفحة ٧ و ٨ من القسم الاول من هذا البحث، مع اصلاح البيت الاخير من الصفحة ٧ بما يلي:

واحلّت لي ماويّةَ القتلُ

اي ان ادراك ثأره احلّ له امرأته ماوية.

٧) ابو تمام: الحماسة، ٢٠١

٨) البحتري: الحماسة ١٦٨: ٢

ايضاً[١] ، مما يدل على صفتها الدينية . فاذا قام بثأره عاد الى كل ما تقدّم ، فدخل في « الحلّ » ،

غيرَ مستحقب إثماً من الله ، ولا واغلِ ! (٢

هذا ما يظهر من الشعر العربي في الثأر ، وهو صورة تلك المؤسسة القديمة في « دين » البدو .

اما التعبير « اثم من الله » فليس من السهل الوصول الى معناه الحقيقي . هل يقصد به الشاعر جناية على الله او امام الله ؟ ام هل ينبغي ان نرى فيه معنى الخطيئة ؟ هذا ما رمى اليه ولهوسن[٣] . على ان خلة استعمال هذا التعبير تفسح مجالاً للتأمل . ونحن لا نراه الا في شعر امرئ القيس هذا ، ثم في اسطورة تأبط شراً اذ تلومه امرأته لتركه احد اقربائه وحيداً امام عدوه[٤] . ثم ان ما يخافه الموتور خاصةً هو « وَجْدُ الاله »[٥] ، اذا اهمل القيام بواحدة من التحريمات التي يفرضها عليه واجب الثأر . اما اذا قام بكل ذلك فادرك ثأره فانه يلقى الله ، ولا اثم عليه ولا حرج .

وقد قدّمنا ان البدوي ، في ادراك ثأره ، يستحلّ كل الطرق حتى ما يحرّمه منها دينه ، كما يظهر في حادثة رواها ابن هشام عن بني الديل من بكر ، وكان لهم ثارات في بني خُزاعة . فخرج نوفل بن معاوية الديلي ، وهو يومئذ قائدهم ، حتى بيّت خزاعة ، وهم على ماء لهم اسمه الوَتير . فاصابوا منهم رجلاً ، وتابعوا القتال . فتراجع بنو خُزاعة مستفيدين من الظلام ، ولجأوا الى حرم مكة مستأمنين . فلحقهم بنو الديل الى حدود الحرم ، فتوقفوا هيبةً . وارادهم قائدهم على متابعة الهجوم . فصاحوا به : « يا نوفل ، انّا قد دخلنا الحرم ، الهك ! الهك ! » فقال كلمةً عظيمةً ، على ما روى ابن هشام ، وزاد : « لا اله له اليوم . يا بني بكر ، اصيبوا ثأركم . فلعمري انكم تسرقون في

١) قابل بما ورد في القرآن ٢ [البقرة] ١٦٢

٢) البيت لامرئ القيس في حماسة البحتري ١٥٢ : ٢

٣) Wellhausen, *Reste*, p. 224

٤) الاغاني ١٨ : ٢١٢

٥) اوس بن حجر : ديوانه ٥ : ٢

الحرم[1] . افلا تصيبون ثأركم فيه . »[2]

وان هذا المثل وغيره من الامثلة التي عددناها في اقسام المقال تدلنا ، في ما تدلّ عليه، على ان العرب قبيل الهجرة كانوا قد رموا الى التحرّر شيئاً من اكثر تلك التحريمات: تحريمات الثأر ، وتحريمات غيره من مؤسساتهم الدينية القديمة. اما ما بقي من جوهر الثأر ، اي حقّ الموتور بدم الواتر فقد ظلّ مقرّراً ، على ما بذله الاسلام ، عن طريق الخلافة والجماعة ، من جهود كانت ترمي الى دعوة صاحب الحقّ الى المحكمة المنظّمة هذه المادّة. وقد اظهر البدو ، كلما عرضت لهم الفرصة ، بانهم ينكرون هـذا التدخل في شؤونهم الخاصة ، معلنين ان لجماعة البدو وحدها — سواء اكانت حياً او قبيلة — الحق المطلق بالمطالبة بدم احد اعضائها ، وانه لا يمكنها ان تتنازل عن هذا الحق. ولنا في بعض الحوادث المهمة ، الجارية بعد الاسلام ، خير شاهد على هذه العقلية في اولئك البدو ، ولم يصبغهم الاسلام الا صبغة سطحية:

كان مصعب بن الزبير ، والي العراق ، قد سمح بقتل احد شذّاذ البدو ، فقُتل . فاخذ اخوه ابن ظبيان يُعدّ العدّة لادراك ثأره ، حتى اشترك في مقتل مصعب الثائر على الخليفة عبد الملك . على ان القاتل رفض مكافأة عبد الملك كي لا ينقص شيئاً من قيمة عمله في ادراك ثأره[3] . وهذا مثل آخر في مقتل المختار بن ابي عُبيد الثقفي ، وكان قـد ثار على الخلافة بل على الاسلام الصحيح ، فقتله مصعب بن الزبير نفسه . فهللت الجماعة الاسلامية بكاملها ، ولم يُستثنَ منها الثقفيون انفسهم قوم المختار ، وامناء الدولة الاموية[4] . بيد انهم ، على الرغم من اخلاصهم الديني والوطني للدولة الحاكمة ، اعتبروا انفسهم مدفوعين الى المطالبة بثأر المختار ، ولاسيما اذ رأوا ان مضعاً امر بتسيير يدي

---

١) كان البدو في جوار مكة يسمون « سُرّاق الحجيج » ، وهو اسم طالما استحقوه ، ولم يكونوا يتحجّون على من يدعوهم به .

٢) ابن هشام : سيرة الرسول ، ٨٠٢ .

٣) الطبري : تاريخه ٢ : ٨٠٦ .

٤) راجع كتابنا : *Tâif*, p. 188-199

الثائر على باب جامع الكوفة[١] ؛ ولم يعتبروا ان هذا الثقفي قد سقط قتيلاً في ساحة الحرب في ثورته على الخلافة[٢] ، انما ما يهمهم قبل كل شيء هو ان دمه ذهب هدراً . وعليه ، فقد تطوع احد افرادهم للاثآر له من مصعب . حتى اذا حميت المعركة ، اقترب من مصعب ، وقبل ان يضربه ، صاح الصيحة التقليدية : « يا لثارات المختار ! »[٣] دالاً بذلك انه يقوم بواجبه كرجل ثقفي لا كجندي اموي . وهذه الفكرة نفسها هي التي قادت الحجاج ، والي خلفاء دمشق ، واداتهم التنفيذية العمياء ، الذي قضى حياته الادارية الطويلة مكافحاً عقلية البدو الجاهلية[٤] . هذا الرجل نفسه ، عندما دخل الكوفة ، والياً عليها ، كان من اول مأتيه انه أمر بان يرفع عن باب الجامع ذاك الاثر الدامي الماثل شاهداً على ثورة المختار . وما ذاك الا لان المختار كان من قبيلته من ثقيف . ونحن ، لو سألنا الحجاج ، وقد خلا الى نفسه فتخلص من واجبات الولاية ، رأيه في المختار ، لاجاب : « لله دره رجلاً وديناً ! »[٥] ولا شك في انه يقصد « بالدين » ما كان يفهمه بهذه اللفظة عرب الجاهلية . ولا يزال البدو الى يومنا هذا ، يصيحون : « النار ولا نترك الثار » !

***

لنعد الآن الى قُبيل الهجرة . فاننا نرى حركة مباركة ترمي الى وضع حدّ لما تجرّه عقيدة الثأر من تعديات ظالمة . وقد اخذ بعض المفكرين يتصورون حلاً قد يكون افضل من تلافي اهراق الدم بالدم . ولم يكن بدّ ، في هذه الحركة المباركة ، من الاتجاه الى الشعر ؛ والشعراء في طليعة المفكرين ، اذ

---

١) الطبري : تاريخه ٢ : ٧٤١ ؛ واطلب Van Gelder, *Mohtār de valsche profeet*, p. 134

٢) وهناك حوادث تدلّ على ان شريعة الثأر تُطبّق حتى في المعارك الحربية ، راجع ابن هشام : السيرة ، ٥٧٦ ، وقابل بحادثة يوآب ، وكيف اغتال أبنير لانه قتل عسائيل اخاه « يجمون في الحرب » (سفر الملوك الثاني ٣ : ٢٦-٣١)

٣) ابن دريد : الاشتقاق ١٨٥ ؛ الطبري : تاريخه ٢ : ٨٠٦

٤) راجع ...*Tāïf*, p. 190 etc

٥) الطبري : تاريخه ٢ : ٥٢٥

ذاك . وهذا زهير بن ابي سلمى ، الشيخ الحكيم ، يقرّظ التحكيم ، ويمدح المصلحين بين القبائل المتعادية ، عارضاً ان « تُعفّى الكلوم » لا « بكلوم » جديدة ، بل بالنياق يُعطيها ، لا القاتل او قومه ، بل حَكَمٌ يكون غريباً عن موضوع الخلاف ، فهو « ليس بمجرم » :

تُعفّى الكلومُ بالمئين ، فاصبحت يُنجّمها مَن ليس فيها بمجرمِ (١

وهكذا عمل زهير وزملاؤه من الشعراء على تقريب التحكيم من عقلية البدو شيئاً فشيئاً ، فاصبح هؤلاء لا يستبعدون ، او لا يرون مستحيلاً ، ان يُحلّ مشكل الدم بغير اهراق الدم . وقد سارت هذه الفكرة ، معبّراً عنها باسلوب لطيف يسنده مدح السادة الكرام الذين كانوا يقبلون بهذا الشرف العالي، شرف التحكيم، فيدفعون ثمنه غالياً ، وينالون عليه ثناء الشعراء الخالد ، من شاعر الى شاعر حتى دخلت التشريع القرآني. وكان السادة الكرام يتنافسون في الحصول على ذاك الشرف ، فيعملون على اقرار الطمأنينة شأنَ « فاعلي السلام »[٢] ؛ وهم بقبولهم ان يحلّوا محلّ « صاحب الدم » متعهدين بدفع الدية البالغة مائة ناقة ، على اقل تقدير ، كانوا يعملون على نزع وليّ الثأر من تأثير النوادب المحرّضات . ومما يدلّ على ما لاقاه تعبير زهير من اثر صالح ان كثيراً من السادة كانوا يطمحون الى لقب « حامل مئين » ؛ وهو تعبير سنراه كثيراً في الشعر العربي بعد زهير . وها ان القرشيين الذين سقطوا يوم بدر يصبحون كلّهم من واهبي المئين[٣]...

ويتناول الشعراء هذا الاسم فيضعونه الى جنب صاحب « المرباع » ، اي ربع السلب بعد الغارة ، وهو نصيب الرئيس المنوار[٤] ، فيرفع حامله ، في نظر الرأي العام ، الى مقام الملوك المتوّجين[٥] ، فيقول حسان :

---

١) شيخو : شعراء النصرانية ، ٥١٧ ؛ واطلب شرح نولدك Nöldeke, *Fünf Mo'al-laqāt*, III, p. 29

٢) انجيل متى ٥ : ٦

٣) ابن هشام : السيرة ، ٥٢٢ ؛ واطلب كتابنا *Le Berceau de l'Islam*, I, p. 249-251

٤) الواقدي (طبعة Kremer) ص ١٨٦

٥) اي النـاسئة والمناذرة .

حمّال اثقال الـديات مترّج[١]

وينتقل هذا الشرف من الاباء الى البنين، فيفتخر الولد بكونه «ابن حمّال مئين»[٢]. وينتهي تأثير زهير الى الاسلام، فيعجب ارباب الحديث بتعبيره فيرون من اللائق ان ينسبوه الى النبي، او الى جدّه عبد المطّلب، مع موافقة النبي عليه[٣].

ثم يطلّ العصر الاموي، واذا بخلفائه، وهم حفدة سادة العرب وورثاؤهم، يطالبون بلقب «واهبي المئين»، ولاسيما بعد ان يدلّهم الاختبار على عجزهم عن التدخل في شؤون القبائل الخاصة، وبالتالي على صعوبة صرف البدو بطريق النظام التشريعي، عن عادة الثأر والانتقام الفردي.

ويجرّنا البحث الى ذكر حادث مهمّ دلّ على تأصل هذه العادة الثأرية في عقلية البدو، حتى في ما بعد الاسلام. هو حادث «العثمانية». بعد وفاة محمد بخمس وعشرين سنة، تألف حزب خطير من مؤمني المسلمين للمطالبة «بثأر» ثالث الخلفاء الراشدين، عثمان «المظلوم» و«الشهيد». وقد فرضوا عليهم هذه المطالبة كما تُفرض الواجبات الدينية[٤]. ولا يمكن القول بان السياسة أثرت في عقيدتهم هذه. فان اكثرية حزب «العثمانية»، في اول الامر، رفضت ان تلتحق بالحزب الاموي. انما كان يهيب بها «دين عثمان»[٥] وحده، وقد اتحد، في نظر اولئك المؤمنين، «بدين الله»، فولّد فيهم الصفة الفرضية

---

١) حسّان بن ثابت: ديوانه ٨٠: ٦ – ونسمع صدى ذلك في قول الاخطل:
ضخمٌ تُعلّق اشناقُ الدياتِ به، اذا المِئون أُمِرّت فوقه، حملا
ديوانه (صالحاني) ١٤٢

٢) راجع Le Berceau... I, 250

٣) اطلب الترمذي: الصحيح (طبعة الهند) ١: ١٦٦–١٦٧؛ ابن سعد: الطبقات ١: ٥٤؛ ابن قتيبة: معارف (طبعة مصر) ١٨٦

٤) وقد اعلن خطة هذا الحزب الشاعر الانصاري كعب بن مالك، الاغاني ١٥: ٢٨

٥) معاكسةً «لدين علي»؛ اطلب ابن دُريد: الاشتقاق ٢٤٦–٢٤٧، وكتابنا Yazid, p. 167, 168 – ولا يخفى ان لفظة «دين» لا تحتمل هنا معنى الخضوع والطاعة (شعراء النصرانية ٥٥٤، سطر ١) لان «دين عثمان» ظلّ «ديناً» حتى بعد وفاة الخليفة باكثر من قرن كامل.

نفسها[١] .

ولم يتحوّل دين عثمان الا بعد منتصف القرن الاول للاسلام ، فاخذ يميل الى نوع من الايمان بالدولة الاموية وبالاخلاص لها . وجعل خلفاء دمشق يوصون ولاتهم في المناطق البعيدة بالسهر على هذا « الدين » وباستعماله آلة للحكم[٢] . وفي رأينا ان گولدسيهر لم يُوَفّق اذ قال ان اسم عثمان كان منذ البدء رمزاً بل كلمة تلخص مرامي الامويين،معاكسةً لاسم علي الذي كان يستخدمه اعداؤهم السياسيون . »[٣] فان هذا الوصف لا ينطبق الا على ما آل اليه هذا الحزب بعد الحقبة الاولى . ثم ان گولدسيهر يصرّح بانه « لا يفهم كيف نُسب الى العثمانية صُحار بن عباس الخارجي »[٤] ، وهو تضادٌ ظاهري لا غير ، اذا فهمنا حقيقة « العثمانية » في اصلها[٥] .

وعلى هذا فاننا نرى بين الحنابلة انفسهم ، مع ما نعرف من تقيّدهم وتضييقهم ، انصاراً متعصّبين بل « غلاة » في التعصّب لمعاوية[٦] . ولم تكن غاية هؤلاء الغلاة ان يدخلوا في المشاحنات بين الامويين وخصومهم ، ولا ان ينتصروا للعباسيين او للعلويين او عليهم ، انما كانوا يحتجون بتكريمهم ذكرى معاوية على ما كانت تظهره بعض المذاهب الاسلامية ، حتى خارج البدع الشيعية ، من الاحتقار لشخص معاوية[٧] ؛ معتبرين ان كونه من الصحابة ومن خلفاء الاسلام لجديرٌ بان يفرض احترامه على جميع المؤمنين المخلصين . اما الخوارج فانهم ادخلوا في الاسلام كل عقائد المساواة الديموقراطية المتأصلة في البدو الاقدمين . ولم تكن لتهمّهم المشاحنة الدينية بين علي ومعاوية ، الا ما

---

١) راجع كتابنا . *Mo'āwia*, p. 109 etc

٢) اطلب *Mo'āwia*, p. 123-125, 182-183

٣) *Muhammed. Studien*, II, p. 119

٤) ويدعى ايضاً ابن عياش ، اطلب ابن الاثير : اسد الغابة ٣ : ١١

٥) ولا يدل كتاب الجاحظ في « العثمانية » على انه كان من هذا الحزب المتعرض في عصره . فان الكاتب الظريف لم يرَ في الموضوع الا مجالاً لعرض معلوماته وآرائه .

٦) راجع في « غلاة » معاوية مقالاً لحبيب زيات في المشرق ٢٦ [١٩٢٨]-٤١٠–٤١٥

٧) راجع *Yazīd*, p. 187 etc.

كانت تذكرهم به من مرامي السيطرة القرشية القديمة التي تحاول استعادة مركزها حتى في الاسلام. ولهذا لم يكن بامكان الآخذين بالمنطق من الخوارج، كصُحار مثلًا، ان يكتفوا بالانحياز الى الحياد بين « المعتزلة »[1]، ولا ان يعتبروا مقتل عثمان امرًا مفروغًا منه. وهكذا كانت البصرة « عثمانية »[2]، وهي اكثر مدن الخلافة العربية فوضى، واقربها الى التعلق بعادات القفر البدوية[3].

وقد صرّح كعب بن مالك، والنعمان بن بشير، وحسان بن ثابت، باسم هذا الحزب، في حضرة علي بن ابي طالب، عندما اخذ علي يحتج في مقتل عثمان ويعتذر قائلًا: « لكم عندي ثلاثة اشياء: استأثر عثمان فأساء الاثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع، وعند الله ما تختلفون فيه الى يوم القيامة. » فقالوا: « لا نرضى بهذا العرب، ولا تعذرنا به. »[4]

فنتحقق من ذلك ان العرب داوموا على الاخذ بدين القفر القديم، حتى في الاسلام، وبعد استقراره. اما زمن المروانيين، ولاسيما منذ خلافة عبد الملك، فان اسم « عثماني » اصبح يعني المنتمي الى حزب بني امية. وفي هذا الزمن يصيح الشاعر ابن الزبير مهددًا ثوّار العراق، دائنًا « بدين » عثمان:

ففي رجب، او غرّة الشهر بعده، تزوركمُ حُمرُ المنايا، وسودُها
ثمانون الفًا دينُ عثمان دينُها كتائب فيها جبرئيل يقودها[5]

وقد آن لنا ان نختم هذا البحث في صفة الثأر الدينية عند العرب الجاهليين، بعد ان جرّنا، على اثر المطالبين بثأر عثمان، الى ما بعد الحدّ الذي وضعناه له في القسم الاول.

---

١) راجع *Mo'āwia*, p. 113-125، والمقصود بالمعتزلة حزب سياسي

٢) الجاحظ: ثلاث رسائل (طبعة de Goeje) ص ٩؛ الذهبي: ميزان الاعتدال ٢: ٢٢٩؛ ٣: ٢٢٧. وهناك « عثماني غالٍ » يُذكر في الكوفة لغرابة وجوده فيها، الذهبي: الكتاب المذكور ١: ٤٤٦؛ الطب، في ذلك، كتابنا: *Ziād ibn Abīhi*, p. 47 و *L'avènement des Marwānides et le califat de Marwān 1er*, p. 8

٣) *Ziād ibn Abīhi*, p. 27 etc. ٤) الاغاني ١٥: ٣٠

٥) الاغاني ١٣: ٢٨ – وابن عساكر (طبعة بدران ٥: ١٢٨) ينسب الابيات لابن خزيمة، وهو احد شعراء بني اسد ايضًا، الا انه عاصر معاوية.

آخر مظهر

لسياسة روسية الدينية في الشرق الادنى

١٨٩٥ - ١٩١٤

استنادًا الى وثائق غير منشورة

بقلم
الكسيس بوكوليوبسكي ، والاب جبرائيل لوفنك اليسوعي

لقد اعتاد الباحثون ، اذا ما تكلّموا عن تدخّل روسية بشؤون الشرق الادنى الدينية ، ان يرتوا بظاهر هذا التدخّل الى معاهدة كاينارجي المعقودة سنة ١٧٧٤ ، والواضعة ، في نظرهم ، مبدأ اهتمام روسية بشؤون الطائفة الارثوذكسية في سورية . على ان هذا الاهتمام يرقى ، في الحقيقة ، الى ما قبل القرن الثامن عشر ، فيبدأ في اواخر القرن السادس عشر ، عهدَ اخذت موسكو تظهر بمظهر الدولة الكبيرة مستقلةً بطاريركيتها بشؤونها الدينية . منذ ذاك العهد ، بدأ بطاركة العالم الارثوذكسي يتجهون بانظارهم نحوها ، فيسألونها المعونة المادّية خاصةً . ولنا في رحلة البطريرك مكاريوس (١٦٥٢ - ١٦٥٩) التي نُشرت مرّات[1] ، دليل على ما كانت تتحف به روسية احبار الارثوذكس من هدايا وإعانات . وكان يقابل هذه الرحلات الى روسية رحلات أخرى يقوم بها عدد من الروسيين ، فيزورون البلاد المقدسة ويقيمون مدة في سورية . وقد يُدفع بعضهم الى درس الطقوس الشرقية الارثوذكسية والمقابلة بينها وبين طقوسهم المسكوبية .

هذا ملخص ما كان من الملاقات بين العالم الروسي والعالم الارثوذكسي في الشرق الادنى ، قبل معاهدة كاينارجي . وقد كان من المنتظر ان تأتي

(١) اطلب .Patrologia Orientalis XXII, 1930

هذه المعاهدة بصلات جديدة ، متتابعة . على انها ظلّت مدة طويلة محفوفة بالغموض حتى لا يمكنا درسها وتمييز مظاهرها.

الى ان كان القرن التاسع عشر ، فرأينا الحكومة الروسية تهتم الاهتمام الجدّي باولئك الزوّار الروس الذين لم ينقطعوا عن رحلاتهم الى الشرق الادنى، فتعمل على تسهيل اقاماتهم وتحسين احوالهم ولا سيما من الوجهة المادّية ؛ كما انها بدأت تهتمّ كذلك بحالة ارثوذكس الشرق، فنظمت ارساليات دينية كانت تقوم بكل نفقاتها . ولكن نتائج هذه الاعمال كانت ضئيلة ، لم يرضَ عنها ولاة الامر انفسهم في روسية . اما اسباب هذا الفشل فكانت تُنسب من جهة الى مقاومة الحكومة التركية ، ومن جهة اخرى الى معاكسة الاكليروس الارثوذكسي نفسه ، وكل بطاركته من اليونان.

بيدَ انه حصل حدثٌ مهمّ في السنة ١٨٨٢ . تأسست جمعية روسية دعت نفسها « جمعية فلسطين » ، واتكلت على رجل شديد الايمان ، بعيد الهمة ، قويّ الارادة ، هو باسيل خيتروفو . فهم غايات الحكومة الروسية ، ولكنه لم يكتفِ بمظاهرها الضئيلة ، فوسّع نطاق عمله ، واضعاً نصب عينيه تحقيق فكرة اولية هي مقاومة الاكليروس اليوناني . كان يرى ان مصائب الارثوذكسية ، ولا سيما من حيث الاخلاق ، ناتجة من الغرب ، وان الاكليروس نفسه مصاب بوباء « الاستغراب » ، فاذا عملت « جمعية فلسطين » على محاربة الاكليروس اليوناني ، تكون قد مهدت لها السبل الى ترقية ارثوذكس سورية علماً واخلاقاً ، مستندةً في مهمتها هذه الى معاضدة الزوار والسيّاح الروسيين المقيمين او المارّين في سورية . وعليه فقد كانت السياسة الوطنية الروسية ، في نظر خيتروفو ، متعلقة بالسياسة الدينية ، وتابعة لها . من الحق ان هذه النظرية لم ترق جميع اعضاء الجمعية ، وقد رآها بعضهم على قسط وافر من التطرّف . الا انها لم تحدث اختلافاً يُذكر ، فأخذت الجمعية تقوم بجهود جبّارة ، سائرةً ، على مدة ، جنباً الى جنب ، مع رجال السياسة الرسميين .

وكان اول ما رمت اليه نزع بطريركية اورشليم من الاكليروس اليوناني . ولكن كل ما قامت به من المحاولات كان نصيبها الفشل . فاتجهت انظارها

الى بطريركية انطاكية ، والعنصر اليوناني فيها اضعف ، وارثوذكس سورية ارقى ثقافةً ، واوفر غنى ، واقرب الى المشاغبة ، من ارثوذكس فلسطين . وهكذا تحولت اعمال الجمعية الى سورية ، على احتفاظها باسمها الاصلي اي « جمعية فلسطين » . فبدأت مشاريعها سنة ١٨٩٥ . ولم يمضِ عليها خمس سنوات حتى كان لها ٤٢ مدرسة روسية في مختلف الابرشيات من بطريركية انطاكية . وفي السنة ١٩١٣ كان لها ٨٢ مدرسة فيها ١٢٠٠٠ تلميذ من الجنسين . اما في فلسطين فلم يكن لها الا ٢٥ مدرسة . وكل هذه المدارس كانت مجانية ابتدائية ، يعلّم فيها اساتذة سوريّون يديرهم على الغالب مديرون من الروس . وكانت مقسومة الى منطقتين : المنطقة الشمالية تتعلق بمفتش مركزه طرابلس ؛ والمنطقة الجنوبية يراقبها مفتش آخر مركزه دمشق . وكانت الجمعية تنتظر من كل هذه الاعمال نتائج دينية . اما الحكومة فكانت ترجو نتائج سياسية . ومن هنا يقدر الباحث ان ذلك الاتفاق الاصلي بين المؤسستين لم يكن ليدوم طويلاً بسبب اختلاف الغايتين .

وقد فازت الجمعية بنصر باهر سنة ١٨٩٦ ، اذ عملت على نزع البطريركية في سورية من يد الاكليروس اليوناني . وكانت الحكومة قد بدأت منذ السنة ١٨٩٥ ، سنة دخول الجمعية سورية ، بتوزيع عدد مهمّ من الاوسمة ، فمنحت البطريرك اسبيريدون ، وكان من المحكوم عليهم في نظر الحكومة والجمعية ، وساماً من اكبر اوسمة الامبراطورية وهو وسام القديس اسكندر نفسكي ؛ ومنحت المطران غفرائيل ، متروبوليت بيروت ، وسام القديسة حنة من الدرجة الاولى ، وكلًا من المطران اثناسيوس ، متروبوليت حمص ، والمطران جراسيموس ، متروبوليت سلوقية ، وسام القديس فلاديمر من الدرجة الثالثة . ومنحت عدداً من رجال الدنيا اوسمة من جوقة القديس ستانيسلاس من الدرجة الثالثة ، وبعض المداليات [1] . ولم يُحرم موظّفو الدولة التركية من هذا التوزيع .

---

١) عن كتاب مدير القسم الاسيوي المؤرخ في ٢٨ اذار ١٨٩٦ ، برقم ٢٣٠٤ ، وكتاب جدروفسكي ، السفير في القسطنطينية ، في ٢٧ حزيران ١٨٩٦ ، رقم ٢٧٤ .

فمُنح ناظم باشا ، والي دمشق ، وسام النسر الابيض[1] . وقد قامت الحكومة التركية ، من جهتها ، سنة ١٩٠٢، فاعترفت بالمدارس الروسية في بلادها.

على ان هـذه المدارس ، مع ما كلفته من الاهتمام ، كانت عرضة لانتقادات كثيرة من وجوه مختلفة :

كان اعضاء الجمعية « الصيميون » ، حتى رئيسها الغراندوق سرج (الذي اغتيل سنة ١٩٠٥) ، لا يرون بعين الرضى تعدّد المدارس في سورية ، معتبرين ان في هذا المظهر انحرافاً عن غاية الجمعية الاصلية . وكان ارباب السياسة الروسية يرون في المدارس المذكورة ادوات لنشر النفوذ الروسي في تركية ، ولكنهم لم يكونوا ليهتموا بسلامة عقائد الجمعية ، ولا بتعليم اللغة الروسية ، وهما من النقاط المهمة في انشاء هذه المدارس .

اما السكان فلم يكونوا يطلبون الا مدارس عملية تعلّم اولادهم علوماً يمكنهم استخدامها حالاً ، فتساعدهم على تحصيل معيشتهم . ولهذا كانوا يطلبون بالحاح تعليم اللغات الاجنبية . وهو ما لم تكن تصغي اليه الجمعية ، رافضةً تعليم اللغة الفرنسوية واللغة الانكليزية .

واما الاتراك فكانوا يرون هذه المظاهر فيعتبرون بها ، ويستفيدون من الحوادث ، كما فعلوا على اثر الحرب الروسية اليابانية . ولكنهم لم يتابعوا سياستهم هذه في عرقلة سير المدارس الروسية[2] .

حتى كانت السنة ١٩٠٦ ، فأتت بفشل مهمّ في السياسة الروسية المدوسية . وكان سببه ارثوذكس سورية انفسهم . وتفصيل ذلك انه في السنة ١٩٠٦ ، توفي اول بطريرك وطني وهو البطريرك ملاتيوس . فرشحت روسية المطران اثناسيوس عطا الله ، متروبوليت حمص . ولكنها لم تنجح، اذ فاز بالبطريركية

١) كتاب زينوفييف ، السفير في القسطنطينية ، ١٤ تموز ١٩٠٠ – وان هذا التاريخ يدفعنا الى السؤال : هل من علاقة بين هذا الوسام الكبير الممنوح الى والي دمشق ، ونجاح السياسة الروسية في انتخاب بطريرك عربي الاصل في السنة ١٨٩٩ ؟

٢) تقرير سرّي لباتيوشكوف ، قنصل روسية في دمشق ، بتاريخ ٤ تشرين الاول سنة ١٩٠٥ ، رقم ٣١٦

المطران غريغوريوس حداد، من طرابلس، الذي لم يكن من محبي روسية، ولا من الراضين عن سياستها. ومنذ ذلك الحين اخذت العلاقات تتوتر بين الجمعية، وقنصلية روسية في دمشق، والطائفة الارثوذكسية.

وقد صرّح باتيوشكوف، قنصل روسية في دمشق، في تقرير رسمي «ان كثيراً من التلميذات تترك مدارسنا وتدخل في مدارس اللعازريين[1] او في مدارس الانكليز البروتستانت» وهو ينسب هذا الحادث الى رغبة الاهالي في المهاجرة الى اميركة، ويذكر من حججه طلب عدد من الفلاحين ان تُدخل المدارس الروسية اللغة الانكليزية في موادّ التعليم. وهو يعود الى هذه الفكرة في حديثه لاحد مراقبي الجمعية، فيلفت نظره الى هـذه الظواهر المؤسفة، وينصحه «بتعليم اللغة الفرنسية» على الاقل، وهي لغة نافعة في التجارة» . ولكنه يزيد قائلاً: «يظهر ان هذا معاكس لقوانين الجمعية.»

وفي تقرير آخر[2] يقوم القنصل بحملة شديدة على طريقة تعليم اللغة العربية في تلك المدارس، ناسباً المعلمين الى جهل مهنتهم احياناً، قائلاً ان عددهم قليل، على كل حال، ومعاشهم ضئيل.

وكأنه اخذ على نفسه ان يعمل جهده في تحسين تلك الحالة، فكتب في السنة نفسها[3]: «لقد اخذ السكان يعتقدون شيئاً فشيئاً ان للجمعية غايات خاصة تجعلها تصرف هذه المدارس عن كل تظاهر علني باعمالها. فلا حفلات ختامية للسنة المدرسية، ولا توزيع جوائز... ولا يخفى ما في هذا من الضرر للجمعية. ومهما يكن من أمر فان مدارس الجمعية احط من مدارس منافسيها.» اما المعلمون الروسيّو الاصل، فكانوا يظهرون عجرفةً ممقوتة، ويعيشون منفردين عن زملائهم السوريين، على عكس ما يظهر بين معلمي سائر البعثات الاجنبية، فانهم، وان كانوا منتمين الى رهبنات او جماعات دينية، يظلّون على اتصال بكثير من الوطنيين.

١) اي مدارس راهبات المحبة.
٢) بتاريخ ٢٦ شباط ١٩٠٦، رقم ٣٦
٣) بتاريخ ٢٦ حزيران ١٩٠٦، رقم ٨٠

وان في المراسلات بين قنصلية دمشق ، وسفارة الاستانة ، موضوعات جمة تظهر التذمر والاحتجاج . من ذلك انه في السنة ١٩٠٩ ، اقفلت الجمعية كثيراً من مدارسها في ابرشية عكار بسبب ما قام بـه متروبوليتها ، المطران باسيليوس ، من عمل عدّته الجمعية غير لائق . فكتب السفير تشاريكوف ، من الاستانة ، يوصي القنصل بان يزور البطريرك ، فيقنعه بضرورة حرمان المطران باسيليوس من نصيبه بالاعانة المعطاة لبطريركية انطاكية ، « على الاقل ، حتى يمحو بسلوكه واعماله ، تذكار تلك الحملة الثانية التي قام بها على روسية وعلى جمعية روسية . »[1] ولكن هذا التوتر بالعلاقات لم يطل . فان الاحتياجات عملت على التخفيف من تلك الصعوبات التي ذكرها فتناصل روسية بين قنصلياتهم والطائفة الارثوذكسية . وكانت الحكومة الروسية قد اعلنت عزمها على امداد احبار الطائفة باعانات سنوية ، ودفعت فعلاً الى البطريرك ٤٠،٠٠٠ فرنك عن السنة ١٩٠٨ . فقام غبطته في آخر السنة المذكورة ، بتاريخ ١٩/٦ كانون الاول ، بمناسبة عيد الامبراطور ، بحفلة باهرة في كاتدرائية دمشق ، القى فيها خطاباً رنّاناً في مآثر جلالته ومآثر الدولة الروسية . ولهذا ، عندما بلّغه القنصل رغبة السفير في حرمان المطران باسيليوس من نصيبه ، لم يرَ صعوبة في تحقيق تلك الرغبة . فخصص مبلغ الاعانة ، على ثلاث سنوات ، (٣٦٠ ليرة فرنسوية ذهباً) لتسديد ما تركه سابقا المطران باسيليوس ، وهما المطرانان كريسانثوس ونيقوديموس ، من ديون بلغت ٤٠،٠٠٠ غرش ، « عملة طرابلس »[2].

الا ان آمال القنصل بهذه الاستعدادات الطيّبة لم تتحقق تماماً . فان المعارضة عادت الى الوجود عندما حان وقت توزيع الاعانات . فاضطر اولياء الامر الى زيادتها حتى بلغت ٨٠،٠٠٠ فرنك ذهبي،اي ما يعادل تقريباً ٤٥٠،٠٠٠ فرنك من العملة الحالية . وكان البطريرك ، فوق ذلك ، يطلب ، بواسطة ممثله في الاستانة ، ان تسدد روسية ما على البطريركية من ديون قديمة . وهو طلب ردّ عليه الامير بوريس شاكوفسكي ، قنصل دمشق الجديد ، بانه مستحيل

١) من رسالة السفير المؤرخة في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٠٩ ، رقم ٨١

٢) من رسالة البطريرك غريغوريوس في ١٥ حزيران ١٩١٠ ، رقم ٣٨

التحقيق . وزاد قائلاً : « ان السفارة الامبراطورية تأمل ان ترى كنيسة انطاكية عاملةً على تهيئة نظام عام ، توافق عليه الحكومة العثمانية ، وتنظّم بموجبه اعمال البطريركية الادارية والمالية . »[1]

وقد كانت هذه الرغبة رغبة القنصل المقيم في مركز البطريركية ، والواقف على كل ما هناك من صعوبات ومشاحنات ، اكثر منها رغبة الحكومة الروسية ، او رغبة الامبراطور نفسه . لان الوزارة التي كانت قد ارسلت الى القنصل مبلغ ال ٨٠٬٠٠٠ فرنك ، لم تطلب سوى البلاغ بوصول المال ، مع وصل بامضاء البطريرك بتسلّم القيمة بجملها . وهذا ، وفقاً لروح تقرير وزارة الخارجية الذي اقرّه الامبراطور بتاريخ ١٧ تموز ١٩٠٨[2] . ولم تكن السفارة تتكلم كالوزير تماماً . اما القنصل فلا يظهر انه اهتمّ باقوال الوزير ، ولا باقوال السفير . بل كتب بتاريخ ١٠ كانون الاول ١٩٠٩ ، تحت رقم ٣٣٦ ، معلناً الى البطريرك وصول القيمة ، قائلاً : « انه من الآن فصاعداً ستتولى القنصلية توزيع انصبة الابرشيات ، فتعطي هي نفسها كل ابرشية ما يصيبها من المال ». وفي ٢٣ كانون الاول (رقم ٦٤) يُعلن طريقة التوزيع : كل ابرشية تنال من ١٢٠ الى ١٥٠ ليرة فرنسوية ذهباً ، ما عدا ابرشيتي بيروت وطرابلس ، فلا تنال كل منهما الا ٥٠ ليرة ، لانهما « ليستا بحاجة الى الاعانة ». وهو يسير الى ابعد من ذلك ، فيقسم كل نصيب الى قسمين : قسم للنفقات الخاصة لا يراقب انفاقه احد ، وقسم لاعانة المدارس والكنائس ، ويجب ان يدوَّن بهذه النفقات حساب خاص يُرفع الى القنصلية .

وعلى هذا المبدأ ، تناول البطريرك ، تلك السنة ، ١٢٠٠ ليرة فرنساوية ذهباً قُسمت كما يلي : ٤٠٠ ليرة لنفقاته الخاصة ، و٤٠٠ للمدرسة الاكليريكية في دير البلمند ، و٤٠٠ للمدارس والكنائس . ونال متروبوليت حمص ٦٠ ليرة لمدارسه وكنائسه . وقد تناول ، عدا ذلك ، اعانة سنوية تبلغ ٥٠٠ روبل (نحو ١٤٬٠٠٠ فرنك ذهباً) للمدرسة الارثوذكسية في حمص المؤسسة تلك

١) من رسالة قنصل دمشق بتاريخ ٩ كانون الاول ١٩٠٩ ، رقم ٣٣٥

٢) من رسالة بتاريخ ٢٦ تشرين الاول ١٩٠٩ ، رقم ٦٣

السنة . وكذلك نال كلٌّ من مطارنة حماه ، وحلب ، وديار بكر ، ونائب مرسين ١٥٠ ليرة . على ان الاثنين الاخيرين لم يكن عليهما تقديم حساب لقنصلية دمشق ، لانهما خارجان عن منطقة سورية . ونالت ابرشيات اللاذقية، وزحلة ، وحوران ، وصور ، ١٥٠ ليرة لكلٍّ منها . اما ابرشية لبنان فلم تنل الا ٦٠ ليرة . وكان قسم النفقات الخاصة يبلغ من ٢٠ الى ٥٠ ليرة .

اما نتيجة هذا التوزيع فكانت ضجّة صاخبة اشترك فيها السفير ، وجمعية فلسطين ، والبطريرك ، والمطارنة ، واعيان الطائفة . حتى الجرائد الروسية نفسها ، فذكرت جريدة « نوفويي فريما » بتاريخ ٨ نيسان ١٩١٠ ، التأثير السيئ الذي احدثته تلك الطريقة في التوزيع ، في الاوساط الارثوذكسية السورية . وارسل وزير الخارجية يطلب ايضاحات من السفير في الاستانة ، ويشكر تلك الغيرة التي اظهرها قنصل دمشق ، قائلاً : « اعتقد من واجبي ان الفت نظركم الى ان فكرة الامير شاكوفسكي بتوزيع الاعانات رأساً على المطارنة والمؤسسات الدينية ، خارجاً عن البطريرك ، لا اراها صالحة . لان هذه الطريقة في التوزيع تكوّن ، في الحقيقة ، تدخّلاً بشؤون البطريركية الداخلية قد يؤدي الى نتائج مؤسفة . وفضلاً عن ذلك ، فان طريقة كهذه تعاكس المعنى الدقيق للقرار المقدّم الى الامبراطور والذي اقرّته جلالته بتاريخ ١٧ تموز ١٩٠٨ . وترون طيّه نسخة عنه .»[1]

وهكذا قُضي على تجربة قنصل دمشق .

اما المشكلة المدرسية فكانت اصعب من ان تُحلّ بمثل هذه السهولة . كانت الحكومة الروسية ترغب في اصلاح هذه المدارس مدفوعة بروح السياسة الوطنية العملية . وكانت الجمعية ، في استنادها الى روح التقليد باسم روسية المقدسة ، ترفض كل تلك المحاولات الاصلاحية بحجة انها مأخوذة عن الروح الغربية . وقد زاد تشبثها بهذه المبادئ التقليدية حتى انها فكرت ، اذا اضطرت الى قبول الاصلاح ، بالغاء المدارس كلّها .

على انه بالنظر الى الروح الجديدة في روسية البرلمانية ، والى الروح الجديدة

---

١) من رسالة الوزير بتاريخ ١٣ نيسان ١٩١٠ ، رقم ١٣,٢٥٣

كذلك في تركية الفتاة ، اخذت الحكومة الروسية تتّسع في مرمى انظارها على آسية التركية ، فتمد المدّة لعمل واسع في الشرق الادنى . وهو ما كان قد خطّه السفير تشاريكوف الى قنصل دمشق، بناء على تعليمات وزارة الخارجية[1] .

وكان من مظاهر هذه الخطة ان أعطي قنصل دمشق وحده حقّ التدخل السياسي بالشؤون المتعلقة ببطريركية انطاكية . اما سائر القناصل فكان عليهم ألّا يغفلوا المراقبة الدقيقة لحوادث الحياة الدينية ومظاهرها في الابرشيات . على انهم لم يكن من حقّهم ان يبدوا الملاحظات او يعطوا النصائح في الشؤون الدينية ، لا الى اعضاء الاكليروس ولا الى العلمانيين . ولم يكن من حقّهم ان يقبلوا العرائض ولا ان يحوّلوها ، ولا ان يسمّوا التصريحات او المعلومات المتعلقة بالبطريركية ، او بشؤون الكنيسة الداخلية .

فكان من الطبيعي ان يزداد نفوذ قنصل دمشق ، اذ صار في يديه سلاح جديد سيستعمله في حلّ مشكل المدارس المقلق . لان الجمعية عندما تكلمت بعزمها على اقفال مستوصفيها ومدارسها البالغة ٨٢ ، اقلقت فعلًا كل اولياء الامر . فطلب السفير من قنصل دمشق تقريرًا ضافيًا مفصّلًا . فسار القنصل الى الاستانة ، وكانت جمعية فلسطين قد ارسلت ايضًا الى الاستانة ، في كانون الاول ١٩٠٩ ، سكرتيرها العامّ ، الاستاذ دمتريفسكي ، ومفتش مدارس الجليل ، السيد رياجسكي ، وهما مشهوران باللطف والمرونة . فاستقبلهما السفير واضاف اليهما السيد كوهنسكي ، وكيل القنصل في بيزرند ، بصفة مقرّر عامّ .

ولم يكد الامير شاكوفسكي يرجع الى دمشق حتى ارسل الى السفير ، في ١٨ كانون الاول ١٩٠٩ ، رقم ٣٦ ، التقرير المطلوب ، متضمّنًا فكرة رجال السياسة وموظفي حكومة الامبراطورية ، حاملًا حملة شديدة على نظريات الجمعية ، وخاصّة تعليم اللغة الروسية في مدارسها ، مستندًا في كل ذلك الى روح الوطنية المخلصة ، والسياسة الروسية الحقّة ، مصرّحًا انه ليس بالامكان ان نفكّر بالغاء هذه المدارس . والّا فانّ هذا العمل انتحار ادبي لروسية

[1] رسالة السفير بتاريخ ٢٣ كانون الاول ١٩٠٩ ، رقم ٩٨

في الشرق . وذلك ان الجمعية — على كونها جمعية خاصة في نظر الشرع — لا يمكن ان تنفصل في نظر الشرقيين عن الحكومة الروسية . ومن البراهين على ذلك انه ، مدة الازمة البطريركية في السنة ١٨٩٨—١٨٩٩، كانت السفارة الروسية تعضد ، لدى الباب العالي ، حقّ الطائفة الارثوذكسية الوطنية في سورية، وتضع تحت تصرّف قنصل دمشق مبالغ كبيرة في سبيل مساعدة المطارنة الوطنيين في ذاك الانتخاب ؛ تقوم بذلك لحساب جمعية فلسطين . وهو امر معروف مشهور . ثم ان الحكومة التركية اعترفت رسمياً سنة ١٩٠٢ بهذه المدارس بصفة كونها روسيّة . وان لنا فيها ادوات حسنة للعمل والتأثير لا يجدر بنا ان نهملها في هذه الايام ، ولا نعرف ما يخبئ المستقبل للدولة التركية .

ولكن ان يكن من المستحيل الغاء المدارس الروسية ، فمن المستحيل كذلك ان تُترك في حالتها الحاضرة . لا شك في انها تجابه أزمة مدرسية شديدة، وهو امر لا ينكره مجلس ادارة الجمعية . فما هي اسباب هذه الازمة ؟ هي اولًا الجمود مدة ٢٥ سنة في عصر كل ما فيه يتحرك ، ويتحرك بسرعة . ثم الانصراف عن تعليم اللغات الغربية . وفي اي حالة يكون النفوذ الروسي اوسع واعمق اثرًا ؟ أفي مدرسة خالية من التلامذة يكوّن فيها تعليم اللغة الروسية اجبارياً ، ام في مدرسةٍ لا تجبر على تعليم هذه اللغة ، ولكنها مأهولة بالتلامذة؟ لتُدخل في مناهج التعليم اللغة الفرنسوية واللغة الانكليزية . هذا شرط اساسي بدونه لا حياة لمدارس الجمعية .

ثم ان القنصل يعرض فكره في مسألة التعليم المجاني ، فلا يوافق عليه . ويقدّم ملاحظات وآراء بشأن فتح مدارس للتعليم الثنوي ، طالباً اصلاحاً تاماً لتنظيم مدارس الجمعية .

وفي اوائل سنة ١٩١٠ ، بعد ان قام مفتشو الجمعية بدورة على المدارس ، وصلوا الى دمشق في ٢٧ كانون الثاني ، فاجتمعوا في دار القنصلية بممثلي وزارة الخارجية . وكان قد أُضيف الى المفتشين المذكورين اعلاه السيد ستاسيفتش ، مفتش مدارس سورية الجنوبية

وهناك طالت المناظرة واحتدمت ، وكان لكل فيها نصيب وافر . واخيرًا اسفرت عن ترك نظرية الجمعية الى الاخذ بالآراء الاصلاحية . ثم نُظّم مشروع بالاصلاحات المهمة . ولقد كان من الممكن تنفيذها حالًا ، لولا مجلس « الدوما » الذي كان يغربل كل الحسابات ، ولولا التسلسل الاداري الذي كان يؤخر كل التقارير . واخيرًا أُقرّت النفقات الاصلاحية لاول كانون الثاني ١٩١٣ . وكانت الجمعية في تقريرها المرفوع الى الامبراطور عن السنة ١٩١٢ — ١٩١٣ ، وفي مشروعها لموازنة السنة ١٩١٤ ، قد ادخلت الاصلاحات المفروضة .

ثم جاءت الحرب ، فتغيّرت مجرى كثير من المشاريع . على ان مفتش المدارس في سورية الشمالية قرّر فتح المدارس ، ومتابعة العمل[١] . حتى اذا شُهرت الحرب ، اخذ قنصل بيروت ، السيد باتيوشكوف ، جميع المعلمين الروسيين في صحبته ، على ان تواصل المدارس عملها بواسطة المعلمين الوطنيين . ولكن هذا القرار لم يصادفه النجاح ؛ كما ان البطريرك جرّب ، اثناء الحرب ، ان يحافظ على بعض مدارس البنات فلم ينجح . بل تلاشت هذه المشاريع كلها بتلاشي روسية الارثوذكسية .

***

بقي ان نسأل عمّا كان يعرفه ويقوله المرسلون اللاتين عن هذه التنظيمات الروسية والمشاريع الارثوذكسية ؟ من الحقّ انهم لم يعرفوا شيئًا مما اطلعتنا عليه الوثائق الرسمية . ولا غرابة في ذلك . فان اطلاعهم لا يتجاوز مشاهدة المظاهر الخارجية المدرسية خاصّة . وهو ما نتحققه من هذين النصّين اللذين نعرضهما على القرّاء ، على سبيل المقارنة بينهما وبين ما تقدّم :

النصّ الاول يرقى الى السنة ١٨٩٨ ، اي الى اوائل الدعاية الروسية ، وهو مأخوذ من رسالة كتبها الاب جوزف بَرْنيه اليسوعي الذي كان متصلًا بارثوذكس حمص وعكار ، قال : « ان موظفي روسية يعملون عملهم ، من مدّة طويلة ، بين الارثوذكس . حتى يمكن ان نعتبر اليوم انهم فازوا بالنصر . وها ان قيصر روسية كاد يصبح الهًا في نظر روم سورية . يدلّ على ذلك موقف فلاح من

١) من رسالة بتاريخ ١٤ ايلول ١٩١٤ ، رقم ٣٢٠

حمص دخل بيتاً مارونياً في ضواحي طرابلس ، فرأى فيه صورة لنقولا الثاني ، ولما سمع انها صورة امبراطور روسية ، دهش اصحاب البيت ، اذ رأوه يكشف عن رأسه ويأخذ بتعداد رسم اشارة الصليب ، وبالسجود ، كما يفعل امام مذبح كنيسته ، او امام صورة العذراء ، وصورة القديس جرجس . ولا يخفى ان المدارس الرومية الموجودة تأخذ الاعانات من روسية . وقد فتحت مدارس جديدة حيث لم يكن . وفي كل هذه المدارس تُعطى الاهمية لتعليم اللغة الروسية ، حتى اخذت هذه اللغة ، في حمص ، تدخل في التراتيل والصلوات الطقسية ، بل في القداس نفسه . ولكن من الراجح ان هذا الحادث موضعي فقط . »[1]

وهذا نصّ آخر نأخذه عن تقرير وضعه ، في السنة ١٩٠٦ ، ش . گيرن ، ولم يُنشر بالطبع ، على ما نعلم . قال (ص ٣٣) :

« ان النفوذ الروسي الذي كان عظيماً قبل الحرب الروسية اليابانية قد ضعف منذئذٍ . » ثم ذكر هذا الامر الغريب وهو « ان ارادة سنية (تركية) حرّمت على المسلمين ان يذهبوا الى المدارس الروسية . وقد نُفذت هذه الارادة . » وكان ذلك قبل سنة ١٩٠٢ ، كما يُستنتج مما تقدّم ، لانه في تلك السنة (١٩٠٢) اعترفت تركية بالمدارس الروسية . اما في ما خصّ عدد هذه المدارس فيذكر منها المقرّر مدرسة للبنات في بيروت ، وبضع مدارس في حمص ، ومدرسة في بسكنتا ، ومدرستين في طرابلس فيهما ٣٧٠ تلميذاً ، ومدرستين في الناصرة فيهما ١٤٥ تلميذاً . ويذكر ان في القدس ٧٠ تلميذاً ، وفي اللاذقية ٢٠٠ تلميذ .

***

هذا ما رأينا استخلاصه من تلك الوثائق الرسمية التي لم يسبق نشرها ، ولا نظن انها تُنشر يوماً ما . عسى ان يكون فيه مادّة للمشتغلين بهذه الناحية من تاريخ سورية المعاصر .

(١) راجع *Relations d'Orient*, 1898, p. 43

عزّ الدين بن شدّاد

وقيمته التاريخيّة

نظرة في تاريخ «العواصم»

بقلم الاب شارل لودي (تُروَى: فرنسة)

يذكر قراء «المشرق» الكرام ما نشرناه عن ابن شدّاد و«اعلاقه الخطيرة» في تاريخ «العواصم»[1]. وقد رأينا ان نتمّ البحث بهذا المقال، فنضع تلك النصوص في مكانها التاريخي. ولهذا دُفعنا الى ترتيب هذه الشروح والمعلومات على اربعة اقسام:

١ – الزحفات البيزنطية على سورية من السنة ٩٦٥ الى السنة ٩٦٩
٢ – حالة سورية السياسية على عهد الفتح الصليبي.
٣ – وقائع نور الدين في سورية الشمالية.
٤ – هجمات ليون الثاني الارمني على انطاكية.

الزحفات البيزنطية

يتبع ابن شدّاد، في هذا الموضوع، معلومات المؤرّخ كمال الدين[2] حتى انه لا يكاد يحيد عنها. على اننا رأينا اعادة النظر في هجمات البيزنطيين على سورية، والتحقيق في تاريخها، من السنة ٩٦٥ الى سنة ٩٦٩. ولاسيما ان التواريخ التي فرضها شاومبرجر[3] بحاجة الى مزيد تدقيق، فضلًا عن كونه قلّما

---

١) اطلب مشرق هذه السنة، ص ١٦١ – ٢٢٤

٢) قابل بما ورد في G. W. Freytag, *Geschichte der Hamdaniden*, in *ZDMG*, XI, (1857) p. 177 sq. et M. Canard, *Sayf al Daula*, Paris-Alger, 1934.

٣) G. Schlumberger, *Un Empereur Byzantin au Xe siècle, Nicéphore*

يذكر المصادر التي استند اليها.

السنة ٣٥٤ (٧ كانون الثاني – ٢٨ كانون الاول ٩٦٥)

في ١٥ شعبان (١٦ آب) خضع رشيق النسيمي، حاكم طرسوس من قِبل الحمدانيين، مستسلماً للروم، فاصبح الامبراطور نقفور سيّداً لتلك المدينة. وتراجع رشيق الى انطاكية[1]. فقام ابن الاهوازي بهياج الثورة في انطاكية، على ما رواه ابن شدّاد[2]. ولم يمضِ شهران على وصول رشيق الى انطاكية (شوّال = ٣٠ ايلول - ٢٩ تشرين الاول) حتى كان سيد المدينة.

وفي اول ذي القعدة (٢٩ تشرين الاول) دخل رشيق حلب[3] فخضعت له الا قلعتها. وكان فيها قَرغُويه، حاكمها لسيف الدولة، فحاصرها رشيق ثلاثة اشهر وعشرة ايام.

السنة ٣٥٥ (٢٨ كانون الاول ٩٦٥–١٧ كانون الاول ٩٦٦)

في ١٠ صفر (٦ شباط) ارسل سيف الدولة جيشاً بقيادة الخادم بشرة، فخلّص حلب من يد رشيق. فلجأ هذا الى الفرار، وبينا هو هارب، سقط عن فرسه، فقُتل.

وقد لحق قرغويه بالمنهزمين حتى ابواب انطاكية. وكان دِزْبر قد تولّى فيها الحكم، فخرج الى قرغويه. وهزمه بدوره حتى حلب. ثم دخل دِزْبر حلب في جمادى الاولى (٢٥ نيسان — ٢٥ ايار). ويزيد فريتاغ ان دِزْبر دخل قلعة حلب. وهو امر صعب تحقيقه، لان المؤلف لا يشير الى النصّ العربي الذي استند اليه في هذا الاستنتاج. وعلى كلٍ فان استيلاء دِزْبر على قلعة حلب يظهر لنا مشكوكاً فيه لسببين: اولاً ان ابن شدّاد يقول عن دِزْبر انه

Phocas, Paris, 1890 et 1923. وهذه الطبعة الثانية لا تختلف عن الاولى الا بحذف الرسوم والصور، وهي التي نشير اليها.

١) راجع المؤرخ يحيى في *P. O., XVIII*, 796.

٢) المشرق المذكور ص ١٨٩–١٩٠؛ وراجع ابن الاثير ٨: ٤١٥–٤١٦، وهو يجمع هذه الحوادث كلها في سنة واحدة.

٣) Freytag, *Gesch. der Hamdaniden*, *ZDMG*, XI, 1857, p. 211

استولى على « البلد » لا على « القلعة » ، وهو يستند الى كمال الدين في كل هذا القسم من تاريخه ، كما قدمنا ، ومن السهل المقارنة بين قوله والنص الاصلي[١] . ولا يخفى ان قلعة حلب تكوّن مدينة في قلب المدينة فيمكنها ان تقاوم الفاتح مدة طويلة ، فليس من اللازم ان من يحتلّ المدينة يدخل القلعة ايضاً ، وهو ما حدث لرشيق عندما فتح حلب . وثانياً ان المؤرّخ يحيى يقول عن دِزْبَر انه اتبع آثار قَرغويه حتى حلب . ثم ان جيوش قرغويه ردّته عنها ، فرجع الى انطاكية[٢] . ولا يخفى ان جيوش قرغويه لم تكن لتقاوم دِزْبَر وتردّه لو كانت القلعة قد سقطت في يده . ولا شكّ في ان قرغويه كان سيد المدينة ، عندما اتى سيف الدولة حلب ، فقضى فيها ليلة بعد ان تبادل الاسرى ونقفور ، ملك الروم (١ رجب ٣٥٥ = ٢٣ حزيران ٩٦٦)[٣] .

على ان ابن شدّاد يزيد الحادث غموضاً اذ يذكر ان سيف الدولة دفع دِزْبَر عن حلب في شهر صفر ٣٥٦ (١٦ كانون الثاني — ١٤ شباط ٩٦٧) . والظاهر انه يخلط بين حوادث صفر هذا وحوادث صفر السابق سنة ٣٥٥ ، وفيها خلّص جيش سيف الدولة حلب من رشيق النسيمي ، على نحو ما تقدّم . ولا يبقى في الامر من شكّ ، اذا عرفنا ان سيف الدولة لم يحتج الى تخليص حلب في صفر ٣٥٦ ، لانه كان فيها ، بينما كان نقفور يقوم بزحفته على سورية (شوال - ذي القعدة ٣٥٦ = ايلول - تشرين الاول ٩٦٦)[٤] . ثم خرج منها الى

---

١) الطلب Freytay, *op. cit.*, 212 والنص ، ص ٤٤ ؛ ولا يخفى ان فريتاغ يكتب تاريخه مستنداً ايضاً الى كمال الدين .

٢) يحيى P. O , XVIII, 798

٣) يحيى : المحل المذكور ، وقابل بقول Schlumberger, *op. cit.*, p. 428 . ويمكن الفرض ان اقتراب سيف الدولة من حلب دفع دِزْبَر الى رفع الحصار عن قلعتها ، والتراجع من المدينة .

٤) وقد يكون شلومبرجر جاهلاً نصّ المؤرّخ يحيى عندما كتب (ص ٤٢٩) « ان المناوشات مع الروم عادت حالاً (بعد رجوع سيف الدولة الى حلب في تموز ٩٦٦) وانه يجب ان نفرض حملة جديدة قام بها نقفور ، ولكننا لا نعرف عنها شيئاً واضحاً . » اما يحيى فيقول (٨٠٥) : ان نقفور سار من سُنينة ، حيث حصل تبادل الاسرى ، الى آمد ،

شيزر . ثمّ إنّا لم يتوفّق ابن شدّاد في ابتعاده عن نصّ كمال الدين .

اما زمن تخليص حلب للمرّة الثانية فيجب ان يوافق اعادة السلطة الحمدانية على انطاكية ، وتفصيل ذلك ان دزْبَر ، بعد ان تراجع عن حلب لاقتراب سيف الدولة منها ، عاد طامعاً فيها ، ولحق جيش سيف الدولة عندما ابتعد هذا عن المدينة ؛ حتى التقى الجيشان في بالس . فكُسِر جيش دزْبَر ، وأُخذ اسيراً هو وابن الاهوازي ؛ فقُتلا . واعطى سيف الدولة حكم انطاكية لخادمه تقي الدين[1]

السنة ٣٥٦ (١٧ كانون الاول ٩٦٦ – ٧ كانون الاول ٩٦٧)

في شهر صفر (١٦ كانون الثاني – ١٤ شباط ٩٦٧) مرض سيف الدولة فنقل من شيزر الى حلب حيث مات . فخلفه ابنه ابو المعالي سعد الدولة شريف[2] .

على ان وفاة سيف الدولة اعادت الاضطرابات الى سورية . وقد كان عامله على انطاكية ، تقي الدين ، رافق جثمانه الى ميّافارقين ، فانتقض اهل انطاكية على الحمدانيين ونادوا بلوش الكردي حاكماً عليهم . وكان في انطاكية كذلك الخراسانيون الذين اتوا غازين بلاد الروم ؛ ويظهر انهم لم يتركوا المدينة قبل حزيران لاننا نراهم فيها في ١٠ جمادى (٢٣ ايار) . ثم تقدّموا منتصرين في مناطق قليقية . وهو ما دفع نقفور الى ان وجّه اليهم بطرس الستراتوبيدارك ، وهو الذي يسمّيه ابن شدّاد الاطربازي ، فكسر الخراسانيين ، ولا نعلم بايّ شهر[3] .

في رجب (١٢ حزيران – ١٢ تموز) رجع ابو المعالي من ميّافارقين ، فدخل

فدارا ، ومنها الى نصيبين . ثم رجع فجأة الى الشرق ووضع الحصار على منبج (١٨ شوال ٣٥٥ = ٧ تشرين الاول ٩٦٦) ودخل آسية الصغرى ساراً بيالس ، وارتاح ، وتيزين وانطاكية . قابل بما يرويه فريتاغ (ص ٢١٣ ؛ وهو يقرأ : « تدرين » بدل « تيزين » .

١) يحيى ، ٨٠٥

٢) يحيى ، ٨٠٧

٣) يحيى ، ٨٠٧ ، ٨٠٦ ، ٨١٢-٨١٤

حلب دخولًا حافلًا[١].

السنة ٣٥٧ (٧ كانون الاول ٩٦٧ – ٢٥ تشرين الثاني ٩٦٨)

في ربيع الثاني (٥ اذار – ٣ نيسان) انتهت المناوشات بين قرغويه وابي فراس بمقتل الشاعر في جوار حمص[٢].

في ذي القعدة (٢٧ ايلول – ٢٦ تشرين الاول) دخل نقفور سورية غازياً فاكتسح وادي العاصي حتى حمص. وهبط منهــا على طرابلس، ثم صار على الساحل حتى انطاكية. ولعلّه كان لا يزال في سورية في اوائل السنة ٣٥٨

السنة ٣٥٨ (٢٥ تشرين الثاني ٩٦٨ – ١٤ تشرين الثاني ٩٦٩)

في محرّم (٢٥ تشرين الثاني – ٢٤ كانون الاول) اخــذ قرغويه يرمي الى الاستقلال بحكم حلب، فاستفاد من بعض الاشاعات المقلقة، وابعد ابا المعالي عن حلب مقنعاً اياه بان نقفور سوف يقضي الشتاء في سورية، ولا شك في انه يحاصر حلب ان لم يسرع صاحبها فيلجأ الى مكان امين. فـاسرع ابو المعالي الى الاتجاه نحو ميّافارقين. ولكنه لم يكد يصل الى بالس، على الطريق، حتى تناول من قرغويه خبرًا يعلمه فيه بانتقاضه عليه، وباستقلاله في حلب[٣]. اما نقفور فلم يقضِ ذاك الشتاء في سورية؛ ولكنه استعـد لغزوة الربيع، فمتر بغراس، ونقل اهل يوقا الى انطاكية، وجهّز جيوشه للحرب. وقضى الطربازي شتاء في قليقية[٤]. على ان نقفور لم يتمكن من القيام بغزوة الربيع، لانه اضطر الى البقاء في بيزنطية، وكان قد زاد شغب السكان عليـه حتى اودى به في آخر السنة نفسها.

في رمضان (١٩ تموز – ١٧ آب) لا تزال المنازعات سائدة في سورية: ابو المعالي جمع رجاله واتى، مستفيدًا من الصيف، فحاصر حلب مدة ثلاثة اشهر[٥]. في انطاكية، ثار الزُّغيلي الاسود، على مضيفه الحاكم علوش الكردي

---

١) Freytag, op. cit., p. 226 ٢) ابن الاثير ٨: ٤٢٤ Freytag, op. cit., p. 227

٣) ابن الاثير ٨: ٤٢٤؛ يحيى، ٨١٥؛ Freytag, 228

٤) راجع «المشرق» ص ١٦١؛ Cedernus (Bonn, II, 364-365

٥) يحيى ٨٢١–٨٢٢

نقتله ، وضبط حكم المدينة[1] .

اما قرغويه فلم يرَ وسيلةً للخروج من موقفه الحرج الّا باستدعاء الطربازي، ووعده باعطائه قسماً من الاراضي . وكان اهل انطاكية قد ارسلوا الى حصن بغراس يعلمون صاحبه بما يسود مدينتهم من الفوضى[2] . فمشى الطربازي على حلب مارًّا ببغراس . فاعلمه صاحبه مخائيل البرجي بحوادث انطاكية . ولم يلبثا ان قرّرا المسير اليها اولًا . فدخلاها معاً في ١٣ ذي الحجة ، (٢٨ تشرين الاول ٩٦٩)[2] ، على ما رواه ابن شدّاد ، في ذاك الوصف الشائق[3] .

ومن هناك سار الطربازي على حلب . فانسحب ابو المعالي الى حمص . وشمل الفرح قرغويه . الا ان فرحه لم يطل ، لان الطربازي اخذ بمحاصرة المدينة لحسابه هو . وبعد ٢٧ يوماً ، سلّمت حلب في صفر (١٤ كانون الاول ٩٦٩ — ١١ كانون الثاني ٩٧٠) فعُقدت معاهدة بين الغالب والمغلوب . وهي معاهدة آية في الاتفاقات السياسية ، وكل ما فيها آئل لمصلحة البيزنطيين . وقد اكثر المؤلفون من وصفها ودرسها ، فلم نرَ حاجة للرجوع اليها[4] .

---

١) كان الرُغيلي مهاجرًا من طرسوس ، لجأ اولًا الى مصر ، ثم الى انطاكية ، فاشترك ببعض الغزوات على بلاد الروم . ثم دخل على علوش مسلّماً ، فهجم عليه وقتله . فتفرّق رجال علوش ، وكانوا كثيرين ، فاستقلّ الرُغيلي بحكم المدينة .

٢) « المشرق » ، ص ١٦١

٣) هو التاريخ الذي يذكره يحيى (٨٢٣) وابن شدّاد . ولا اعلم اي قيمة لما يورده Cedrenus II, 366 ، وهو يخطأ خطأً تاريخياً بجعله فتح انطاكية في السنة الثالثة لنقفور (اذار ٩٦٦ — اذار ٩٦٧) . وقد تعوّد مثل هذا الخطأ . اوَلم يجمع معاً (٣ : ٣٦٤) غزوتين من غزوات نقفور (في السنة ٩٦٦ والسنة ٩٦٨) فيجعلهما غزوةً واحدة؟ وهو يصف فتح انطاكية على الصورة الآتية فيقول : ان مخايل البرجي حاول وحده دخول المدينة مستعيناً بحامية بغراس القليلة . فاحتلّ البرجين . ولكنه حوصر فيها . ثم ارسل الى الاطربازي (ولا نعلم باي طريقة ؟) فاخبره بموقفه الحرج ، فاتى هذا الى معونته بعد ثلاثة ايام ، فخلّصه ، ودخلا المدينة . ولا يخفى ان هذه الرواية يجهلها مؤرخو العرب كافة (ابن الاثير ٨ : ٤٤٤ ؛ ابو المحاسن ٣ : ٤٠٣ ؛ كمال الدين في Freytag, *Gesch.. ZDMG*, XI, 230) كما يجهلها لاون الشماس ، معاصر تلك الحوادث (راجع Leo Diaconus IV (Bonn) 70 sq.)

٤) نُشر نصّ هذه المعاهدة في G. W. Freytag, *Regnum Saahd al Daulae in Oppido Halebo*, Bonn, 1820. p. 9-14 ; M. Canard, *Sayf al Daula*, p. 419-424

سورية على عهد الفتح الصليبي

ان الانقسامات المتتابعة والمطّردة بين امراء سورية التي ساعدت البيزنطيين في حملاتهم على انطاكية ظلّت هي هي حتى عهد الصليبيين ، فساعدت هؤلاء في حروبهم وفتوحاتهم . وهذه ، في ما يلي ، حالة سورية ، عندما تقدّم منها الصليبيون ، في تشرين الاول ١٠٩٧

١ – السلاجقة ومماليكهم المعروفون بالاتابك

كانوا سادة الشمال والساحل حتى اللاذقية ، وسادة المنطقة الداخلية حتى دمشق . ولا يفيد هذا انهم كانوا على حسن تفاهم بعضهم مع البعض . فهذا رضوان بن تتش ، صاحب حلب ، يستعين بسُكمان بن ارتق ، صاحب سروج ، فيهجم على اخيه دُقاق بن تتش ، صاحب دمشق ، ويكسره عند اسوار قنّسرين . وكان دقاق يحلم باخذ حلب مستعيناً بياغي سيان ، صاحب انطاكية[1] .

وهناك خلاف آخر بين رضوان ورجاله انفسهم . من ذلك انه ، على اثر موت تتش سنة ٤٨٧ (١٠٩٤) ، هرب الى حلب احد رجال شحنته السابقين في بغداد ، واسمه يوسف بن ابق ، فلجأ الى جناح الدولة ، احد قوّاد رضوان . وكان في حلب رجل اسمه مجنّ ، وهو قائد الاحداث ، ولم يكن يخلو من طمع في الاستقلال بحكم المدينة ، فاتهم يوسف بن ابق بكونه على اتصال بياغي سيان ، وزيّن لجناح الدولة ان يقتله . فاذن جناح الدولة بقتله . ثم اوهم مجنّ جناح الدولة بان حياته على خطر في حلب . فسار الى حمص واحتلّها . وكان رضوان قد ضجر من اعمال مجنّ ، فقصد تأديبه . فنشبت بين الاثنين معركة دارت رحاها على مجنّ فقتل وكسر جيشه[2] . فبقي على رضوان ان

وقد عاد فريتاغ الى ذكرها في .Gesch. der Hamd (ص ٢٢٤) وذكرها كذلك Schlum-berger, *Nicéphore Phocas* (ص ٧٢٠)

١) ابن الاثير : في السنة ٤٩٠ (١٩ كانون الاول ١٠٩٦ — ٩ كانون الاول ١٠٩٧) ١٠ : ١٨٢—١٨٤ ؛ وقابل : Weil, *Gesch. der Chalifen*, III, 150 sq.

٢) ابن الاثير ١٠ : ١٧٤

يتخلّص من رجال يوسف بن ابق . ولما عرف ياغي سيان بهرب جناح الدولة ، اخذ يتقرب من رضوان[1] ، فتهادنا على ان يساعده رضوان ، اذا ما هاجمه الافرنج في انطاكية[2] . ولكن رضوان لم يرضَ البتة بان يدخل في الحلف الاسلامي على الفرنجة ، اي بين الامراء المسلمين المتحدين على محاربتهم ، وذلك ان اعداءه كانوا كثيرين في ذاك الحلف . فكان من نتائج الامر ان تدخله بشؤون كربنا احدث انشقاقاً في جيوش الامراء المرابطة امام انطاكية ؛ ولم تكن صداقته لسكمان بن ارتق ، المحارب الى جنب دقاق ، لتحسّن صلاته بهذا الامير[3] .

ب – الفاطميون

كان الفاطميون اصحاب السيادة في المناطق الجنوبية . وبعد ان ردّهم السلاجقة مدّة ، عادوا فاسترجعوا اورشليم[4] . وظلّ الساحل في ايديهم حتى طرابلس[5] . فلم يكن يسوءهم ان يشهدوا ضعف السلطة السلجوقية ، حتى

١) ابن الاثير ١٠ : ١٨٢–١٨٤

٢) راجع كمال الدين (H. Or. III, 578) : « وخرج في المحرّم في سنة إحدى وتسعين واربع مائة نحو ثلثين الفاً من الفرنج الى اعمال المسلمين بلد حلب فافسدوا ونهبوا وقتلوا من وجدوا . وكان قد وصل الملك دقاق واتابك (طغتكين) ومعهما جناح الدولة (وهم اعداء رضوان) ونزلوا ارض شيزر ومعهم ابن ياغي سيان وهم سايرون لانجاد ابيه . » ثم يذكر المؤرخ تلاقي قسم من هذا الجيش بالفرنجة ، وتراجع هؤلاء نحو الشمال . ثم عودة هذا الجيش الدمشقي . بعد ذلك يظهر رضوان ومعه سكمان بن ارتق فيزحف على الافرنج زحفة لم ينجح فيها .

٣) يظهر من رواية كمال الدين (ص ٥٧٩) ان سكمان انتقل من محالفة رضوان الى محالفة اخيه دقاق ، وذلك بالتحاقه بالجيش المتحد . على اني لا ارى في هذا الحادث خروجاً على المحالفة الاولى ، فان سكمان كان اضعف من ان يستقلّ بالعمل ، فلزمه اذاً ان يلتحق بذاك الجيش المشترك . ومهما يكن من امر فان النزاع الدائم بين امراء التركمان (راجع « المشرق » ١٩٤–١٩٥) كان ينافي الاتفاق الوثيق . راجع ابن الاثير (H. Or. I, 194) وهو يلقي على كربنا تبعة ذاك الخلاف .

٤) وذلك نحو السنة ٤٨٩ (٣١ كانون الاول ١٠٩٥ – ١٩ كانون الاول ١٠٩٦) على الارجح . اطلب Weil, Gesch. III, 163, 2

٥) في السنة ٤٨٢ (١٦ اذار ١٠٨٩ – ٦ اذار ١٠٩٠) تقدّمت الجيوش المصرية

ان ابن الاثير يتّهمهم صراحةً بانهم دعوا الافرنج « الى الخروج الى الشام. »[1] ومها يكن من امر فاننا نرى وفودهم في جيش الفرنج امام انطاكية[2].

ج – العرب

لم يكن في ايدي العرب ، ذاك الزمن ، الا مناطق صغيرة تكاد لا تذكر في تلك الدولة السلجوقية الباسطة سلطتها على سورية الشمالية بكاملها . وكان يمثلهم بنو كلاب ، وبنو عقيل . وكان لامير بني كلاب ، وثّاب بن محمود ، بعض المواقع في الجزيرة ، احتلّها منذ طرده من حلب[3] . وكان متحداً مع رضوان . وقد حارب في جيشه في السنة ٤٨٨[4] . فكان ان انتسابه الى العرب ، واتحاده مع رضوان جعلاه غير مرغوب فيه في نظر تركمان حمص ودمشق.

اما بنو عقيل فكانوا يسيطرون على الرقة وقلعة جعبر . وليس ما يثبت لنا انّ اميرهم شمس الدولة سليم بن مالك بن بدران كان في جيش كربغا . بيد اننا نظنّ ذلك.

د – الروم

لما اخذ سليمان بن قطلميش انطاكية في السنة ٤٧٧ ، كان فيلاريتوس لا

فاستعادت صور ، وصيدا ، وجبيل ، وعكا (ابن الاثير ١٠ : ١١٦–١١٧) وقد اخضعت صور بعد ان خنقت ثورتها بشدة وقسوة (ابن الاثير ١٠ : ١٥٢) في السنة ٤٨٦ (١ شباط ١٠٩٣ – ٢١ كانون الثاني ١٠٩٦) . راجع ايضاً Et. Quatremère, *Mémoires historiques et géographiques sur l'Egypte*. Paris, 1811, p. 482-486

[1] وهذا قوله : « قيل ان اصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوّة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام الى غزة ولم يبقَ بينهم وبين مصر ولاية تمنعهم من دخول الاقسيس الى مصر وحصرها خافوا فارسلوا الى الفرنج يدعونهم الى الخروج الى الشام . » (*H. Or.* I, 191)

[2] الطلب 234-245 H. Hagenmayer, *Chronologie de la 1re Croisade*, Nos (ROL IV [1898] 536, 596)

[3] ابن الاثير ١٠ : ٧٤ مكرّر

[4] ابن الاثير ١٠ : ١٦٧ . كان وثّاب بترل ، في آخر حياته ، قلعة مصياف ، وفيها مات . الطلب العقدي : مخطوطه في مكتبة تونس رقم ٤٨٠١ ب ، الورقة ٤٠ قفا.

يزال صاحب السيادة في حصن زياد والرها[1] . الا انه لم يلبث ان فقد حصن زياد لعجزه عن تموينه . ثم تقدّم ملكشاه فنزع منه الرها ، بعد ان كان قد تركها بين يديه ، واعطاها للامير بوزان[2]. ثم ان بوزان نفسه قُتل في معركة بينه وبين تتش سنة ٤٨٧ (٢١ كانون الثاني ١٠٩٤ – ١١ كانون الثاني ١٠٩٥)[3].
ولم تكن الرها قد خضعت خضوعاً تاماً للمسلمين ، بل كانت لا تزال على شيء من الاستقلال الداخلي ، مع دفعها الجزية للمسلمين بدليل انه كان لا يزال فيها امير روماني اسمه طوروس ، وهو الذي استقبل بغدوين وتبنّاه[4] . وكان لا ولد له ، فشاء ان يجعل خليفةً في امارته ، فضلاً عن كونه رأى في هذا التبني افضل واسطة ليستقلّ تماماً عن المسلمين . ومعلومٌ ما كان من نصيب طوروس ، وما اظهره بغدوين من نكران الجميل لمن تبنّاه.

وهكذا تظهر لنا سورية مجموعةً من الامارات المتنافسة ، والمقاطعات المتدابرة ، بل المتهالكة في سبيل اضعاف بعضها البعض الآخر . فلا عجب اذاً ان يكون رأى فيها الفرنج ارضاً صالحةً يستغلّون فيها تلك المنازعات الداخلية.

وقائع نور الدين في سورية الشمالية

اطلعتنا الصفحات السابقة على ما كان يقوم به البيزنطيون ، ثم الصليبيون ، من غزوات في مناطق سورية كانت في اكثرها تُسفر عن انتصارات باهرة . وكان من اسباب ذلك انقسام امراء سورية بعضهم على بعض . وسنرى الآن كيف توفق احد كبار القواد الى جمع الكلمة حوله ، فالى مقاومة التيار الفرنجي

---

١) ابن الاثير : H. Or. I, 244
٢) ابن الاثير (Tornberg) ١٠ : ٨٧ ، في السنة ٤٧٩
٣) ابن الاثير ١٠ : ١٥٨
٤) تاريخ متى الرهاوي ... H. Arm. I, 35 ، وهناك ذكر بعض المصادر . ولِيراجع ايضاً Guibert de Nogent, H. Occ. IV, 165 وفيه وصف غريب الطريقة التبني :
«Adoptionis autem talis pro gentis consuetudine dicitur fuisse modus. Intra lineam interulam quam nos vocamus camisiam, nudum intrare cum faciens sibi adstrinxit et haec omnia osculo libato firmavit; idem et mulier post modum fecit.»

مقاومةً ادّت الى نجاح لا يُنكر. وقد فضّلتُ اختيار مثل نور الدين على صلاح الدين، لانه اقلّ شهرة. وفضلًا عن ذلك، فان المؤرخ لا يفهم سرّ اضمحلال مملكة اورشليم اللاتينية في معركة حطين (تموز ١١٨٧)، الا اذا اعتبر ذاك الاضمحلال نهاية نزاع طويل بدأت مظاهره في سقوط كونتية الرها على يد نور الدين.

توفي زنكي في شهر ربيع الثاني سنة ٥٤١ (١٠ ايلول – ٩ تشرين الاول ١١٤٦)، وكانت ممتلكاته تنبسط من الموصل الى حلب بما فيها مدينة الرها التي كانت قد عادت فخضعت للسلطة الاسلامية[1]. فاقتسم ولداه هذا الملك، فنال سيف الدين منطقة الموصل، ونور الدين منطقة حلب. اما الرها فاستدعت اليها جوسلّن[2]. وعادت بعلبك فخضعت لدمشق[3].

ا – هجوم نور الدين على ممتلكات الفرنجة في الرها وانطاكية

اسرع نور الدين الى الرها، فاخمد ثورتها. فهرب جوسلّن الى تلّ باشر (Turbessel). ولم يبقَ من الكونتية الا المواقع الكائنة غربي الفرات، ما عدا البيرة[4]. وفي السنة التالية اي ٥٤٢ (٢ حزيران ١١٤٧–٢٢ ايار ١١٤٨) وجّه نور الدين جيوشه جهة امارة انطاكية فانتزع ارتاح[5]. فاضطربت انطاكية، اذ شعرت بقرب العدوّ، ولم تكن ارتاح الا على نحو ثلاثين كيلومترًا منها.

وفي السنة ٥٤٣ (١١٤٨) كان نور الدين قد جمع جيوشه للمدافعة عن دمشق[6]، فقادها الى غزوة جهات انطاكية ولكنه لم يتوفق، اذ تصدّى له

١) في ١٦ جمادى الثاني ٥٣٩ = ١٤ كانون الاول ١١٤٤؛ ابن الاثير H. Or. I, 443

٢) ابن الاثير H. Or. I, 457

٣) ابن الاثير H. Or. I, 459

٤) ابن الاثير H. Or. I, 445: احتل الاتابك سروج وغيرها من ممتلكات الفرنج شرقي الفرات.

٥) ابو شامة: كتاب الروضتين H. Or. IV؛ ابن الاثير، ٤٦١

٦) لا يخفى ان سقوط الرها كان من الاسباب التي دفعت الى تسيير الزحفة الصليبية الثانية، وتقدّمها نحو دمشق. الا انها لم تنجح في هجومها على المدينة (٦ ربيع الاول ٥٤٣ = ٢٥ تموز ١١٤٨)

جوسلّن وكسره في ضواحي افامية[١].

على ان السنة التالية كانت اوفر عائدة على نور الدين. فانتصر على الفرنج في إنّب انتصارًا باهرًا، وذلك في ٢١ صفر ٥٤٤ (٢٩ حزيران ١١٤٩). وقد اسفرت تلك المعركة عن قتل ريموند، امير انطاكية[٢]، وفي السنة نفسها دخل نور الدين افامية[٣].

في ٥ محرّم من السنة التالية ٥٤٥ (٥ ايار ١١٥١) وقع جوسلّن اسيرًا في قبضة نور الدين[٤]، فكان آخر العهد بكونتية الرها. ولم ينتشر هذا الخبر حتى مشى مسعود بن قليج ارسلان على ممتلكات الفرنجة نحو الجنوب. وكان قد استفاد من مقتل ريمون في السنة السابقة، فانتزع من جوسلّن بضعة مراكز منها مرعش، وكركر، وحاصر جوسلّن نفسه في تل باشر، ولكن هذا هادنه على مبلغ من المال[٥]. اما هذه السنة فقد تقدم مسعود، وانتزع كيسوم، وبهسنة، واتفق مع نور الدين على حصار تل باشر، ولكنه لم ينجح[٦]. بينا كان نور الدين ماضيًا في زحفه ينتزع المركز بعد المركز حتى لم يبقَ من الكونتية الا مواقع معدودة منها تل باشر، وروندان، والبيرة، وسميسة. عند ذلك خشي بغدوين ان يعجز عن المحافظة على ما بقي له من الحصون، فسلّمها للبيزنطيين[٧]. فاسرع نور الدين في الاستيلاء عليها واقتسم المنطقة بينه

---

١) ابو شامة H. Or. IV, 60

٢) ابو شامة H. Or. 62-63

٣) ملخص من قول ابي شامة. اما ابن الاثير فيعين للحادث سنة ٥٤٥ (H. Or.I, 478)

٤) ابو شامة H. Or. IV, 67 ؛ قابل بابن الاثير H. Or. I, 480

٥) راجع ما تقدّم ذكره من المصادر، ثم : Rœhricht, *Geschichte der Kœnigreiches Jerusalem*, 266

٦) وذلك في رجب ٥٤٥ (٢٦ تشرين الاول – ٢٣ تشرين الثاني ١١٥٠). راجع H. Or. IV, 67-68. اما ابن شدّاد (« المشرق » ٢١١–٢١٢) فيذكر ان مسعودًا اخذ دلوك في السنة ٥٤٤.

٧) كان بغدوين الثالث، ملك اورشليم، يتولى حكم انطاكية منتظرًا ان يبلغ بوهيمند الثالث رشده. ولكن لما تزوّج رينولد دي شاتيلون كونستنسية، سنة ١١٥٣، تنحّى له عن الحكم.

وبين مسعود ، ومُحي من الوجود ذكر كونتية الرها .

ب – وقائع نور الدين مع سلطنة الروم

على اثر اقتسام المناطق التي كان يملكها مسعود نال ابنه قليج ارسلان سلطنة الروم[١]. فاستفاد نور الدين من الاضطراب اللازم لكل انتقال في السلطنة، وهجم على اراضي قليج ، فانتزع منها عينتاب[٢]. ثم بعد ان احتلّ دمشق (٢٦ نيسان ١١٥٤) عاد الى ارض السلطنة فانتزع منها دلوك ، ورعبان ، وكيسوم . فعتب عليه الامراء وذكّروه عهده للسلطان مسعود ، فردّها[٣]. واقام ينتظر مدة طويلة يتابع تدخّلاته في شؤون السلطنة. حتى كانت السنة ٥٦٨ (١١٧٢–١١٧٣) فنزع قليج ارسلان ممتلكات ذي النون بن دنشمند ، صاحب سيواس وسيسة . فاستغاث هذا بنور الدين . فزحف نور الدين على بلاد قليج ، وملك نهائيًا رعبان ، ودلوك ، ومرعش، وبهسنة[٤]. فعادت سلطنة الروم الى حدودها الاصلية؛ اي الى الحدود التي كانت لمملكة مسعود قبل توسّعه بما احتلّه من اراضي كونتيّة الرها.

ج – وقائع نور الدين مع امارة انطاكية

كانت القلعة الاخيرة التي توقف نور الدين في طريقه الى انطاكية قلعة حارم، فاخذ يحاول اخضاعها حتى نجح في السنة ٥٥٩ ؛ فدخلها ، على اثر معركة

---

١) يظهر ان السلطان مسعودًا قسم ممتلكاته في حياته . وقد يكون حصل ذلك سنة ٥٤٧ (نيسان ١١٥٢ – آذار ١١٥٣) . وهي السنة التي يبيّن فيها اسامة بن منقذ وفاة السلطان مسعود (راجع Roehricht, op. cit, 281) على ان de Zambaur, *Manuel de chronologie* يبيّن لوفاة مسعود السنة ٥٥١ ، ولعله الارجح .

٢) في السنة ٥٤٨ (اذار ١١٥٣ – اذار ١١٥٤) راجع Roehricht, 281 ، بناء على روايتي ابن الاثير وابي الفرج .

٣) وذلك في السنة ٥٥٠ (٧ اذار ١١٥٥ – ٢٥ شباط ١١٥٦) ، وقد انفرد ابن شدّاد بذكر غزوة في هذه السنة (المشرق ، ٢١٠) .

٤) هي السنة التي يذكرها كمال الدين (*ROL*, 1895, p. 554) ، وابن الاثير (*H. Or.* I, 591) اما ابن شدّاد فيبيّن لذلك السنة ٥٥٤ (٢٣ كانون الثاني ١١٥٩ – ١٢ كانون الثاني ١١٦٠) .

شديدة أُسر فيها بوهيمند الثالث ، امير انطاكية[1] . فلم يبقَ ما يمنع نور الدين من السير على انطاكية . على انه اظهر من الحكمة والرصانة ما لم يظهره اعداؤه من قوّاد الزحفة الصليبية الثانية ، اذ اسرعوا في الهجوم على دمشق ، فلاقوا الفشل ؛ فلم يسرع في الزحف على انطاكية ، بل تركها مستقلّة ، عاجزة عن ازعاجه . وذلك انه كان يخشى ، اذا مشى عليها ، ان يستنيث اصحابها بمانويل كومنين[2] .

توفي نور الدين سنة ١١٧٤ ، بعد ان حمل على الفرنج حملات قويّة زعزع فيها موقفهم في الشرق . فانتزع المناطق العديدة من ايديهم . ونجح في مصر ، فلاشى سلطة أموري ، فاستقرّت سلطة صلاح الدين ؛ ونجح في سورية فوحّد كلمة الامراء المسلمين فيها ، وانتزع كثيرًا من الامارات اللاتينية . فمهّد السبيل ، في كل هذا ، لصلاح الدين ، وهيأ له طرق الانتصار . وقد حقّ لمؤرخي الاسلام ان يظهروا عليه الأسف ، ويغدقوا المدح والثناء .

لاون الثاني الارمني ومعضلة انطاكية

رأينا ما كان من قيام امراء الاسلام على الفرنجة من كل جهة ، وما كان من انتصاراتهم المتتابعة . على ان كل هذه الاخطار الخارجية ما كانت لتهيب بامراء النصارى الى الاتحاد والتآلف ، بل الى خلق كافٍ ليضمن لهم مقاومة الاعداء . وافضل مثال على هذا الانشقاق الداخلي المقيت ما نراه في النزاع الطويل بين لاون الثاني الارمني وامراء انطاكية . وهو آخر الاقسام المهمة في تاريخ عز الدين بن شدّاد . وسنجتهد بتلخيص اسباب هذا النزاع ، وتطوراته ، وكيف

---

١) في ١٠ آب ١١٦٤ . وهو التاريخ الذي يذكره ابن الاثير . وليس من اتفاق بين المصدرين الاساسيّين لتاريخ نور الدين . راجع ابن الاثير *H. Or.* I, 477, 501, 537 – 540 وابا شامة *H. Or.*, IV, 83, 85, 105, 126

٢) وانا نشير هنا الى تلك الحفلة بدخول مانويل كومنين انطاكية في عيد الفصح ١١٥٩ والى اقترانه بماري الانطاكية ابنة ريموند ، في كنيسة القديسة صوفيا ، نهار عيد الميلاد من سنة ١١٦١

انتهى به الحل[١].

١ – اسباب النزاع

لم تكن العلاقات بين إمارة انطاكية ومملكة سيس الارمنية على نصيب من الصفاء الدائم. فانه على اثر وفاة مانويل كومنين في السنة ١١٨٠، هجم روبين الثالث، صاحب سيس، على مناطق الروم، فانتزع منها طرسوس ومامشترا. فنازعه هيطوم، صاحب لامبرون، وصديق الروم المخلص. فمشى روبين، سنة ١١٨٣، على بلاد هيطوم. فما كان من هذا الا ان لجأ الى معونة بوهيمند، امير انطاكية. وكان هذا على قسط من الدهاء، فاحتال حتى اوقع روبين في شرك واخذه اسيرًا. فخلفه اخوه لاون على حرب لامبرون واضطرّ صاحبها هيطوم الى ان يطلب من بوهيمند اخلاء سبيل الاسير. فرضي بوهيمند باخلاء سبيل روبين، على شرط ان يوسّع مناطق امارته حتى جيحون[٢].

وكان من انتقام الامير الارمني ان هجم على ارض بوهيمند فاحتلّ بَغراس[٣]، واخذ يهدّد انطاكية.

وفي ٢١ شوّال ٥٨٨ (٣٠ تشرين الاول ١١٩٢)، كان صلاح الدين يستقبل، في بيروت، بوهيمند الثالث، امير انطاكية، آتيًا للمصافاة والصلح. وكان ذاك الاستقبال على غاية من الودّ، وقد أخذ صلاح الدين بالثقة التي اظهرها ضيفه، اذ اتى اليه دون ان يطلب « الامان ». فدخل واثقًا بعدل

---

١) يمكن الرجوع في هذا البحث الى M. Ališan et G. Bayan, *Léon le Magnifique, premier roi de Sissouan ou de l'Arméno-Cilicie*, Venise, 1888, ch. VI, p. 221 وهو على قسط وافر من الغموض. ثم A. Luchaire, *Innocent III. La Question d'Orient*, Paris, 1907، وهو لا يذكر المصادر.

٢) راجع Tchamitch, *H. Arm.* I, 394, note، وهو يذكر، في هذه الفترة، « زفاف اليس، ابنة روبين، الى بوهيمند، الثاني من ابناء بامب ». ولا يغفل لاون عندما يأسر بوهيمند، في بَغراس، عن ان يذكره أسره روبين اخاه.

٣) يذكر ابن شدّاد تاريخًا غير دقيق بشأن احتلال لاون حصن بغراس سنة ٥٨٨. ولا شك في ان ذلك جرى قبيل زيارة بوهيمند لصلاح الدين، التي تظهر لنا من نتائج ذاك الاحتلال.

السلطان الايوبي. واستفاد من ذاك الجوّ المفعم بروح الصداقة « فشكا للسلطان ما يقاسيه في جوار لاون ، ملك سيس ، منذ ان احتلّ هذا حصن بغراس . فوعده السلطان بما يفرح قلبه »[٣].

بيد انه كان للاون جواسيس في بيروت ، فنقلوا اليه كل ما دار بين الاميرَين ، فجزم بان يبدأ الزحف على ارض بوهيمند[١] . فنصب شرك بغراس الذي نجح كل النجاح ثم حاول هجمةً على انطاكية لم تنجح[٢]. على ان بوهيمند ظلّ اسيره حتى السنة ١١٩٥ . فاخذ هنري دي شمباني يناوض لاون بشأن اطلاقه ، على الشروط الاتية : ١ً ان ريموند ، كونت طرابلس ، وبكر بوهيمند الثالث ، امير انطاكية ، يتزوج اليس ابنة اخ لاون الثاني . والولد الذي يثمر عنه هذا الزواج يكون وارثاً لإمارتي انطاكية وارمينية . ٢ً تعاد الحدود موقتاً ، بين الامارتين ، الى بورتيل[٣] . ولا يظهر ان الكلام تناول حصن بغراس ، فبقي ظلماً في يد لاون[٤].

في السنة ١١٩٨ ، توفي ريموند عن غلام ذكر دعي ريموند - روبين ، وقد اقرّ له بوهيمند الثالث بحقه في خلافته على امارة انطاكية ، وفقاً لما تنص عليه معاهدة سنة ١١٩٥ المذكورة[٥]. الا ان بوهيمند الرابع ، اخا ريموند المتوفى ، لم يرضَ بان يرى نفسه محروماً من الامارة . فعمل على اقصاء ابيه الشيخ عن الحكم ، ونادى بنفسه امير انطاكية . فخاف لاون على ابنة اخيه اليس وعلى ابنها ، فأخذها ووضعها في مأمن في قليقية. ومن ثمّ بدأ النزاع بين الاميرين :

---

١) اطلب *Le livre d'Eracles* (*H. Occ.* II, 107) ، وهو يتهم بتلك الخيانة امرأة بوهيمند .

٢) « المشرق » ، ص ١٩٦

٣) Sempad, *H. Arm.* I, 632 ; Eracles, *H. Occ.* II, 212 (D) et 215 (B); Tchamitch, H. *Arm.* I, 394

٤) كان من الحق ان يعود حصن بغراس الى إمارة انطاكية ، لانه واقع في منطقتها التي حُدّدت مجدّداً ، او الى فرسان الهيكل ، اوه (تامبليين »، اصحابه السابقين . ولكن هؤلاء كانوا من اصدقاء بوهيمند .

٥) اطلب *M. L.*, 214, col. 810-811

الانطاكي والارمني.

ب – تطوّر النزاع

وكان لاون قد تناول تاج الملك، في آن واحد، من الامبراطور الرومي المنفصل عن رومة، ومن البابا نفسه[1]. ففكر بانه قد يؤكد النجاح في حملته على إمارة انطاكية، اذا جعل البابا يتدخل بتلك الشؤون، فرفع اليه النزاع، طالبًا حكمه[2]. وفي الوقت نفسه قام التامبلية يحتجون، في البلاط البابوي، على ملك ارمينية ويطلبون ان يرجع اليهم حصن بَغراس. وفي ايديهم رسالة وقعها البابا اينوشنسيوس الثالث قبل السنة ١٢٠١، ووجّهها الى لاون بارجاع الحصن المذكور[3].

اما في شأن النزاع بين ارمينية وانطاكية، فقد اجاب اينوشنسيوس الثالث بانه عهد الى موفديه في درس ذاك المشكل وفي حلّه. وسيسافر الموفدون مع الحملة الجديدة[4].

ولكن لاون لم ينتظر وصول الوفد. فلم يكد يعرف بوفاة بوهيمند الثالث سنة ١٢٠١[5]، حتى هجم مسلحًا على انطاكية. وكان بوهيمند الرابع قد جمع رجاله فقاومه. وارسل فطلب معونة ركن الدين سليمان، سلطان

١) كان لاون الارمني يلعب على الحبلين مرضيًا اللاتين واليونان، او غاشًا كلًّا من الفريقين. اطلب Guiragos de Kantzag, *H. Arm.*, I, 423. وكان اللاتين، قبل مسحه ملكًا، قد طلبوا منه ادخال اصلاحات طقسية ثلاثة تتعلّق بالاحتفال ببعض الاعياد، وتلاوة الفرض، والقطاعة في بيرمون الميلاد والفصح. فرفض الاساقفة الارمن. فخدعهم لاون من حذقهم قائلًا: «لا تخافوا، سأرضي اللاتين بالخضوع الخارجي فقط». – وقد حضر بطريرك طرسوس اليوناني حفلة تتويج لاون (قابل بما ذكر Sempad, *H. Arm.* I, 633)، وفي السنة ١١٩٧ ارسل لاون الى عكا وفدًا يطلب التاج الذي اعطاه هنري السادس، وهو الذي كان قد طلبه لاون من البابا سنة ١١٩٥. وفي الوقت نفسه ارسل لاون الى القسطنطينية وفدًا آخر يؤكد للامبراطور «وفاءه واخلاصه».

٢) اطلب *M. L.*, 214. col. 810-812

٣) *M. L.*, 214, col. 819-820

٤) *M. L.*, 214, 813-814 (XVI kal. Januarii 1199)

٥) *Archives de l'Orient Latin. Annales de Terre Sainte*, II, ii, 434

الروم ، فاضطر لاون الى الرجوع عن انطاكية . ولم يخجل ان يكتب الى البابا اينوشنسيوس الثالث بانه ترك كل الاعمال الحربية « حباً للبابا »[١].

اول بعثة بابوية

فاجاب البابا لاون مخبراً بارسال البعثة التي من شأنها ان تحكم في النزاع بينه وبين كونت طرابلس (اي بوهيمند الرابع المطالب بامارة انطاكية)[٢] وكانت البعثة مؤلفة من الكردينال سوفريد الحامل لقب القديسة براكسيد ، والكردينال بطرس، الحامل لقب القديسة سوسان. وقد ترك كلٌّ منهما تقريراً ضافياً عن عملهما ، هذه خلاصته :

طلب سوفريد الى طرابلس كلًّا من الاميرين المتنازعين ، في شتاء السنة ١٢٠٢ — ١٢٠٣ . فجاءها بوهيمند الرابع للنظر في بعض شؤونه ، ولكنه لم يتنازل لمقابلة سوفريد ، ولا اراد ان يتصل به حتى بواسطة غيره[٣] . فبادر سوفريد الى عكا، على انه نزولاً عند رغبة ملك اورشليم ، ورئيس التامبلية ، وكثير من امراء الفرنج ، ركب البحر جهة انطاكية . فحضر الى مواجهته ، ملك ارمينية ؛ ولا يقول هل حضر بوهيمند ام لا . لكننا نستنتج انه لم يحضر، لما ظهر منه سابقاً من الانصراف عن سوفريد. على ان حاشية الكردينال كانت مائلةً كل الميل الى كونت طرابلس. حتى ان سوفريد نفسه ، على ما ظهر له من حقِّ ملك ارمينية ، لم يتمكن من انالته مبتغاه . فانسحب متأثراً آسفاً الى حصن المرقب.

وكان الكردينال بطرس قد وصل عكاً في صيف السنة ١٢٠٣ ، آملاً ان يرافقه النجاح ، فيكون اسعد حظاً من زميله . فكان اول ما قام به انه اتى انطاكية ، وجرّب حلولاً ثلاثة : اولها حلٌّ حبي بين المتنازعَين ؛ فلم ينجح فلجأ الى المفاوضات ، وعرض عليهما اقتراحاً مآله ان « الفريقين المتنازعين يتركان له وللسيد الكردينال (سوفريد) ، ان يتفقا ويحكما حسب العدل

---

١) كتب من سيس بتاريخ تشرين الاول ١٢٠١ *M. L.*, 214, col. 1003-1006

٢) *Gesta*, CLI-CLIX وقابل بما في *M. L.*, 214, col. 1007

٣) *Gesta, l. cit.*

والانصاف »، فلم يلاقِ هذا الاقتراح قبولًا . اخيرًا اعلن انه مستعدٌ للفصل بين المتنــازعين اذا رفعا اليه دعواهما . ولكن لم يتقدّم احد بدعواه . عندئذٍ « ظهر من الفريقين مشاحنات كثيرة ، وكلمات يطول بنا سردها » ، فانسحب الكردينال بطرس الى عكا ، بعد ان حرّم على المتنازعين ان يلجآ الى الحرب . ثمّ ارسل اليهما من عكا طلبًا بالحضور الى محكمته ، والّا فانه يحرمهما . اما ملك ارمينية فاجاب . واما كونت طرابلس ، فلم يجب ولم يعيّن احدًا موفــدًا عنه . على ان الكردينالَين لم يعلنــا حرمه واكتفيا بان صرّحا بعدم تمكنهما متابعة تلك القضية ، لاضطرارهمــا الى السفر نحو القسطنطينية ، وعليهما فيها واجبات بشأن معونة زوّار الارض المقدسة[1] .

وبــين قرار الكردينال سوفريد ، وقرار الكردينال بطرس ، يجب ان نذكر ، في عيد القديس مارتين سنة ١٢٠٣ ، غزوة قام بها لاون على انطاكية . فردّه عنهــا الملك الظاهر ، سلطان حلب . وكان التاملية يسندون حزب بوهيمند[2] . فانتقم منهم لاون بان انتزع ممتلكاتهم في ارمينية واشهرهــا : لاروش غليوم ، ولاروش روسول ، واصابهم بكثير من الاضرار[3] . فكان من نتيجة ذلك انه رُشق بالحرم . ولكنه عــاد فتصالح مع البعثة البابوية في عكا ، في ايلول ١٢٠٤ ، عندما ارسل الكردينال بطرس فدعــا المتنازعين الى محكمته .

وفي محرّم ٦٠١ (٢٩ آب – ٢٨ ايلول ١٢٠٤) ، نزى لاون من جديــد يحاصر انطاكية ، فيصدّه عنها الملك الظاهر مرةً ثانية[4] .

---

١) *Gesta. Inn. III, M. L.*, 214, col. CLVI sq.

٢) راجع *Ann. Terr. Sainte* dans *Arch. Or. Latin*, II, ii, 435 وقابل بما في *M. L*, 215, col. 687-689 ، و« المشرق » ، ص ٢٠١

٣) *M. L.*, 215, col. 504 ، وليس من تاريخ لرسالة اينوشنيوس الثالث التي يلوم بها لاون على هذه التعديات . اطلب (Rey *R.O.L.* IV, 387 ، وهو يميل الى تأريخها في ١٢٠٧ (كذا ، ص ٢٢٥) . اما مؤرّخو الصليبيين فلم يتعرّضوا لذكر هذا الحادث .

٤) كمال الدين *R.O.L.*, V (1897), p. 41

البعثة البابوية الثانية

عندما تحقق لاون، كل مـا يجابهه من الصعوبات في سبيل الوصول الى انطاكية عنوةً، اخذ يحاول حلاً سلمياً جديداً، فكتب الى البابا، يطالبه بكل احترام ان يعيد، في حلّ ذاك النزاع، الى « قضاة فوق الظنون»[1]. وذلك بعد ان سرد له ملخص الحوادث، على طريقة توافقه طبعاً.

فاجاب اينوشنسيوس الثالث بتعيين قضاة جدد[2]. ولا نعلم هل قدمت هذه البعثة الى الشرق ام لا. الا اننا نتحقق ان لاون عاد الى الحرب في جمادى الاولى سنة ٦٠٢ (١٤ كانون الاول ١٢٠٥ – ١٣ كانون الثاني ١٢٠٦)[3]. ولكنه لم يتوفق هذه المرّة ايضاً، ففشلت مساعيه، واضطره الملك الظاهر، الى عقد مهادنة مدّتها ثماني سنوات، يمتنع فيها عن كل محاولة في سبيل فتح انطاكية[4].

- ثورة العامة في انطاكية

ولا نعلم هل كان للاون ضلع في هياج الثورة في انطاكية سنة ١٢٠٧[5]. ولا يفيدنا ابن شدّاد شيئاً واضحاً في الموضوع. على انه يذكر بطريقاً هيّج حركة ثورية، فقُتل. ونحن نعرف ان بوهيمند كان قد نصب في انطاكية بطريقاً من الروم المنفصلين، اسمه سمعان الثالث يوليانس[6]. فلا غرابة بان يكون قد عمد الى الانتقام من لاون، لتدخله بشؤون الإمـارة، فاستدعى سلطان الروم كيكاوس الاول من قليقية، رامياً في ذلك، الى شغل لاون، وصرفه عن

١) M. L., 215, col. 687-692

٢) M. L., 215, col. 557-559 (VI Nonas Martii 1205)

٣) كمال الدين R.O.L., V, 43

٤) كمال الدين: المحلّ نفسه.

٥) *Ann. de Terre Sainte, Or. Lat.*, II, ii, 436، ولا يميز هذا المصدر بين توقيف البطريق، ووفاته. قابل بما في *His. Occ.*, II, 313-314 : *M. L.*, 215, col. 1321-1323, Fev. 1207

٦) راجع Rey. *Les dignitaires de la principauté d'Antioche*, R.O.L. VIII, (1900-1901), p. 137, 149

الهجوم على انطاكية . الا ان لاون سيّر الملك العادل ، وهو اقوى السلاجقة ، فاضطر كيكاوس الى عقد الصلح . وكان من شروط هذا الصلح ان لاون يترك انطاكية وشأنها ، ويُعيد حصن بَغراس الى التاملية[١] .

ومن المعلوم مـا اتصف به موقف اينوشنسيوس الثالث من الحزم في هذه الحادثة . فانه احتجّ بشدّة على حبس بطرس الاول دانغوليم ، بطريرك انطاكية اللاتيني ، وسفّه تعدّيات بوهيمند التي سبّبت وفاته ، وانتهى بان حرم بوهيمند[٢] .

البعثة البابوية الثالثة

وكان من نصيب لاون ان يستفيد من موقف بوهيمند الحرج على اثر وفاة البطريرك اللاتيني ، فيطلب من الحبر الاعظم ان يتدخل بذاك النزاع ، للمرّة الثالثة . فارسل وفداً الى رومة . فاجابه البابا بانه يعهد ، للمرّة الثالثة ، الى وفد خاص ، يحلّ ذاك المشكل[٣] . ولا نعلم شيئاً عن اعمال هذه البعثة . ومهما يكن من امر فان لاون لم يرضَ بها . وذلك اننا نراه يعود الى طرق ابواب رومة ، فيطلب بواسطة موفديه ، تأليف لجنة بابوية جديدة .

وقد وقع اختيار البـابا ، هذه المرّة ، على سيكار ، اسقف كريمونه ، فكلّفه درس النزاع وحلّه ، وفي غيابه يعود الحق لبطاركة انطاكية ، فيكتهم ان يحكموا ، وينفّذوا حكمهم بقوّة الحرم[٤] . ولكن لاون لم يحضر المحاكمة ، بل عاد الى الاعمال الحربية فاحتلّ پور بونيل من ارض التاملية ، على حدود ارمينية ، واخـذ يكتسح سائر ممتلكاتهم ، حتى تلك التي كانت تعطيه وارداتها . فتفاقم بعمله الخطب ، ولم يبقَ في وسع البابا ان لا يحرمه ، فرشقه

---

١) كمال الدين : ك . م . ٤٥ ، في السنة ٦٠٥ (١٦ تموز ١٢٠٨ - ٦ تموز ١٢٠٩)

٢) *M. L.*, 215, col. 1345 et 1428-29

٣) *M. L.*, 216,54-56 (II nonas Jun. 1209) ، والراجح ان هذه البعثة لم تأتِ الشرق ، لان بعثة سيكار (Sicard) ، تمت بعد هذا التأريخ بزمن قليل ولعل البابا قد اشار الى بعثة سيكار في جوابه المذكور .

٤) *M. L.*, 216, col. 310-311 (XIII Kal. Sep. 1210)

بالحرم وامر ملك اورشليم بان يساعد التامبلية في المطالبة بحقوقهم [١] . فجهز هؤلاء جيشاً ، واخذوا بالزحف على ارض لاون . فارجع اليهم حصن بغراس [٢] .

ج – حلّ النزاع : فتح انطاكية

وكانت السنون التالية احسن طالعاً على لاون . فانه لم تنته تلك المدة ، مدة الثماني سنوات ، التي عقدها مع الملك الظاهر ، وكان من شروطها انه لا يحاول هجوماً على انطاكية ، حتى اخذ يعيث في اراضيها فوجّه اليه البابا الملام [٣] .

ولما كانت قضية النزاع لا تزال معلقة في المحكمة الاكليريكية ، اراد لاون ان يتظاهر بالخضوع هذه المرة . الا ان بوهيمند لم يحضر المحاكمة [٤] . وصرح انه لا يتعلّق منذ اليوم الا بامبراطور الروم وحده . فزاد المشكل تعقداً حتى ظهر حله مستحيلاً .

بيدَ ان لاون وجد طريق الحلّ . وذلك انه عمل على ازدياد افراد حزبه في انطاكية ، ثم ارسل اليها قسماً من اتباعه ، حتى اذا بلغوا عدداً مهماً ، دخل المدينة ، دون حرب ولا مقاومة ، في ١٢ شباط ١٢١٧ . فانتهى ذاك النزاع المستطيل .

النتيجة

لا شكّ في ان المطالعين الكرام ، وقد قرأوا نصّ « الاعلاق » وتعليقنا عليه ، قدروا قيمة ابن شدّاد التاريخية . ولا يضيره ما هناك من اخطاء واضطرابات لا يخلو منها تأليف من هذا النوع . على ان ما يجعل له ميزة خاصة تلك الدقائق التاريخية المفيدة التي يودعها معلوماته ، ولاسيما ما اختصّ منها

(١ M. L., 216, col. 430-431 (XV Kal. Junii 1211)

(٢ Eracles, *H. Occ.*, II, 317

(٣ M. L., 216, 781-786

(٤ M. L., 216, 792-793

بالزمن القصير الذي كان فيه شاهد عيان.

ولربّ سائل يسأل لماذا اهتممت بفصل قليل الاهمية « كالعواصم »، بالنسبة الى ما هناك في تأليف ابن شدّاد من فصول تدل على مقدرته في الخطط كوصفه مدينة حلب مثلاً. فأجيبه، بكل بساطة، ان وصف مدينة حلب منقول بالحرف تقريباً الى كتاب ابن الشحنة « الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب »، ما عدا الفصلين المختصّين بجوامع حلب ومدارسها، فانهما ملخّصان في الكتاب المذكور. ولا يزيد ابن الشحنة على ذلك الا أخطاء في القراءة، وبعض التقديم والتأخير، وزيادات اخذها عن ابن خطيب الناصرية وابي ذر. ولا يخفى ان نشر وصف حلب هذا عمل سهل سوف لا يتأخر طويلاً.

ولهذا رأيت ان انشر من « الاعلاق »، ما كان اقلّ شهرةً، واصعب منالاً. ولعلّي وُفِّقتُ في شيء من ذلك!

شذرات

مجلة مجمع اللغة العربية الملكي*

في ١٣ كانون الاول ١٩٣٢ ، صدر من سراي عابدين ، في القاهرة ، مرسوم جلالة الملك فؤاد ، وبموجبه أُنشئ مجمع اللغة العربية وقرّر اصدار مجلته لنشر ابحاثه وأهمّ اعماله . وعُيّن عدد الاعضاء العاملين والفخريين فيه ، فضلاً عن المراسلين « من غير تقيد بجنسية او دين » .

وفي ٣٠ كانون الثاني سنة ١٩٣٤ ، أُفتتح المجمع ، ثم عُقدت جلساته وتوالت . وفي اوائل العام ١٩٣٥ صدرت مجلة المجمع ووصلت الينا بارزةً بحجم جليل وطبع انيق ، تتصدرها صورة الملك فؤاد « مجدد النهضة العربية » .

يحتوي العدد الاول خلاصة اعمال المجمع في سنته الاولى ، وابحاثاً عديدة نذكر منها القرارات العلمية ، وفيها ١٧ بنداً كل بند اشبه بقاعدة ادخلها المجمع في غراماطيق اللغة او أقرّها فيه ؛ ومن بعدها لائحة الاسماء الموضوعة لمسمّيات في شؤون مختلفة : كبناء البيت ، والمائدة ، والمكتب وادواته ، والسكك الحديدية ، والدباغة ، والملابس والزينة ، والآلات والادوات ، وغيرها من الفاظ علمية وطبية . تلك الابحاث عرضها المجمع على الخاصة والعامة ممن يهمهم مصير اللغة العربية واستفتاهم في شأنها .

وانما ارجأنا الكلام في مجلة المجمع على امل ان نقرأ صداها في المجلات والصحف ، فنستعين باقوال الكتاب على الالمام بمواضيع البحث ، ولا نبدي رأينا فيه الا عن التمحيص والتروي المرهون بمبادئ اصول اللغة وتطورها في حكم الشعب الناطق بها .

ولكن لم تتجاوز اقوال الصحف والمجلات حدود النقد او التقريظ على العموم الا في النادر ، كأنها اشعرت بحراجة الموقف وصعوبة الطريق ؛ فمجلة

* القاهرة ، المطبعة الاميرية ببولاق ، ١٩٣٥ ، ص ٤٠٠ ، قطع ٨ كبير .

المجمع العلمي العربي الدمشقي اقتصرت على ذكرى تأسيس المجمع (١٣ جزء ٥—٦ ص ٢٥٩) واصدر حضرة الاب انستاس الكرملي في المقتطف (٨٧، ٢ ص ١٣٦) مقالاً عنوانه: «بحث لغوي في مجلة المجمع الملكي»، لم يأت فيه الا على نقد النسبة الى فعيل وفعيلة.

وكان «للمسرّة» الحظ الاوفر في الكلام على مجلة المجمع فخصتها بمقال مطوّل (حزيران، ص ٣٨٧ — ٣٩٠ وتموز، ص ٤٤٩ — ٤٥٥) ولما النظرات القيمة في مهمة المجمع، وهي: «أن يكون المغربل لاوضاع الكتّاب لا المغربَل» وألا يضيّق على الكتّاب فينفرهم من امهم ويلجئهم الى عقوقها (اخذاً عن الشيخ مصطفى الغلاييني).

وقيل ان السيد عيسى اسكندر المعلوف جمع كتاباً مطولاً سمّاه «معجم الاصطلاحات» فرغّب الناس في مطالعته. ولكن الكتاب، على ما يقال، لا يزال مخطوطاً شأن الكثير من مؤلفات صاحب مجلة «الآثار» المحتجبة؛ وفي النتيجة ان جهود هؤلاء المجاهدين في سبيل اللغة العربية الشريفة لم تتجاوز حدود الاقتراحات والاعمال التمهيدية الى تحصيل اثار سوف تنضج فتقطف في المستقبل ان شاء الله.

وانا وددنا لو اشار اعضاء المجمع الكرام في سياق اعمالهم الى الدروس التي ظهرت في المجلة الالمانية[1] «رسائل معهد اللغات الشرقية» (سنة ١٩٢٧ و١٩٣٤) وفيها لوائح الفاظ فنيّة وصناعيّة وعلميّة قد جمعها المستشرقون من اللغة المستعملة في مصر مع تأدية معانيها بالانكليزية والافرنسية وأضافوا اليها المصادر التي اخذوها عنها. ان فيها الغثّ والسمين بما حوته من الفاظ كثيرة جديدة في صيغتها او في معناها، وقد نُسخت من قوائم فهارس المعامل والورشات. وتزيّت بزيّ الافرنج؛ ولا عجب ومادتها اتت الينا من بلادهم!!! على انها هي هي

١) راجع *Mitteilungen des Seminars für Orientalische Sprachen an der Friedrich-Wilhelms-Universitaet zu Berlin*. Jahrgang XXIX und XXX, Zweite Abteilung. Mohammed Brugsch und Georges Kampffmeyer : *Aus den heutigen Wirtschaftsleben Aegyptens* — Hans Wehr : *Die Besonderheiten des heutigen Hocharabischen*. Jahrg. XXXVII. 2 Abt.

التي تضلح لان يغربلها المجمع فيحفظ منها ما يراه موافقاً للاحتياجات الحاضرة ، ملائماً روح اللغة واصولها . ومن اسلوبها مصدر اساليب العمل في هذه الناحية ، واليك شيئاً عنها عسى ان تُوفّق الى مطالعتها بكمالها :

في المقال الاول عني محمد برغش وجرج كيفماير بجمع الاصطلاحات الفنية عن الدليل العام للقطر المصري والخارج للسنة ١٩٢٥ وقد وجدا فيه الاساس لدرس الالفاظ المستعملة في الحاضر تعبيراً عن الاشياء في ميدانها الواسع النطاق الصعب الخوض فيه لابناء اللغة العربية . ولم يغفل صاحبا المقال ان ترادف الالفاظ الاوربية باللفظة العربية كما هو معروض للقراء ليس مما يرتاح له الخاطر والذوق العربي ؛ ولم يجهلا ان الامال معقودة على ابراز مؤلف في تلك الناحية ارقى واحسن من الدليل المذكور ، ولكن ما دام الامل لم يحقق فلا بد من الاخذ بالموجود مادةً تساعد على البلوغ الى الكمال .

لقد وردت تلك المادة في ١٩٦٦ جملة او تعبيراً لم يكتف المؤلفان بروايتها على علاتها ، واخذاً عن مصادرها فحسب ، بل بذلا وسعهما في درسها الدرس اللغوي بنقدها ، والتفتيش عن اصولها في المعاجم الشهيرة العربية والافرنجية .

اما المقال الثاني فدرس فيه هانس وهر خواص العربية الفصحى ، حاضراً ، في النحو والتركيب واللفظ . وعالج في اللفظ ما كان منه مترجماً عن اللغات الاوربية وما خرج من صميم اللغة العربية وتطور فاعرب عن شيء جديد ؛ ومن امثال ذلك : دار الآثار ، ومأساة ، وتأشير ، ومؤتمر ، وآلة كاتبة ، وبرقية ، ومتحف ، وجمهورية ، واجتماعي ، ومجهر ، وحافلة ، وحقانية ، واحتياطي ، ومختبر ، واختزال ، ومدفعية ، ودواسة ، ورشاشة ، ومرقب ، وورق القياس ، ومسدس الخ الخ من عشرات وعشرات الالفاظ . وعرض المؤلف للائحة الفاظ تحولت من معناها الاصلي الى غيره كالمطعم ، والمعرض ، والسيار ، وغيرها ... وقصر نظره على بحث مواده في ٨٠ عدداً من جريدة الاهرام ، وفي المقتطف ، وفي مؤلفات الكتبة المصريين المحدثين مَن رآهم يمثلون الحركة الفكرية اللغوية في وادي النيل ، واكتفى بهم .

اما بعد فنقول :

نتمنى لو اطلعت لجنة المجمع المخصصة بالقاموس على مـا وضعه المؤلفون المذكورون ، وبتّت فيه حكمها عن تساهل ورحابة صدر ، فوضعت في الحين ذاته اساساً متيناً للقاموس الجديد المرغوب فيه.

ولو ان جهود مجلة المجمع توجّهت الى التعريب ، شأن المجـلات الراقية في سورية ولبنان وفي مصر ، فحاولت نقل الـدروس في العلميات والفنيّات الى العربية ، لكانت توافرت لدينـا مؤلفات يستنجم منها الباحثون اصطلاحات والفاظاً يحتاج اليها القاموس وهذه الالفاظ تدخل اللغة بطرقها البديهية الفطرية ، ناشئةً حيّةً من عقول الاحياء والبابهم فيحق لها البقاء.

فمن ثمَّ نتمنى لو عُرضت بالمباراة والمسابقة على ادباء العربية ترجمة المقالات العلمية في المواضيع الخاصة كالكهرباء والميكانيك وغيرها ، فلا شك ان الجهود التي تبذل في ذلك السبيل تؤدي الى نتائج محمودة وليس المـال الذي ينفق مكافأةً للفائزين في السباق مما يحول دون نجـاح العمل لاننا عهدنا من السخاء والجود في الحكومات والافراد نحو مشاريع دون مشروع ترقية اللغة العربية الشريفة أهميّةً ، ما يدعونا الى التفاؤل في تحقيق امانينا.

الاب فردينان توتل اليسوعي

« جريدة توزيع مال خراج لبنان الاميري في عهد الامير بشير الشهابي »

ملاحظة بسيطة

نشر ، تحت هذا العنوان ، في «مشرق» هذه السنة (٣٣ [١٩٣٥] ٣٢١ — ٣٦١) ، حضرة الخوري قسطنطين الباشا جدولًا قديمًا للاموال الاميرية المترتبة على اللبنانيين في احدى السنين من ولاية الامير بشير الكبير. وقد رأى الناشر المحترم ان يقدّم على الجدول بحثاً في النظام الاقطاعي في لبنان الغابر ؛ فأخذنا عليه بعض المسائل وهي :

١ً قال عن الامير يوسف ، بعد استيلائه على بلاد جبيل والبترون: « انه احدث انقلاباً مهماً في طبقات سكان هذه البلاد بان اقطع عدة قرى لذوي الزعامة الذين اعانوه على قتال بني حماده. فانه جعلهم برتبة المشايخ ، واقطع لهم

الاقطاعات الكافية واقرّ بمن كان سابقاً منهم كذلك » (ص ٣٢٤) . وهنا عدّد هؤلاء المشايخ فذكر سعد الخوري صالح، وسمعان البيطار ، وبرجس ابي صعب ، وبيت ابي طربيه ، وبيت كرم ، وبيت الشدياق ابي خطار ، وبيت الخوري (في اهمج) ، وبيت رعد المسلمين ، » وغيرهم ».

فقلنا : اوَ لم يبالغ حضرته في الإكثار من اولئك المشايخ ! اجل ، فان التقاليد المشهورة التي تؤيدها التواريخ الصحيحة لا تعرف في لبنان الشهابي الا بضع عائلات اقطاعية ، ذكر شيئاً عنها العينطوريني[1] ، واورد الشدياق اخبارها مفصلة[2]. وهذه العائلات هي، كما جاء ذكرها في « اخبار الاعيان »: الامراء : شهاب ، وارسلان ، وابي اللمع . والمشايخ : الخازن ، وحبيش ، والدحداح ، والضاهر ، والخوري صالح ، وجنبلاط ، والعماد ، وابي نكد ، وتلحوق ، وعبد الملك ، وحماده (الشيعيون). فاذا كان الناشر الكريم قد اكتشف اكتشافاً جديداً يتيح له بهذا الاكثار في تعداد ذوي الاقطاع ، فليتفضل ويرشدنا الى مصادره ليستقي منها جميع المؤرخين.

٢ ثم قال : « وكان الامير الكبير الحاكم اذا اختار رجلاً من لبنان لتدبير اموره من غير المشايخ ، او كاخية له ، رقّاه الى رتبة المشايخ وصار يكتب له « الاخ العزيز » واقطعه بعض الضيع » كما فعل الامير يوسف مع سعد الخوري صالح وسمعان البيطار ، وكما فعل الامير بشير مع بني الدحداح ، ومع يوسف ابي انطون باخوس الذي اتخذه كاخية له الامير حسن شهاب ، اخو الامير بشير ، في غزير » (ص ٣٢٤).

فنقول : ١ جعل الخوري قسطنطين في كلامه هذا فرقاً ، اقله في الزمن، بين رتبة الشيخ سعد الخوري وبني الدحداح . في حين ان الامير يوسف في كلامه عن سعد الخوري[3] ، يسميه : « عزيزنا الشيخ سعد الخوري » وذلك في سنة ١٧٨٤ ، اي قبل وفاة الشيخ سعد ببضعة اشهر . ولدينا ورقة مؤرخة

---

١) المشرق ٤ [١٩٠١] ٧٦٦ و ٨٣٠ . ٢) اخبار الاعيان في جبل لبنان .
٣) سلسلة بطاركة الطائفة المارونية ، طبعة الشرتوني ، ص ٧٤٠ .

سنة ١١٧٩هـ. (١٧٦٥م) يقول فيها الامير يوسف نفسه : «وهنا عزيزنا الشيخ منصور الدحداح» [٢] نرجو منا من حضرته ان يدلنا على ما يثبت قوله ان الامير يوسف كتب الى الشيخ سمعان البيطار «الاخ العزيز» ، وان الامير بشير اقطع يوسف ابي انطون باخوس ودعاه «الاخ العزيز». ٣ً خلافاً لقول الخوري قسطنطين ، نعلم ان الدحادحة كانوا مشايخ قبل تولي الامير يوسف على بلاد جبيل[١] فانهم دبّروا شؤون الامراء الحرافشة والشيخ اسماعيل حماده. ثم سمى احدهم ، الشيخ منصور بن يوسف ، في تولية الشهابيين على معاملة طرابلس ، نثبّت الاميرُ الدحادحةَ في مركزهم وجعلهم اقطاعيين على بلاد جبيل[٢] ، وعلى بلاد الفتوح[٣]. اما الامير بشير فانه كتب اليهم «الاخ العزيز» ، على انهم كانوا مشايخ اقطاعيين قبل عهده ، ولم يكن في استطاعته ان يفعل غير ذلك.

٣ً اراد حضرته ان يعطف على بطرس كرامه ، فقال : «واذا لم يكن الكاخية من لبنان اكتفى الامير باعطائه لقب المعلم نظير بطرس كرامه الحمصي» (ص ٣٢٤) .

قلنا : فما قول الاب قسطنطين «بالمعلم» الياس اده.و«المعلم» نقولا الترك[٤] ، وغيرهما من «المعلّمين» اللبنانيين ؟

هذه ملاحظة بسيطة رأينا ان نعلّق بها على مقال الكاهن الفاضل خدمةً للحقيقة ، لا زال حضرته من انصارها !

نجيب سليم الدحداح

تنبيه

وقع بعض اخطاء في طبع المحاضرات الثلاث «في تاريخ الفقه الاسلامي» للدكتور يوسف شخت في الاجزاء الثاني والثالث والرابع من السنة الحالية ،

---

١) ترجمة اسطفانوس بطرس الدويهي ، بيروت ، سنة ١٩١٣ ، ص ٢٥٤ – المجمع اللبناني (طبعة جونية) ، ص ٥٦٣ – اخبار الاعيان ، ص ١٠٧ وما يليها.

٢) اخبار الاعيان ، ص ١١٢ . ٣) الكتاب المذكور ، ص ١١٣.

٤) الدرر الحسان (الطبعة الاخيرة) ، ص ١٥٩ ، ٢٤١ ، ٢٥٨ ، ٤١٠ الخ...

وهي الآتية :

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٦٢	٨	عنها الدرس	عنها هذا الدرس
٢٦٢	٩	الموضع	الموضوع
٢٦٣	٣	تبديل	تبدل
٢٦٣	٢٥	ذلك التشريع	ذلك هو التشريع
٢٦٤	٢٢	جا	جما
٢٦٨	١٦	من هذا	من نتائج هذا
٢٧١	٦	من	بين
٣٦١	١٧	شروط	عن شروط
٣٦٦	١٩	ميل	الميل
٣٦٧	٢٢	الميدان	لميدان
٥٤٧	٢٠	يرجع	راجع
٥٤٨	٩	ومن	من
٥٤٨	٢٠	وما	واما
٥٤٩	١٣	لشرح	بشرح
٥٥١	٤	عالم معاصر	عالم مصري معاصر
٥٥١	٥	ثانية	ثانوية
٥٥١	١٤	محرم	مجرم
٥٥١	٢٤	وقد	قد
٥٥٢	٢٦	الآخرة	الآخر
٥٥٣	١٢	يطلب	تبطل
٥٥٣	٢٥	كتب	في عمل
٥٥٤	١١	يكون	تكون
٥٥٦	١٢	الآن تلك	الآن عن تلك

مطبوعات شرقية جديدة

Franciscus Ter Haar, c. ss. r., Casus conscientiae de praecipuis hujus aetatis occasionibus peccandi. In-8°, 184 p. Turin, Marietti, 1934. Prix : 10 L.

بعض حوادث الضمير الناشئة عن اهم اسباب الخطيئة

كان حضرة المؤلف الاب تيرهار قد نشر ، سنة ١٩٢٧ ، كتاباً مهماً خصّه « باسباب الخطيئة وتعوّد السقوط فيها » De Occasionariis et Recidivis فبسط فيه مبادئ القديس الفونس دي ليكوري ، ودافع عنها. فكان الكتابه وقع حميد، واثر لا يُنكر في حلّ عدد من حوادث الضمير. وقد وصف المشرق الكتاب في حينه (٢٦ [١٩٢٨] ٤٧٠).

وها ان المؤلف يعود اليوم ، رامياً الى تقريب عقيدة القديس الفونس دي ليكوري ومبادئه في الموضوع المذكور من منال الكهنة والمعرّفين خاصة ، فينشر هذا الكتاب الجديد ، جامعاً فيه عدداً كبيراً من حوادث الضمير ، ويعلّق على كل حادثة مختصراً مبادئ القديس الفونس الموافقة ، عارضاً لها حلّاً واضحاً صريحاً لا شك في انه يرضي حتى المتشدّدين . واننا نكتفي ، دلالةً على منفعة الكتاب ، بسرد بعض الحالات التي يعرضها . يبدأ ، في القسم الاول ، بذكر السبب المباشر للخطيئة اجمالًا ، وما يتفرّع عنه من المظاهر المختلفة . ثم يتوسع ، في القسم الثاني ، بدرس الاسباب الخاصة البادية في ايامنا كالمدارس الخطرة ، والكتب الفاسدة ، والمراقص ، والمراسح ودور السينما ، ومواعد العشّاق ، والزيجات غير المشروعة ، والملابس المنافية للياقة والادب ، والاذاعات المفسدة ، والملاهي . في كل هذه الموضوعات ، وهي ، كما لا يخفى ، مصدر الكثير من المشاكل في كرسي الاعتراف ، يجد الكاهن ، في الكتاب المذكور ، ادارة رصينة ودليلًا هادياً يقوده الى طريق الصواب.

ي. م.

Jus religiosorum in compendium redactum pro juvenibus religiosis a P. THOMA VILLANOVA GERSTER A ZEIL. In-8°, 324 p. Turin, Marietti, 1935. Prix : 15 L.

مختصر الشرع الرهباني للمبتدئين

لم يكد يظهر قانون الحق القانوني حتى تعددت الشروح والتعاليق إمّا على مجموعة الحقّ المذكور او على اقسام منها . وكان لا بدّ للشرائع الرهبانية فيه من ان تلفت انظار الشرّاح والمفسّرين ، فرأينا الشروح الواسعة المهمة في الموضوع كشرح الاب ڤيدال اليسوعي ، وشرح الاب فنفاني الدومنيكي . على ان مثل هذه الشروح الطويلة ليست بمتناول الجمهور، ولا يمكن للشبان من الرهبان خاصة درسها للاستفادة منها . فكان ان المؤلف عمل على سدّ هذه الثلمة ، فنشر في سبيل المبتدئين شرحاً مختصراً ، على شموله كل الشرائع الرهبانية ، وكان اولًا قد القى هذه الدروس على مبتدئي رهبنته ، فمتّعها بالطبع ؛ وحسناً فعل، اذ اتحفنا بكتاب جدير بان يكون في مكاتب الديورة جميعها . ي . م .

IVO BENEDETTI, Ordo judicialis processus canonici instruendi, (pro curiis et tribunalibus dioecesanis) In-8°, 165 p. Turin, Marietti, 1935. Prix : 8 L.

طريقة المحاكمات في الحق القانوني ، في سبيل الدواوين الاسقفية

من المعلوم ان المحاكم الكنسية الرومانية كمحكمة « الروتا » ومحكمة « التوقيع الرسولي » هي محاكم استئنافية على الغالب. فوجب من ثمّ ان تُسمع الدعاوي الكنسية اولًا في محاكم الابرشيات او الدواوين الاسقفية. على انه كثيرًا ما يحدث في هذه الدواوين ، ولاسيما ما كان منها قليل الدعاوي ، اضطرابات وتقلقلات في طريقة سير الدعوى ، وفي تدوين الاحكام والمحاضر المختلفة . وكان المؤلف ، ايڤو بنديتي ، وهو محام لدى محكمة « الروتا » ، قد شعر بما يجابه قضاة الدواوين الاسقفية وكتّابها من الصعوبات في تسيير المحاكمات ، فرأى ان يسهّل عليهم اعمالهم ، ويرشدهم الى الطريق الاقوم في اصول المحاكمات المذكورة ذاكرًا سير الدعوى خطوةً خطوةً ، مردفاً بمثل واضح على ذلك ،

راغباً في ان جميع المحاكم البدائية في الاسقفيات تتبع الاصول المرعية في المحاكم الرومانية . فاثر عمله هذا الكتاب المفيـد . بدأه بدرس تأليف المحكمة ، وواجبات كل من اعضائهـا ؛ منتقلاً ، في القسم الثاني ، الى شرح ترتيب الدعوى ؛ عارضاً ، في القسم الثالث ، دعوى زواج درسها في جميع تطوّراتهـا مثالاً على الدعاوي الممكن ورودها على المحاكم المذكورة . واخيراً ، في القسم الرابع ، يعيّن الطريقة المتبعة في الدعاوي المتعلّقة بالزواج المعقود غير المنفّذ ، اذا ما شاء اربابه ان يطلبوا الغاءه من الحبر الاعظم ، وهي طريقة قُرِّرت مؤخّراً في مجلة « اعمال الكرسي الرسولي » .

يتضح مما تقدّم فائدة الكتاب واهميته لكل رجال الاكليروس الـذين يمكنهم يوماً ما ان يهتمّوا بالدعاوى الكنسية ، فننصحهم باقتنائه ، وهو زهيد الثمن . ي . م .

Répertoire pratique de droit civil et ecclésiastique, par un groupe de Professeurs et de Jurisconsultes, t. II, *Bail - Bureaux de placement.* In-12, 560 pp. Paris, Maison de la Bonne Presse, 1935. Prix : 15 fr ; port, 1 fr. 45.

معجم للحق المدني والكنسي

هو المجلد الثاني من معجم جامع للحق المدني والكنسي ، قام بتأليفه نخبة من اساتذة الحقوق والفقهاء ، فجمعوا ، على طريقة الترتيب الهجائي ، كل ما تهمّ معرفته رجال الحق القانوني والحقوق المدنية من قضاة ومحامين واساتذة وطلّاب ، فاتوا بفائدة جليلة عرفتهـا لهم كلّ الاوساط الاختصاصية بالعلوم المذكورة . وسيظهر المجلّد الثالث في اوائل السنة الجديدة ١٩٣٦ . اما الكتاب بكامله فيبلغ عشرة مجلدات .

THOMAE DE VIO, CAJETANI, O. P.; **In De Ente et Essentia D. Thomae Aquinatis commentaria** cura et studio P. M.-H. LAURENT, COLLEGII HISTORICI FR. PRAEDICATORUM. In-8°, 260 p. Taurini, Marietti, 1934. Prix : 12 L,

شرح تأليف القديس توما الاكويني : « في الكائن والجوهر »

لقد اصاب مَن قـال ان رسالة القديس توما « في الكائن والجوهر » ،

تنزل من آثاره منزلة « المقال في المنهج » من آثار دیكارت ، ومنزلة « الوحدات » من آثار ليبنيز . ذلك اننا نرى في هذه الدراسات المخصصة لمبادئ ما وراء الطبيعة كلها ، وهي المدخل الذي لا يُستغنى عنه الى تفهم فلسفة القديس توما ، وبالتالي الى تفهم لاهوته . على ان هذه الآراء والاحكام المائلة الى اعمق ما يثيره العقل البشري من المشاكل ، تظهر قابلة للمناقشة حيناً ، والشروح المتعددة احياناً . حتى قام من الفلاسفة اللاهوتيين انفسهم مَن ناقش حاول القديس توما في عدد من المشاكل ، فعاكس بعضها ، واوّل بعضها تأويلات مختلفة ، فكان ولا بدّ ان شرح الرسالة يُثير عدداً مهماً من المشاكل لا يزال الفلاسفة في شأنها على مناقشة متواصلة وانقسام دائم .

وان من اشهر الشروح للاثر المذكور ، ان لم نقل اشهرها ، شرح الكردينال كايتان الدومنيكي المتوفى في السنة ١٥٣٤ ، وقد كان من اعظم لاهوتيي عصره . فبدا من صائب الراي ان يطبع ذلك الشرح طبعاً لائقاً ، بمناسبة مرور اربعمائة سنة على وفاة صاحبه . فكان هذا الكتاب الذي نصفه اليوم ، بارزاً في مظهر انيق ، مظهراً المعلومات الكافية لمن يرغب من القرّاء في التمتّع بدرس هذه الشؤون العويصة ، متغلباً على ما دونها من عقبات الجدل والمناقشات

الاب غ . نيرون

PRADO (GERMANUS) O. S. B., **Devotionale pii clerici et religiosi.** In-32, 416 pp. Turin, Marietti, 1935. Prix : 7 L.

نصوص تقوية

يجمع هذا المجلد ، في حجم صغير ، عدداً مهماً من النصوص التقوية مختارة من الكتاب المقدس ، ومن تآليف الآباء ، ثم من الصلوات الطقسية والمنفرة . وينتهي بعدد من الادعية مرتبة حسب نظامها الطقسي .

M[gr] LAGIER, **L'Orient Chrétien, des Apôtres jusqu'à Photius.** In-8°, 480 pp. Paris, Bureau de l'*Œuvre d'Orient*, 1935. Prix : 20 fr.

الشرق المسيحي من زمن الرسل حتى فوطيوس

ظهر هذا التأليف اولاً اجزاء متتابعة في مجلة *Œuvre d'Orient* من السنة ١٩٢٨ الى السنة ١٩٣٤ ، ثم جمعت هذه الاجزاء في تأليف على حدة بلغ مجلده

الاول ١٨٠ صفحة ، بعد ان اعاد المؤلف نظره فيها ، فاصلح بعضها وفقاً لنتائج الابحاث الحديثة ، واتبع فيها كلها الترتيب التاريخي مجتهداً في استدراك ما يكون عادةً في المقالات المتابعة من تقطع ومراجعات .

طالما شكا المؤرخون من اهمال شأن الشرق المسيحي في تواريخنا العصرية . فقام المؤلف يخفف من موجبات هذه الشكوى ، ويدلّ الغرب على اصول مسيحيته ، وعلى ما ظهر في الشرق من شخصيات دينية ومدنية جديرة بكل اعجاب واحترام . كما ان هذه الصفحات تعيد الى الشرقيين انفسهم ذكرى ماضٍ مجيد خط الشهداء صفحاته بدمائهم الزكية ، والمرسلون بمشاريعهم الجريئة ، والآباء بمعارفهم النيّرة ، والامبراطرة بجلالهم الفخم . كما ان الكنيسة جماء ، شرقية وغربية ، تستعيد ذكرى وحدة وثيقة واتفاق شامل . فضلًا عمّا يجده ، في هذا الكتاب ، الرجل المؤرّخ ، بل محبّ التاريخ ، من حوادث ومآسٍ .

وقد اضاف المؤلف ، تسهيلًا للاستفادة من كتابه ، فهارس ابجدية ، وجدولًا توقيتيًا لاهم الوقائع ، ولائحة باسماء الامراء والرؤساء كنسيين ومدنيين ، مدة القرون التسعة ، مزيّنًا كل ذلك باربع خرائط ملوّنة تمثّل انتشار المسيحية والامبراطورية البيزنطية .

J. Francez, S. J., Un pseudo-linceul du Christ. Plaquette 17×25 de 60 p. sur papier couché. 6 planches. Paris, Desclée, de Brouwer et C^{ie}. Prix : 10 fr.

كفن مزوّر للسيد المسيح

تُلقي هذه الصفحات نورًا جديدًا على تاريخ دفن المسيح ، وقد اصبح من الابحاث العصرية بفضل ما أُثير من الضجة حول كفن مدينة تورين المشهور . يبين فيها المؤلف كيف اغترّ المؤمنون ، مدة القرون العديدة ، في مدينة كادوّن (من مقاطعة الدُردوني) فاخذوا بتكريم قطعة نسيج اسلامية الاصل ، ظانّين انها كفن مأخوذ من يوسف الرامي ، وكيف توصّلوا الى الخلط بين هذه القطعة والكفن الذي كان محفوظًا في القبر المقدس في اورشليم ، والذي رآه فيه الاسقف الغالي أركولف في القرن السابع . ثم ينتقل المؤلف فيبرهن ان كفن

كوبيني ، الذي كان يكرمه الغربيون منذ عصر شارلمان الى زمن الثورة الفرنسوية ، يوافق موافقة تامة للاوصاف التي ذكرها اركواف عن كفن القبر المقدس. واخيرًا يردّ على الاعتراضات العديدة التي يثيرها الراغبون في تكريم كفن كادوّن. ويبيّن ان عصمة الكنيسة لا يضيرها في شيء. اكتشاف الخطأ ؛ جامعاً، في هذه الصفحات القليلة ، بين مبادئ تاريخية ودفاعية قيّمة جديرة بافادة الكهنة والمؤمنين جميعاً ، فضلاً عمّا فيها من دروس اثرية قبطية واسلامية ، سيكون لها خير اثر في توسيع ثقافتنا التاريخية.

La continuité pontificale. Conférences prononcées à la VI[e] session de l'Institut Pie XI, par M[gr] Suhard, P. Léon Merklen, A. A., M. Paul Chanson, M. Louis Le Fur, M[gr] Vanneufville, P. Paul Dabin, S.J. In-12, 284 p., avec 7 figurines d'Hirlemann et une couverture artistique en 2 couleurs. Paris, Bonne Presse, 1935. Prix : 10 fr.

دوام السلطة البابوية

سلسلة محاضرات القاها عدد من الاختصاصيين في الدورة السادسة لمعهد بيوس الحادي عشر ، فنالت نجاحاً واقبالاً دفعا اربابها الى نشرها مجموعةً في هذا المجلّد . وقد درسوا السلطة البابوية ، على عهد الاحبار الاربعة الاخيرين خاصة ، ناظرين الى الموضوع من مختلف وجوهه العقائدية ، والارسالية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والدولية . فاتوا بكتاب يجدر بكل مسيحي ان يقرأه .

Francesco Gabrieli, **Il califfato di Hishâm.** Studi di storia omayyade. [*Mémoires de la Société Royale d'Archéologie d'Alexandrie*, t. VII, 2], 142 p. Alexandrie, Société des Publications Egyptiennes. 1935.

خلافة هشام

تقدّم لنا فذكرنا ، غير مرّة ، دروساً قيّمة لهذا المستشرق الشاب خصّها بموضوعات مختلفة من التاريخ العربي ، فاظهرنا ما فيها من اطّلاع واسع على المصادر ، ونقد دقيق ، ومقدرة على العرض والمناقشة . وها ان المؤلف يدرس

اليوم موضوعاً وافر الاهمية ، خلافة هشام بن عبد الملك ، وهي من اطول الخلافات في الدولة الاموية ، ومن اوفرها حوادث ووقائع . وقد ادّى كل هذا الى اختلاف دائم بين المؤرّخين فدفعوا الى الحكم على هشام احكاماً متباينة حتى المناكسة احياناً . فكان من فضل المؤلف ان توفّق الى توضيح تلك المعلومات الكثيرة المختلطة ، ففصل الحروب العربية في آسية المتوسطة ، وفي شمالي افريقية ، وفي اسبانية حتى شمالي جبال البيرينه . واجتهد في شرح المعنى الحقيقي لمعركة بواتيه الشهيرة . كل ذلك دون ان يهمل ذكر الشخصيات البارزة في رجال هشام وعمّاله كخالد القسري ، ونصر بن سيّار . هذا ما يدفعنا الى اقرار شخصية هشام ، كما اخرجها المؤلف ، محتفظين بها ، واثقين بصفاتها ، حتى تخرج لنا الابحاث معلوماتٍ جديدة . وعليه فاننا نهنئ المؤلف على نجاحه في درس هذا الموضوع الصعب . ه . ل.

Jesaias Press, Neues Palaestinahandbuch. Führer durch Palaestina. 18 mehrfarbige, 3 schwarze Karten und Planbeilagen, 18 Pläne im Text. In-12. Wien, Fiba Verlag, 1934.

دليل فلسطين

كان المؤلف قد نشر ، منذ اربع عشرة سنة ، دليلاً الى معرفة ارض فلسطين وسورية الجنوبية . ثم كان ما كان من تقلبات وتطوّرات ، فاضطرّ الى نشر هذا الدليل الجديد . على ان الكتاب لا يختصّ بالمعلومات المختصرة ألحاقة شأنَ الادلة العادية ، بل فيه فوق ذلك ، فيه نظرات شاملة وفوائد متعدّدة يتحققها المطالع منذ الصفحات الاولى ، فترفع الكتاب ، في نظره ، الى درجة المؤلفات التاريخية الجغرافية . والمؤلف لا يكتفي بفلسطين ضمن حدودها الحالية ، بل يسير بالمسافر الى شرقي الاردنّ ، ودمشق ، وبعلبك ، وبيروت ، ليعود به الى فلسطين ، على طريق الساحل . كل ذلك تزيّنه الخرائط والرسوم المتعدّدة ، ويردفه المؤلف ببضعة ملحقات في : المستعمرات الزراعية اليهودية ، وبعض التعابير العبرانية ، والنصوص الكتابية الواردة في الدليل ، والاسماء الجغرافية العربية ، ثم بلائحة عامة بالاعلام الجغرافية. ج . ل.

René Grousset. **Histoire des Croisades et du royaume franc de Jérusalem. t. II, Monarchie franque et monarchie musulmane. L'équilibre.** In-8°, 920 p., 9 cartes dans le texte. Paris, Plon, 1935. Prix : 60 fr.

تاريخ الصليبية ومملكة اورشليم الفرنجية

لم تمرّ السنة على وصفنا الجزء الاول من هذا الكتاب النفيس (المشرق ٣٣ [١٩٣٥] ١٤٦) ، وهـا ان المؤلف يتحفنا بالجزء الثاني ، مشتملًا في اكثر من ٩٠٠ صفحة ، على تاريخ ٦٠ سنة من العهد الصليبي (١١٣٠-١١٩٠) . تبدأ تلك الحقبة بالتعادل بين القوى المتماسكة : قوى الصليبيين وقوى المسلمين ، وتنتهي بتراجع الافرنج حتى لا يبقى لهم الا القليل من ممتلكاتهم ، فيبدأون بتنظيم الزحفة الصليبية الثالثة . على ان المؤلف لم يضيّق أفقه بالاكتراث للاعمال الحربية وحدها ، بل اننا نرى في الكتاب موادّ مختلفة غير الهجمات والزحفات. لا شك في ان للحرب اهميتها ، ومن هذه الجهة يمكن القول ان الصليبيين ظلّوا ، طول تلك الحقبة ، على خطر دائم في مقاومة المسلمين. على انهم كانوا يعيشون حياةً اجتماعية ادبية لم تفسدها المعارك . وقد كان للمؤلف الفضل بانه نظر الى هـذه الناحية فبعث تلك الحياة بتفصيل يجعل للكتاب لذّة خاصة ، ويطلع قرّاء العصر على شؤون لا تزال لها روعتها ووقعها الحالي ، ان لم نقل جدتها ، على رغم ما كرّ عليها من قرون . يذكر صفات الامراء والملوك من اسرة أنجو وكيف أثّروا في البلاد التي احتلوها ومصّروها ، وكيف اثّرت هي بدورهـا في الفاتحين . يظهر ذلك خاصة في المقابلة بين الصليبيين الاوّلين ، بعد تبلّدهم في الشرق ، واخوانهم من ارباب الزحفة الثـانية ، وما كان هناك من فروق ظهرت آثاره في الهجوم على دمشق (ص ٢٢٥) .

وهناك السياسة ودرسها جزيل الفائدة في كل عصر . قد يخال الناظر لاول وهلة ان الاتفاق كان تامًّا بين الفرنج والبيزنطيين . هذا ما كان واجبًا ان يكون . اما الواقع فان البيزنطيين كانوا يتبعون دائمًا سياسة التوازن بين المسلمين والفرنج .

ومن اشهر الشخصيات التي يدرسها المؤلف حيّةً بارزةً شخصية الملك

بقدين الرابع الابرص ، الذي كان على عرش اورشليم، عهدَ نشأة صلاح الدين وازدهار اعماله الحربية. فيصف المؤلف شجاعته وقوة صبره وجلده ، على ما كان يحيط به من عقبات ناشئة عن حالته ، وانقسام الامراء الداخلي بسبب مطامعهم الخاصة ، وخطر العدوّ الخارجي. بيدَ انه مات قبل ان يرى انهيار ملكه ، وبه انتهت اسرة أنجو . اما المجلد فينتهي بحكم الملك گي دي لوزينيان ، وسقوط مملكة اورشليم في يد صلاح الدين.

ج. ل.

L'art italien. Exposition du Petit-Palais, mai-juin-juillet 1935. Cent-soixante-seize reproductions dont huit en couleurs. In-8° Paris, Librairie Floury, 1935. Prix: 20 fr.

الفنّ الايطالي

جمع هذا المجلد اشهر الرسوم التي اعجب بها زائرو المعرض المذكور اعلاه مدة ثلاثة اشهر ، فرأى امين المعرض ان يُعجب بها ايضاً من لم يتمكنوا من مشاهدتها ، وحسناً فعل . فعرضها بطبع انيق ، بعد ان قدّم عليها بحثاً يجمع صفاتها في وحدة فنيّة ، ويسهّل فهمها على المطالعين.

ROBERT NEUMANN, Sir Basil Zaharoff, le roi des armes. In-12, 255 p. Paris, Editions Bernard Grasset. Prix : 15 fr.

السر باسيل زَهاروف ، ملك السلاح

لا شكّ في ان القرّاء يقبلون على مطالعة هذا الكتاب المترجم عن الالمانية لما فيه من غرائب تتصل باهمّ ما عرفناه من الحوادث العالمية في تطاحن الدول الكبرى ، فتفشي اسراراً عديدة ، وتفضح اعمالاً شائنة : اما بطل الكتاب فاصله يوناني فقير يسير من لا شيء ، فيرتقي ويرتقي حتى ينهي ايامه وقد كلّلته الاموال واغدقت عليه فرنسة وانكلترة ارفع ما عندهما من الرتب السامية والالقاب الطنّانة. بيد ان في الكتاب اضطراباً في تحقيق بعض الحوادث وفي التأليف كذلك . على ان فيه من التحقيقات ما لا يدع مجالاً للريب كمسألة بترول الموصل ، ومسألة موناكو . اما الاخلاقيات بيّنة تسهّل مثل هذه الاعمال فما عسى ان نقول فيها ؟ أوَ ليس في تلك الاوساط الدولية فساد مفسد يغذيه المال وتحضنه المطامع الاثمية ؟

ج. ل.

ROGER LÉVY, Extrême-Orient et Pacifique. In-16, 5 cartes, Paris, Armand Colin. Prix : 10 fr. 50.

الشرق الاقصى والمحيط الهادئ

من لا يقلق اليوم لحادث ينشأ في المحيط الهادئ ، فتعمّ كوارثه الكون ؟ ها ان اليابان تغرق الاسواق العالمية بمحصولاتها ، وهي تتململ متضايقة في جزرها الصغيرة ، فتنظر الى الصين طامعة محققة هذا الطمع ، وتنظر اليها روسية شزرًا مستعدة للطوارئ ، بينا الامبراطورية البريطانية تحقق النقص الواهي في تجارتها ، وبينا الولايات المتحدة تنيل جزر الفليبين استقلالها ، والمانية تستعيد مركزها السابق في بلاد الصين . كلها مظاهر تدل على ان الخطر الاصفر لا يزال على اشده ، بل هو يتقدم شيئاً فشيئاً بشهادة ما تحمله الينا كل يوم شركات البرقيات والاذاعات اللاسلكية عن الشرق الاقصى والمحيط الهندي من اخبار متقطعة ، متناقضة احياناً ، غير مفهومة . على ان بين اسباب كل هذه الحوادث صلة تظهر متينة لمن يدرس التاريخ مقروناً بالجغرافية والاقتصاد والسياسة والفن الحربي . وهذا ما يجتهد في اظهاره مؤلف الكتاب ، وهو السكرتير العام للجنة درس مشاكل المحيط الهادئ ، فيعرضه بأسلوب واضح يرتجف حياة ، جاعلًا من مؤلفه ، بفضل ما فيه من المعلومات الدقيقة والآراء والنظريات ، دليلًا ضرورياً لا للمسافرين ، والسياسيين ، ورجال الدولة ، وارباب العمل فقط ، بل لكل من شاء الوقوف على حالة الشرق الاقصى وما تثيره من المشاكل في المحيط الهادئ .

HANSJULIUS SCHEPERS, Japans Seefischerei. Eine wirtschafts-geographische Zusammenfassung, 228 p. mit 6 Karten, 12 Abbildungen, einer statistischen Tafel und einer Zeichnung im Text, 1935. Prix : RM. 6.

صيد السمك في اليابان

من يعرف ان اليابانيين اعظم الناس اكلًا للسمك ؟ هذا امر توضحه الاحصائيات بكل تدقيق فتدل على ان اليابان تخرج من بحارها ، كل سنة ، من مليونين الى ثلاثة ملايين طن من السمك . وهو رقم يمثل ما تصطاده انكلترة

والولايات المتحدة مجتمعتين . ينتج من ذلك ان من واجب الحكومة الاهتمام بتنظيم هذا المورد المهم ، وبسن القوانين المتعددة الخاصة «بسياسة الصيد » ، وهو الواقع . وقد اهتم المؤلف بدرس الموضوع ، على مختلف وجوهه ، معدداً الخرائط والرسوم ، حتى اتى بمثال حسن لما يمكن ان يؤلف في مثل هذا النوع من المواد . ج . ل .

علم الامراض الباطنة : امراض الجملة العصبية

تأليف الحكيم حسني سبح

٨٨٥ ص . كبيرة – مطبعة الجامعة السورية ، دمشق ، ١٩٣٥

بهذا العنوان مجلد كبير جميل وصل الينا هدية فوجدناه تحفة مؤلفه الحكيم حسني سبح ، استاذ الامراض العصبية والباطنة في مدرسة العاصمة السورية . ثم كتب الينا الاستاذ المفضال مرشد خاطر لنقد هذا التأليف الاول من نحوه والفريد في اللغة العربية من نوعه .

ما كدنا نتصفح بعض صفحات من الكتاب حتى شعرنا بنشوة الوطنية والاخاء ، وهزنا حب الفن ولغة قومنا . اكثر الله من افراد هذه الامة اللامعين في شرقنا ، ولا زالوا يتفوقون في المعارف واللغات ! خذ من الامثلة على هذه النهضة العلمية باللغة العربية مدرسة الطب في دمشق ، واعتبر ما صدر عنها من المباحث والتآليف والمجلة الخاصة بها ، وما لمستشفياتها ومستوصفاتها من معالجات متقنة واعمال جراحية عظيمة ، وما لفروع الاختصاص هناك من الشأن كطب الاسنان ، وفن القبالة ، وعلم الجراثيم ، وإعداد اللقاح الجدري . واللطيف ان الانتداب الفرنسوي عينه جاءها مفيداً محباً ، وقد تمثل بحكيم بارع ، وبجراح ممتاز ، هما ترابو ولسركل ، حبيبا دمشق التي قابلتهما بالاخلاص لصداقتهما وتفوقهما .

وعليه لا يتمالك المطلع على نهضة الطب باللغة العربية في دمشق من ان يتمنى لمصر رجال سورية ، ولسورية مال مصر ؛ فيزول من بين الاطباء المصريين اليأس من مستقبل العربية . وهذا ما جعلنا نلقبهم ، لحضرة الرئيس الكبير

علي باشا ابراهيم ، « بالانهزاميين: défaitistes » ؛ ونحن لا ننكر ان لهم على ذلك الاعذار العديدة .

والآن يُحصر البحث والكلام في تأليف الاستاذ سبح، نتخذه اساساً نبني عليه كحجر زاوية من حجارة العمران الوطني .

من طالع هذا الكتاب الكبير ، بدون مشاحة ، علم واضعه ، وعظم جهاده ، وجودة اسلوبه ، وجلاء بيانه ، وتمام توفيقه في مهنته الشاقة . طالع: « الوهن العصبي la neurasthénie » ومرض « هين مدن Heine Mêdin » اي التهاب دودة الظهر السنجابية او عرق النسا، تجد كم انه أجاد ، فتشتاق الى الوقوف على الجزء الثاني ، طبقاً للوعد ؛ وهو مخصص بالامراض الجرثومية ، بتلك الميكروبات الذائعة بأوبئتها، الفاتكة بسمومها، الشائعة بعدواها، عنيتُ: الطاعون والكوليرا والبرداء والزُحار والخناق والزُهري والتيفية ، وهلم جرًّا . وهي الامراض التي ظلّت الى امس مجهولة الاصل والفصل ؛ فصارت في جيلنا اوضح العلل سبباً ، وأفيدها وقايةً، وأنجعها معالجةً بالمطهّرات من الداخل والخارج والمطاعيم والمصول .

وكان حقّ هذا الجزء الثاني ان يكون الاول لما تقدّم من الاسباب، ولاسيما ان الامراض الجرثومية تولّد عللاً كثيرة ولاسيا في الجملة العصبية . ومن يتصفّح كتاب استاذنا يجد في كل صفحة ان الزُهري علّة لتلك العلّة ، ولو اختلف نوعها وموقعها من الجهاز العصبي . لكنّا نبرّر بعضها من بعض ما اتهم به ، ولو بصورة التعليل ، كالبرداء في الالتهابات العصبية . ومؤلّفنا نفسه سجّل للبرداء انها افضل معالجة لشر الالتهابات العصبية .

وبعد تسطير الثناء ايضاً على الصوَر الوهّاجة التي تخلّلت المواد، وعلى المعجم المفيد الموضوع في نهاية المؤلَّف ، نستأذن حضرة الاخ بذكر بعض ملاحظات :

نشكر له اثباته بعض الاوضاع لموافقتها ، فضلاً عن شيوعها ، كالبرداء لما هو الملاريا (البرديّة) والزُحار للدوسنطاريا ، وادخاله بعض مصطلحات جديدة كالتصنيع لا orthopédie .

وكنا نودّ لو اعتمد حضرته اطباء العرب (ابن بطلان) ، وجمعية الاطباء

والصيادلة والعامة في ايامنا في استعمال الخناق للفظة على الصورة الطليانيـــة : دفتيريا ، ولو قال: الشلل « الخناقيّ » بدلًا من الشلل « الدفتيريانيّ »

ونسأل الزميل لماذا آثر استعمال: عِرق الورك لما هو علمياً وعملياً مُسمّى عرق النسا ؟ ولماذا يكتب بالقاف : الدقتور وشارقو وقلود وهــذه كلها تُلفظ في أصلها بما يوازي الكاف ، ونكتبه عربياً : الدكتور وشاركو وكلود.

وكتّابنا قد تعوّدوا ان يستخدموا لفظة: الكحول ، الامراض العفنيّـــة ، الجهاز العصبي ، ونحن نرى الاستاذ يستبدلها كاتباً: النول ، والامراض الانتانيّة والجملة العصبية. ولعلّه فضّل هكذا ترجمة système وترك جهاز لكلمة appareil والمالطيّون ، قُل الانكليز ، قد احتجوا رسمياً على التسمية: الحمى المالطية لهذا الداء دائهم fièvre de Malte ، افلا يظنّ الاخ انه اذا قرأ الافرنج عبارته الواردة بالمئات : الداء الافرنجي(syphilis) احتجوا وهاجت اعصابهم: فعلى مَ لا يعبّر عنه كما هو مألوف بكلمة: زهري؟ ذلك مع اعترافي الصريح كما في كتابي: « الطبّ والصحة في التوراة » ان الزهري حديثٌ بيننا ، وان في الكتاب المقدس قد تكرّر ذكر داء السيلان (التعقية) واهواله وتحذيره والطاعون والتيفوس الخ ولم نعثر قط على ما يُشير الى وجود الزهريّ اذ ذاك.

واذا أذن الاستاذ اقترحنا عليه الترجمة الآتية باعتبار المعنى قبل اللفظ :

ملاشاة السمّ	neutraliser le poison	في مقام	تعادل السمّ
المصل العديد القوى او المفاعيل	polyvalent	«	العديد التعادلُ
الشلل المضطرب	paralysie agitante	«	الشلل المتهيّج
الشلل المزداد او المتصاعد	paralysie progressive	«	الشلل المترقي
التشنجات المتصلة	toniques	«	التشنجات المقويّة
حفظ المصل في نفّاخات (ا. اليازجي)	ampoules	«	حُوفظ في مجلات
حفظ المصل في الحباجب (مع الصديق صلاح الدين الكواكبي)			

ولحضرة الاستاذ الكبير مرشد خاطر بحث في هذا الموضوع ظهر في العدد الاخير من مجلته ، وردت فيه آراؤه الناضجة.

ومعاذ الله ان افتح هنا باب النقد اللغوي كأن نأخذ على الزميل: « تراوح»

المرض بين الشدَّة والخفة ، وتراوح لا يُسند الا الى اثنين ؛ والصحيح يراوح: (ا. اليازجي) ؛ وانعدام (ولم يُذكر في أقرب الموارد التي قد يستشهد به الاخ) بمعنى فقدان ؛ وتوضعت الحُمّة اي استقرّت ؛ والبرهة للوقت القصير وهي لا تعني بتة: هنيهة .وغيره كثير .«فمن في ذلك منا بلا خطيئة فليرجمه بحجر» ؛ واما انا فاني ارجم الكاتب بوردة لانه لو تعمّق وتقيّد تقيدًا اعمى بما قاله الاعرابي وراء الابل في البادية من ١٥٠٠ سنة ، لعجز حتماً عن ادراك العلوم المفيدة والمعارف العصرية العجيبة على تنوّعها وسعتها وراء باستور واديسون ورنتجن والسيدة كوري ومركوني.

وبعد كل ما تقدم ، وكلّ ما لم يُقل ، حرمةً لضيق المقام ، فنتمنى ان يعطينا الاستاذ سبح كلّ ما وعد ، وكلّ ما لنا فيه من أمل ؛ وان يكون حظّ اللغة العربية به أوفر من حظها بالاستاذ المرحوم دي برُن الذي وقف لخمسين سنة خلت عند الجزء الاول (امراض الجهاز التنفسي) من «خلاصته الطبية» .

اخي الاستاذ ، سِرْ في خطتك على توفيق الله. فان لنا من علمك وعملك وعمرك ولغتك ووطنيتك ومحيطك ودعاء اخوانك ، ما يتوّيك على المصاعب ، ويحقق الآمال بك ويخلّد اسمك وفضلك في أمتك !

الحكيم امين الجميّل

الهدى

نشره عن مخطوط الواتيكان رقم ١٣٣ المنسوخ سنة ١٧١٣ للاسكندر (١٤٠٢م)

الاخ بطرس تامر فهد العشقوتي

٤٠٦ ص ، المطبعة المارونية ، حلب ، ١٩٣٥

برز هذا السفر الجليل الذي كان يتوق الى الوقوف عليه جمهور الادباء والكتبة شرقيين ومستشرقين . وهو يُحصى من أقدم الآثار وأثمن المصاحف التي أبقتها يد الزمان لما تضمنه من القواعد الدينيّة ، والدساتير الرسولية ، وقوانين المجامع الاقليمية والمسكونية ، وسُنن قسطنطين ، وثاودوسيوس ، ولاون ،

ملوك قسطنطينية ، منذ اوائل النصرانية حتى القرن السابع . وقد قابله الناشر الهام على أربعة مخطوطات ، غير المخطوطة الفاتيكانية القديمة ، وأشار الى الفروق في الهوامش .

وكان جامع هذه الدساتير او مؤلفها قد أثبتها برمّتها بلغته السريانية في عهد لا يعرف تاريخه ، حتى جاء داود المطران ، فنقلها الى العربية عام ١٣٧٠ للاسكندر اليوناني ، الموافق للعام ١٠٥٩ المسيحي .

وقد رأينا ان نثبت كلمة عن هذا الدستور القيّم ، في ما خصّ انتسابه الى الطائفة السريانية المارونية الجليلة ، نقتطفها ملخّصة مما جاء في الكتاب نفسه :

١ً افتتح المترجم كتابه بقوله : « نبتدئ بعون الله ونكتب الرسالة التي وصلت من الاخ المبارك الخيّر مار يوسف الراهب القس الى داود المطران في سنة ١٣٧٠ للاسكندر اليوناني » . فانت ترى انّ هذا العنوان الصريح لا يرهن ، بل ولا يشير الى ان الراهب يوسف وداود المطران مما سريانيان مارونيّان .

٢ً كتب داود المطران الى يوسف الراهب الجواب بقوله (ص ٦) : « سالتَ . . . ان انقل لك الكتاب المرسوم بكتاب « الكمال » المنسوب الى الاب القديس من اللغة السريانية الى اللغة العربية . . . فاجبتك الى ذلك » . وكتب (ص ١) : « انا ذكرتُ هذا الكلام لسيدنا الاب القديس جمّل الله المذهب ببقائه وزيّن الشريعة والعالم بدوام ايامه » . فيستفاد من ذلك ان هذا الاب القديس كان في قيد الحياة عندما ترجم داود المطران كتابه هذا المدعو « الكمال » . ولكن مَن هو هذا الاب القديس ؟ وما هو هذا كتاب « الكمال » ؟ ذلك سرّ يجهله الى يومنا الباحثون ، والمؤرخون المدققون ، والمتعمقون في درس آثار الكنائس الشرقية واخبار ادبائها . على ان نصّ كتاب « الكمال » يشتمل على مواضيع (ص ١٣–١١) لم يثبتها داود المطران في هذا الكتاب (الهدى) كقوله مثلاً : « قوانين المعاملات والتجارات وجميع المعايش واسباب الودائع والاجارات والعارية الخ » .

٣ قال داود المطران (ص ١٤—١٥) : « ثم نقلت الجميع منه من لسان السرياني الى لسان العربي ... ليكون هذا الكتاب موجود باللغتين السريانية والعربية ووسمته باللغة السريانية « ܗܕܝܐ ܘܡܠܦܢܐ » وباللغة العربية « بالمرشد »

فيتضح من قولـه هذا ان عنوان الكتاب هو ܗܕܝܐ ܘܡܠܦܢܐ اي المادي او المرشد وليس « المدى » . وقد أطلق عليه الناسخ (ص ٤٠٦) عنواناً آخر فسماه « كتاب الناموس »

٤ لسنا نرى ان « داود المطران » مترجم الكتاب كان مطراناً والا لقال صريحاً « المطران داود » لا « داود المطران » واثبت اسم ابوشيته كمألوف العادة البيعية المشهورة ، خصوصاً عند السريان ، كقولهم مثلاً ܕܘܝܕ ܡܛܪܢ ܕܕܪܡܣܘܩ داود مطران دمشق الخ .

٥ نرجح ان كتاب « الهادي » يخصّ الطائفتين المارونية والملكية معاً . وقد اثبت هـذه الحقيقة المترجم عينه ، فانه بعدما عدّد فرق الاريوسيّة والنسطورية واليعقوبية الخ . قال (ص٣٨) : « على ان الفرقتين الملكية والمارونية التي [اللتين] ذكرناهما انما هما فرقة واحدة » . ثم قال (ص ٤٤) : « فاماً فرقة الملكية والمارونية فادّعت (بالمفرد لا بالمثنى) بان المسيح بعـد الاتحاد يوصف بانه جوهران » فقوله فرقة يدلُّ به على ان الطائفتين طائفة واحدة ، في نظره ، وقد كانت كنائس الفرقة الملكية والمارونية في حلب ومنبج والرها وغيرها كنيسة واحدة حتى القرن الثامن ، كما اثبت المؤرخون المعاصرون.

وممّا يعزّز برهاننا هـذا ان المترجم ذكر الروم مراراً شتى وصرّح بانهم مخالفون له في بعض العـادات . فقال مثلاً (ص ٥٦) : « الى ان صار اكثر النصارى وهم كافة الروم والارمن » . واستثنى (ص ٥٨) : « فاما الروم ومن يجري مجراهم من الارمن ومن الافرنج وغيرهم » . وقال (ص ٦٧) : « على رأي كافة النصارى ما خلا الروم ومن كان على رأيهم من الملكية » . فأيد بقوله هذا ان الملكية لم يكونوا باجمعهم ، تابعين مقالة الروم والارمن.

ثم قال (ص ٩١) : « اختلفت اراء النصارى في اخذ القربان . فرأت الروم ان تقريبه في كل يوم واجب ... فاما الارمن فـانهم لا يرون تقريبه بالجملة

الا في اوقات مخصوصة مثل الخميس الكبير ... فاما اكثر السريان وهم اهل مذهبنا... فرأيهم ان المواظبة على اخذه في جميع الاوقات أولى من تركه حتى ان اهل مذهبنا رأوا انه ان امكن الانسان ألّا يذهب يوم واحد الا ويأخذ فيه الجسد كيفما قدر عليه وحيثما قدر عليه كان اولى واحرى ». واستلى (ص ٦٩): « فيجب بذلك ان نواظب على اخذه ونجتهد فيه ولا نقطع انفسنا من الدنوّ اليه والقرب منه. لننال بذلك ما نؤمله ويجوز به ما نرجوه من الخلود في ملكوت السماء التي لا فناء لها ولا زوال ».

ونضيف الى رأينا بان المارونية والملكية كانتا امة واحدة ان صاحب كتاب « الهادي » اثبت (ص ١١٠) كيفية العماد على نوعين اعني بصبّ الماء على رأس الطفل ثلاث مرات كما هو جارٍ عند السريان، او بتغطيسه ثلث غطسات كما هو جارٍ عند الملكيين.

ثم كتب في الصوم (ص ١٤٨) ما نصه: « فقالت الروم اذا كان سيدنا ومتولي خلاصنا صام اربعين يوم واربعين ليلة لم يفضل فيها صوم النهار على صوم الليل .... » واستلى (ص١٥٠): « فثبتت الروم ومن والاهم ورأى ارايهم من الجرجان والابكار (والبلغار) وغيرهم على الرأي الذي رأوه ... وثبت باقية النصارى على الرأي الصحيح الذي أسّسه أوائلهم ولم يغيّروا منه شيئاً الى يومنا هذا ».

هذا بعض ما لفت نظرنا حين مطالعتنا هذا الاثر النفيس. وهو ليس بنقدٍ كافٍ للكتاب لان هذا العمل يتطلّب بحثاً طويلاً. على اننا نكتفي بالاشارة الى ظهوره بالطبع مثنين اطيب الثناء على ما تكلّفه من العناء حضرة ناشره الهمام، الراهب بطرس فهد، الورع، العامل على تخليد آثار السلف. ا.

الصليب في الاسلام

درس مذهبي ادبي تاريخي مقتبس من الاصول الاسلامية بقلم حبيب زيات
١٩٣٥، مطبعة القديس بولس حريصا، ص ١٢ قطع ٨ كبير

في نية المؤلف المتضلّع من تاريخ النصرانية في الشرق ان يباشر، في الاجل

القريب ، ثم بعض صفحات وفصول في تاريخ النصرانية في الاسلام . وقد استعد للقيام بمهمته فزار المكاتب الكبرى في الشرق والغرب ، وطالع المخطوطات القديمة ، واخذ عنها معلومات نادرة سردها في سلسلة فصول هذا الكتاب، وهو الفاتحة لما سيأتي بعده . وقد يتوسم القاري خيرًا للمستقبل من عنوان الحاضر ، ويعجب بسعة اطلاع المؤلف وتدقيقه في اثبات المصادر ونقدها.

الصليب في الاسلام ! ان مجاورة اللفظتين تثير الرغبة في تصفح الكتاب لمعرفة الصلة بين الاسلام والصليب ، ولا صلة حقيقية بينهما الا التي اتخذها المؤلف سلكًا يضمّ اليه اخبارًا وملاحظات سوف يقدرها القاري حق قدرها اذا ما طالع التاريخ الموعود به . وقد اهدت ادارة مجلة المسرة الكتاب الى قرائها وهو الحلقة السادسة من هداياها، وجزء من «الوثائق لدرس تاريخ البطريركيات الملكية» ، فلها الشكر . ف . ت .

الادب العربي في آثار اعلامه

الجزء الثاني : العصر العباسي

نصوص انتخبها خليل تقي الدين ، وفؤاد افرام البستاني ، وواصف بارودي
٤٥٥ ص. متوسطة — المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٣٥ — الثمن : ١٥٠ غ . ل . س .

منذ طلعت علينا البكلوريا اللبنانية والجهود متواصلة في ترقية الآداب العربية ، وجعلها في مصاف الآداب الاجنبية التي تدرّس في لبنان فهي التي ساهمت في احداث تلك الموجة الادبية التي تجتاح لبنان اليوم ، وهي التي استحثت الادباء افرادًا وجماعات الى اصدار تآليف ادبية عديدة مذيّل معظمها بالجملة : «وضع حسب منهاج البكلوريا اللبنانية» ، وهو قول يثبت ان الباعث الاول للتآليف،عند هؤلاء، انما هو البكلوريا اللبنانية . فهي ، وان كانت لا تشكر دائمًا على ما اثارت من اقلام واحدثت من تآليف، تستنهضنا الى اعتبارها،لانها ايقظت روحًا ، لم تكتمل بعد ، على انها روح نعرف فيها انفسنا ، وهي معرفة كنّا اخطأناها لولاها ولولا عدد من الجهود الموفقة قام بها البعض من رجالات لبنان وادبائه . وليس ما يغتفر جناية البكلوريا على الادب العربي، يوم ايقظت «العنداري»

للتأليف في الادب والفلسفة الّا بعض منشورات تقوم بها نخبة صالحة من رجال الادب والفن نعترف لها بكل يد بيضاء على الناشئة خاصّة والادب عامّة. وما كان اصحاب « الادب العربي في آثار اعلامه » الّا من هذه النخبة الصالحة.

وليس من شك في العناية الظاهرة في هذا الكتاب المفيد. كما اني لا اعرف كتاباً في العربيّة كلّها يجمع لبشار، وابن الرومي، وأبي نواس، والجاحظ، وبديع الزمان الهمذاني، وغيرهم من شعراء العصور العباسيّة وكتّابها ما جمعته لهم هذه المختارات. ونظرة واحدة سريعة على مقدمات المنتخبات، تلك المقدمات الصغيرة، الجمة الفائدة، وعلى الذيول والحواشي الكثيرة تكفي لتدرك جهود اصحابه واطلاعهم الوافر. وهو ما تحققناه كذلك في الجزء الاول (المشرق ٣٢ [٩٣٤] ٦٣٦).

ونحن نرى في هذه السلسلة التي تعدّها المعارف بعناية الاساتذة الثلاثة خيراً جزيلاً للطلّاب الذين تعوّدوا الاستيعاب والحفظ دون ما برهان او اثبات. وعذرهم كبير في مسلكهم هذا، لأن جلّ ما كان يتصل اليهم بعض آراء استقاها استاذهم من هنا وهناك، وضمّ اليها رأياً شخصياً لم يكن في غالب الاحيان الّا رأي الاكثرية. امّا الآن، وقد باتت هذه المجموعة بين ايديهم يعودون اليها ساعة يرغبون، فاصبحنا نظنّهم يقلعون عن طريقتهم القديمة، واصبح بمقدورهم ان يضعوا على محكّ النقد الآراء التي يسمعون فيما بينها رأي استاذهم الكريم. فكل رأي لا تقيده الشواهد والاثباتات مرذول بنظرهم، وأنّى لهم، في سبيل الاستشهاد، مجموعة من الشعر والنثر اكبر واصدق من هذه التي تضعها اليوم مديرية المعارف بين ايديهم!

فعسى ان يعود هذا الكتاب بالمنفعة المتوخّاة على الطلبة والتلاميذ والاساتذة، فتنشط المعارف الى انجاز مهمتها الكبيرة، فتتمّ علينا هذه السلسلة الكثيرة الفوائد. ونودّ لو ان المعارف تؤلّف اللجان القديرة في كل فرع من فروع العلم والادب لاصدار منشورات تتفق ونزعاتها اللبنانية الشريفة، فتتسع الفائدة على طلابها، وتكون هذه المنشورات الادبيّة القليلة طالعة عهد جديد في حياتنا العلميّة وحياة المعارف اللبنانية. والله المجيب *

ا. ح.

المعجم الفلكي

تأليف الفريق امين فهد المعلوف

١٤٤ ص. متوسطة صغيرة مطبعة – دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٥

لصاحب الكتاب يد طيّبة عند جميع المشتغلين بالعلوم الطبيعية في لغتنا، فمن «معجم الحيوان» الى «المعجم الفلكي» سبيل واسع عمل على تمهيده فاستحقّ الشكر والاعجاب. كلّ ذلك الى بساطة في العرض، وسلاسة في المأخذ، وامانة في ردّ الفوائد الى مصادرها لا يتّصف بها الّا العلماء المخلصون، وما اقلّهم عندنا! كان المؤلف قد نشر منذ بضع سنوات، في «مجلة المجمع العلمي العربي» الدمشقي اسماء بعض النجوم بالانكليزية وما يقابلها بالعربية، ثم اتاحت له الاحوال ان عرض هذه اللائحة على بعض الاختصاصيين، فزاد، ودقّق، واصلح، حتى تولّد هذا المعجم اللطيف يستفيد منه لا الفلكيون فقط، بل كلّ اديب تعرض له اسماء النجوم في مطالعاته العربية فيودّ ان يعرف ماهيتها وموقعها، وما تدعى به باللغات الاجنبية. هذا والمؤلّف عارف قدر عمله معرفةً تامّة، لا ينقص منها التواضع الزائف، ولا يطوّح بها الغرور، على نحو ما قال في ختام مقدّمته: «هذا مؤلّف صغير ولكنه مبتكر في العربية لم ينسج على منواله قبلًا فلا غرو اذا كثر الخطأ والنقص فيه.» قلنا: امّا الاخطاء والنواقص فاننا نترك تداركها لارباب هذا الفنّ، وامّا الابتكار فان بامكاننا ان نتحقّقه ونهنّئ به المؤلّف

ف. ا. ب.

خصائص اللغة العربية

تأليف حبيب غزاله بك

٢٢ ص. متوسطة – المطبعة المصرية، مصر، ١٩٣٥

شاء مؤلّف الكرّاس ان يجعله «بحثًا في اللغة العربية الفصحى والعامية، وما يقابل خصائص الفصحى في غيرها من اللغات»، فلم تكن مشيئته، إمّا لقلّة المواد وامّا للرغبة في الاختصار، فاكتفى بجمع معلومات في خصائص العربية منها ما يختصّ باللغة نفسها، ومنها ما يتعلّق بالبديع، ومنها ما يتصل بالحروف

بيد انها كلّها تظهر بحـاجة الى حسن ترتيب ، وضبط تأليف ، وتحفّظ في الاستقراء والاستنتاج ، وعرض على « ما يقابلها في غيرها من اللغـات » ، كما ذكر. ولعلّ من غرائب المبالغة في اعلاء شأن لغتنا « سيّدة اللغات » قول المؤلّف: « ومن محاسنها تصويرها لأحوال النفس تصويرًا دقيقًا بليغًا » (ص ٢٠) ، وكلّنا يشعر بعجزها عن التحليلات النفسية ! ثم استشهاده بغوستاف لوبون ، ولم يبقَ من يجهل اليوم غرور هذا المتصدّي للاستشراق، ونقله لقول بوركهارت : « انه مع كثرة اللهجات في اللغة العربية يتيسّر لمن يعرف لغة واحدة منها ان يفهم سائر اللهجات . . . » (ص٢٤) حتى لقـد حزنا ، باي امر نأخذ : بقول الرحّالة الشهير فنؤمن انّ بامكاننا ، ونحن نعرف اللهجة اللبنانية والسورية ، ان نفهم اللهجة المراكشية والحجازية واليمنية ، أم بالأمر الواقـع وهو عجزنا حتى عن فهم اللهجة العراقية ! ولكنّ للمؤلّف عذرًا في حبّه للغته وغيرته عليها ، « والله وليّ الهداية والتوفيق الى مـا فيه اعلاء كلمة الادب ورفع منار لغة العرب » (ص ٣٢) . ف. ا. ب.

مآثر نابوليون بونابرت

تأليف حبيب غزاله بك

١٥ ص. متوسطة — المطبعة المصرية ، مصر ١٩٣٥

وهذا ايضًا كرّاس للمؤلّف نفسه ، ولكنه في التـاريخ ، وفي ناحية خاصّة منه : مآثر نابوليون بونابرت . جرى فيه على اسلوب موجز جامع، عارضًا حيـاة نابوليون السياسية ، فمآثره في فرنسة وغيرها من اقطـار اوربة ، ففي مصر ، بلد المؤلّف. ف. ا. ب.

درجات الحساب الحديث للمدارس الابتدائية : الدرجة الاولى

تأليف منصور جرداق

المطبعة الاميركانية ، بيروت – قطع ١٢ كبير ، ٢٦١ ص.

مؤلف الكتاب معروف بالكتب العديدة التي وضعها في العلوم الرياضية . ولانحتها لا تقل عن ١٣ ، ويذكر له قراء مجلة « الكلية » (سابقًا) ، مقالاته في

علم الفلك . وهو استاذ الرياضيات ، ومدير الدروس الهندسية في الجامعة الاميركية ببيروت ، وعضو جمعيات علمية في الشرق والغرب ، جرى في هذا الكتاب على اسلوب الافرنج في تعليم الحساب صغار الناشئة بتفتيق عقولهم وتلقينهم ضبط الاعمال ، وسرعة التدقيق . وان كتابه وضع للصف الاول والثاني من القسم الابتدائي الاعدادي للشهادات في مختلف البلدان العربية ، وفيه الصور والتمارين والاسئلة المفيدة ، المساعدة على التدريس . ف . ت .

غوردون باشا

بقلم ه . س . جاكسون ، مدير مديرية وادي حلفا سابقاً

تعريب عزيز يوسف عبد المسيح

صدر من جمعية نشر المعارف المسيحية ويطلب من ادارتها ببولاق مصر ، ومن كاتدرائية سانت جورج بالقدس ، ومكتبة السودان ، الخرطوم . قطع ١٢ كبير ؛ ص ١١٥

ذكرت سنة ١٩٣٣ اصحاب غوردون باشا بمئة سنة مضت على ميلاده في انكلترة ، سنة ١٨٣٣ ، فاتى هذا الكتيب عنواناً لتلك الذكرى . ان حياة غوردون متصلة بتاريخ السعي الانكليزي في الصين ، وفي تركية ، وفي مصر ، وفي السودان ، الى ان قُتل فيها ابَّان ثورة المهدي ، فادى موته فرصة لتدخل الانكليز في السودان ، ولم يخرجوا منها بعد .

كان غوردون رجلاً سياسياً ، وكان رجلاً عسكرياً ، وكان رجلاً ادارياً وكان . . . مبشراً انجيلياً او شيئاً اشبه بالمبشر . هذه الملامح بيّنة عليه في ترجمة حياته كما وضعها جاكسون وقد توخى في مؤلفه ان يضع لعامة القراء وبسطائهم مثلاً يُقتدى به في الصلاة ، والتسليم لارادة الله ، وحب الفقراء وغير ذلك من الفضائل .

وحبّذا النصح الداعي الى ممارسة الفضائل ، لولا ان امراً فات المؤلف وهو انه صوّر بطله تصويراً يؤدّي لاعداء الارساليات المبيحية علة ليحتجوا على المرسلين انهم ياتون البلاد بملة التبشير في الظاهر ، واما في الحقيقة فغايتهم انما تمهيد السبيل للفتح الاستعماري .

ان المرسل المسيحي في البلاد الغير المسيحية قد تلجئه الظروف الى الاستعانة بحماية دولته ليتمتع بالحرية التي يتمتع بها الناس. وان تقضِ الظروف في تطور الاحوال السياسية بما لم يكن بحسبان المبشرين، فلا لوم عليهم في ذلك، وحياتهم تشهد انهم رجال دين لا سياسة. اما غوردون فكان رجل دين وسياسة، ومعروف ان انكلترة (ص ٨٦) ارسلت غوردون الى السودان تحت ضغط شديد من الراي العام الذي ثار يطلب تدخل حكومته لابطال الرقيق ومحو النخاسة، فارسلته بلا قوة. وبعد وصوله بشهور، ارسلت اليه قوة لتنجده. ولكن النجدة وصلت بعد مقتل غوردون، وكان قد حبس نفسه في الخرطوم، فمات. ودخلت من بعده البلاد السودانية في ظل العلم البريطاني، واقاموا كاتدرائية فخمة تخليدًا لذكره (ص ١١٣) ف. ت.

تساعية تتلى قبل عيد الحبل بلا دنس

تأليف الخوري مخائيل غبريل

مطبعة العرائس، بكفيا، قطع ١٦ صغير، ص ٦٤

للسيدة العذراء في بيت شباب كنائس بنتها اسر تلك البلدة، وتنافست فيها بتكريم البتول الطاهرة، وقد أسعدنا غير مرات بزيارة تلك الكنائس وخدمة المؤمنين فيها ابان القيام بوظيفتنا في ادارة مدارسها سنة ١٩٢١ و١٩٢٢. اذ ذاك كان الاب الوقور الخوري مخائيل غبريل، مرشد اخوية الحبل بلا دنس في كنيستها الواقعة في وسط البلدة بالقرب من المدارس. والاب مخائيل معروف في عالم الادب والتاريخ بعدة مؤلفات منها تاريخ الكنيسة المارونية، وترجمة التعليم المسيحي للبابا بيوس العاشر وها انه اضاف اليها مؤلفًا جديدًا طبعه مصدرًا بختم صاحب السيادة المطران بولس عواد، وفيه التمارين والممارسات الروحية الاستعدادية لعيد الحبل بلا دنس كل تمرين يبدأ بتلاوة ثلث المسبحة، وفيه تأمل يلحقه خبر روحي وصلوات، على نسق تمارين الشهر المريمي، وهذه التمارين وضعت لتسعة ايام. وقد انجلت لهجة الكتيّب بعبارات التقوى فكان مساعدًا على انماء العبادة للسيدة الطاهرة. ف. ت.

حوادث وعبر

تأليف دلال خليل صفدي

مرجعيون ١٩٣٥، ص ٧١، قطع ٨

سبق للمشرق تعريف الآنسة، واضعة هذا الكتاب، فهي معلمة في احدى المدارس، لم تكتفِ ان تبذل تعبها في تلقين الناشئة مبادي العلم والادب ضمن منطقة مدرستها، بل ارادت مجاوزة المحيط الذي هي فيه ونشر اقوالها وافكارها في كتب مراميه بعيدة الاطراف وفيه الفكاهات والعبر، وهو عنوان الجهود والنهضة التي تدفع العقول والايادي الى العمل لا في المدن الكبرى والمعاهد الشهيرة فقط ولكن في سائر انحاء سورية ولبنان ايضاً ف. ت.

الروضة الطبية لعبيدالله بن بختيشوع

مختصر في علم النفس الانسانية لابن العبري

نشرهما القس بولس سباط

٧٢ ص متوسطة – مكتبة ه. فريدريخ وشركاه، مصر، ١٩٢٧

٦٥ ص. متوسطة – مكتبة ه. فريدريخ وشركاه، مصر، ١٩٢٨

تأليفان قديمان مفيدان اولهما في الاصول الطبيّة العملية اختصره مؤلفه عبيدالله ابن جبريل بن بختيشوع النسطوري († ١٠٥٨) من كتابه المعنون «تذكرة الحاضر وزاد المسافر» تلبيةً لاقتراح ابي الحسن محمد بن علي. وثانيهما في الفلسفة النفسية لغريغوريوس ابي الفرج المعروف بابن العبري اليعقوبي († ١٢٨٦). وكانا لم يظهرا بالطبع بعد، فاهتم القس بولس سباط بدرس ما جمع عنهما من مخطوطات، ونشرهما مع حواشٍ قليلة، ومقدمة موجزة حتى التقصير، مستنداً في الاول الى ثلاث مخطوطات من مكتبته، وفي الثاني الى مخطوطتين من مكتبته نفسها. ومن المفيد ان تُقابل رسالة ابن العبري هذه برسالة ثانية له في الموضوع عينه: «النفس البشرية» نشرها الاب شيخو في المشرق (١ [١٨٩٨]

٧٤٥ . ٠)، ثم في مجموعة « المقالات الفلسفية القديمة لبعض مشاهير فلاسفة العرب »، بيروت، سنة ١٩١١ (الطبعة الثانية) ف ١٠ ب

روزنامة سيدة التلة الكنائسية للسنة ١٩٣٦

هي السنة الرابعة والعشرون لهذه الروزنامة الجامعة، التي ينتظر ظهورها، في مطلع العام الجديد، كل من اعتادوا، من اكليريكيين وعلمانيين، ان يهتدوا باشاراتها الى التواريخ والاعياد الشرقية والغربية والهجرية، ويطّلعوا بتنبيهاتها على الفروض والاحتفالات الخاصّة بالطقس الماروني، ويستنيروا بحكمها ووصاياها، ويتفكّهوا بنوادرها ونكاتها المستملحة. فيسرّنا ان نعلمهم بصدورها حافلةً بكل ما تقدّم ذكره، وانما تطلب من حضرة مؤلفها الاباتي افرام حنين الديراني الحلبي اللبناني، في دير القمر، ومن مخزن الخواجات خليل حنين واولاده في سوق الجميل، بيروت، ومن مطبعة الآباء المرسلين في جونية، ومن اشهر المكاتب.

* التأبين الذي القاه ابّان الصلاة على جثمان المرحومة نبيهه كرم الاب انطونيوس شبلي اللبناني * ١٦ ص. متوسطة – مطبعة القديس بولس، حريصا، لبنان، ١٩٣٥

* التقرير السنوي الثالث لمشروع انعاش القرى في الجامعة الاميركية في بيروت * ٣٠ ص. متوسطة – المطبعة الاميركانية، بيروت، ١٩٣٥

* الروح فوق المادة * تأليف جوزف هوكن، تعريب تامر داود – المطبعة الاميركانية، سنة ١٩٣٤، قطع ١٢ صغير، ص١٧٠

* الاعرج عند الباب الجميل – في طريق الشام – هرب شاول من دمشق * تأليف الزا انا-وود، كراريس صغيرة – جمعية نشر المعارف المسيحية، بولاق، مصر

* قصة عزيزة وعدلي * تأليف فلورنس فريما تل، تعريب سنيورة جرجس – جمعية نشر المعارف المسيحية، بولاق، مصر، قطع ١٢، ص ١٥٧

* فهرس الكتب المستجدة والمطبوعات النادرة في « مكتبة العرب » لصاحبها الشيخ يوسف توما البستاني * ٥٤ ص. متوسطة – مطبعة العرب للبستاني، مصر، ١٩٣٥